



كلية الآداب
قسم اللُّغة العربيَّة

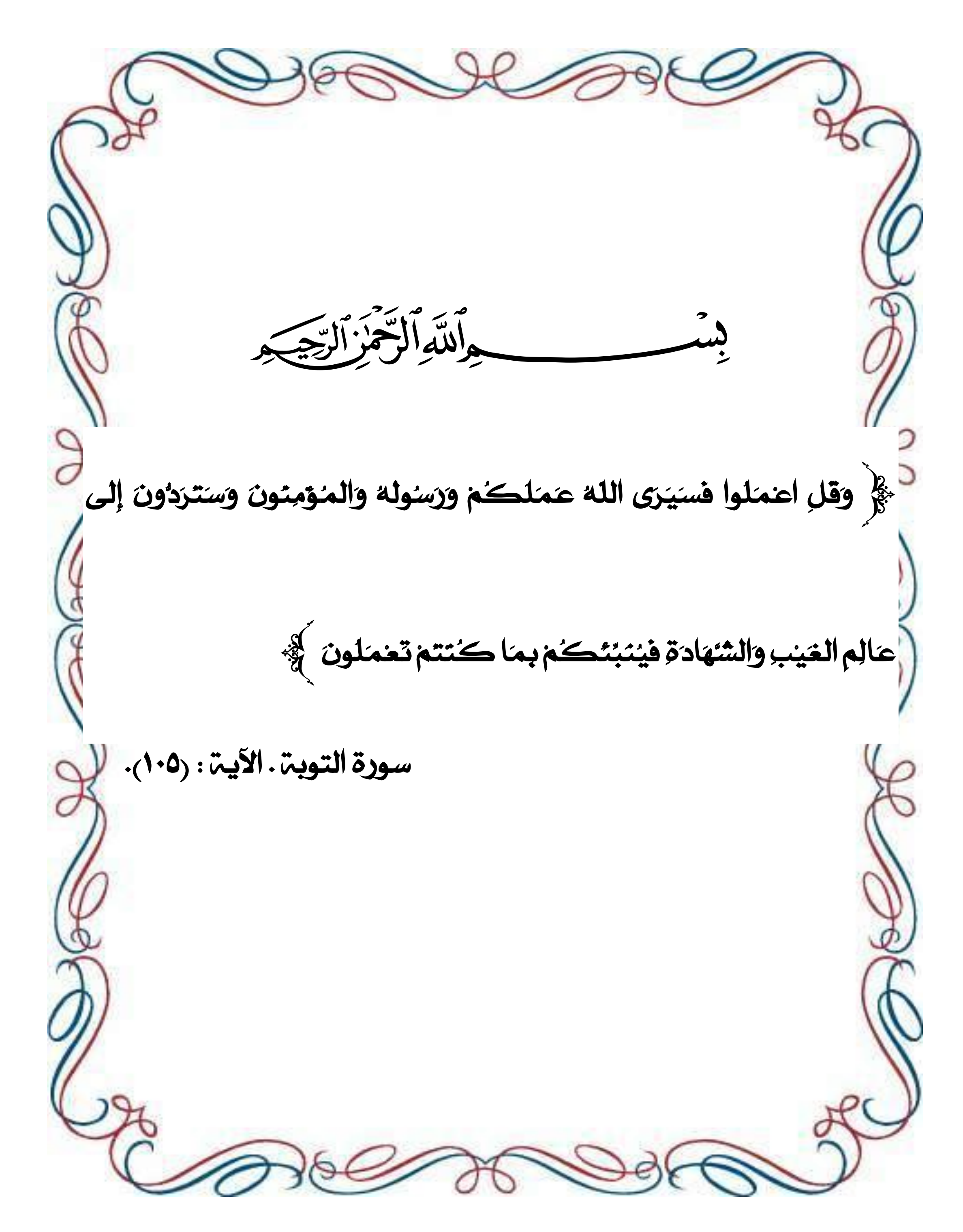
مُحَاضَرَاتٌ فِي بلاغة القرآن والحديث

دكتور

محمَّد محمَّد موسى أبو جبل

الفرقة الثالثة - قسم الدِّراسات الإسلاميَّة

١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

سورة التوبة . الآية : (١٠٥).

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدِّمَةُ:

الحمد لله ذي الجلال والإكرام، وشارع الحلال والحرام، الذي أتقن بدائع مصنوعاته على أحسن نظام، وخص من بينها مَن شاء بمزيد الطول والإنعام، ووفقه وهداه إلى دين الإسلام، حمدًا لمن نظم جواهر البلاغة بأسلاك البيان، وألهم كل بليغ لمقتضى الحال والشان، وأكرم مَن شاء بفضيلة الإحسان، والكلم الحسان، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تشفي الوئام، وتكون لنا الحجَّة عند حشرجة الأنفس وسكرات الحِمام، وأشهد أن سيدنا مُحَمَّدا عبده ورسوله مُحَمَّد المفضل على جميع الأنام، خير من صلى وصام، وأوتي جوامع الكلام، أفصح من نطق بالضاد من بني معد وعدنان، المؤيد بالقرآن، الذي أعجز مصانع البلغاء من قاص ودان، فلم يكن لهم في معارضته يدان، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه الغرّ الميامين الكرام الفصحاء الجلة الأعيان.

أمَّا بعــد،،،

فإنَّ البلاغةَ– كما هو معلوم – مطابقةُ الكلام لمقتضى الحقيقة ، وهي لبُّ العربية، وقد وُضعتْ لخدمة القرآن الكريم وكلام النبي – ﷺ – خاصةً، ولخدمة علوم العربية عامةً.

وينالُ هذا العلم الشرف الأعلى لكون مادته القرآن الكريم ،فما نالت العربية هذا الشرف إلا بشرف مادتها وهو القرآن الذي جاء بهذا اللسان، فارتقت العربية وعلتْ، فعَنْ عُثْمَانَ – رضى الله عنه – عَنِ النَّبِيّ – ﷺ – قَالَ « خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ »[1]، فلا يمكنُ أن يوصل إلى أحكام القرآن الكريم، وفهم دقائقه ومعانيه وفقه لغته والعلم بها وضبط قواعده والوقوف على علوم معانيها وبيانها وبديعها ومعرفة مفاتيح التنزيل إلا باللغة العربية، وكذلك معرفة أقوال النبي ﷺ ، فهو أبلغ البلغاء، فاللغةُ العربية هي علم الآلة.

وعلم البلاغة معدود من جملة العلوم الإسلامية، كما أنه معدود في جميع علوم الأدب، وتحتل البلاغة بين هذه العلوم مكانة سامية ومنزلة رفيعة، وموضع علم البلاغة من العلوم العربية موضع الرأس من الإنسان أو اليتيمة من قلائد العقيان، فهي مستودع سرها، ومظهر جلالها، فلا فضيلة لكلام على كلام إلا بما يحويه من لطائفها، ويودع فيه من مزاياها وخصائصها، ولا تبريز لمتكلم على آخر إلا بما يحوقه من وشيها، ويلفظه من درها، وينفثه من سحرها، ويجنيه من يانع ثمرها. فدراسة علوم البلاغة وقواعدها تمكن الدارس من تحقيق الأهداف والفوائد التي توخاها المؤلفون في هذا العلم.

١ – أخرجه البخاري برقم(٥٠٢٧)

فالبلاغةُ ذروةُ سنام العربية ولبُّها وتاجُها وجوهرها البلاغةُ، وقد عدَّها العلماء علماً قرآنيًّا؛ لأن نشأتها أساسًا كانت في أحضان فهم التنزيل، وإدراك أسباب الإعجاز، ومعرفة طرقه ومسالكه.

ويعدُّ القرآنُ الكريم (الوحيُ المتلو) هو ذروةُ سنامِ الفصاحةِ، فمنْ عرف إعجازه ومسائله ودقائقه وقواعده فما دونه من الفصاحة كان أعلمَ به، ويلي القرآنُ في الفصاحة سُنَّةُ النبي ﷺ (الوحيُ المعنويُّ) وكلاهما بلسانٍ عربي مبين، فمنْ أراد تعلُّمَ الوحيين فعليه تعلُّمَ العربية، ثمَّ يلي الوحيين كلامُ العرب وإدراكهُ أيضًا لا يتمُّ إلا بتعلُّمِ العربية والبلاغة.

ولم يكن الباحثون في البلاغة العربية منذ صدر الإسلام مدفوعين إلى ذلك بباعث الشغف العلمي والبحث النظري المجرد في البلاغة، وإنما حفزهم في الواقع إلى الاشتغال بها رغبة ملحة في تحقيق هدفين: هدف خاص وآخر عام:

أما الهدف الخاص فكان هدفا دينيا يرمي إلى معرفة إعجاز كتاب الله، ومعرفة معجزة رسوله الذي أوتي جوامع الكلم وكان أفصح من نطق بالضاد. وذلك الهدف يدل على مدى الأثر الذي خلفته الدراسات الأولى في البلاغة، وهو البحث في أسرار الإعجاز وأسبابه، واعتبارها مكملة للإيمان بالنبي ورسالته.

وأما الهدف العام فلا يتعلق به غرض ديني، وإنما هو محاولة الاطلاع على أسرار البلاغة والفصاحة في غير القرآن، من كلام العرب شعره ونثره، وذلك لأن من لا علم له بأوجه البلاغة يعجز عن التمييز بين الفصيح والأفصح، والبليغ والأبلغ.

وقد قسَّم البلاغيون البلاغة علوم ثلاثة أقسام: "علم المعاني، وعلم البيان، وعلم البديع":

ففن البيان: هو المسائل التي بمعرفتها يعرف وضوح الدلالة على المراد كقولك: عنترة أسد، وحاتم كثير الرماد.

وفن البديع: هو المسائل التي تبحث عن المحسنات اللفظية والمعنوية.

أمَّا علم المعاني: فهو علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال[١].

وهذه محاضراتٌ في بلاغة القرآن والحديث أقدِّمُها لطلابي بالفرقة الثَّالثة بقسم الدِّراسات الإسلاميَّة / كلية الآداب / جامعة أسيوط، وقد توخيت فيها أن تكون ملائمة لمستوى هذه المرحلة، ومن الله التوفيق والسداد.

---

١ الإيضاح، للقزويني.

العصر الجاهلي

البلاغة في العصر الجاهلي:

الفنون أنواع شتى: منها التصوير والنحت والعمارة، ومنها الموسيقى والأدب والفنون بمختلف ألوانها تتظاهر على إبراز الجمال، والتعبير عنه بوسائلها الخاصة، والأدب هو فن الكلمة والكلام، فن اللفظ والمعنى، فن التركيب والتعبير، وكل ذلك يدخل في نطاق الفصاحة والبلاغة؛ فالبلاغة نوع من أنواع الفن، وصورة من صوره، تقوم على الطبع الأصيل، والفطرة السليمة.

والعرب بطبعهم الأصيل، وفطرتهم السليمة، اشتهروا منذ العصر الجاهليبالفصاحة والبلاغة، والتمتع بسلامة الذوق في معالجة الكلام من اختيار للألفاظ والمعنى، وحسن التركيب وإجادة التصوير، ورصف البديع، كما اشتهروا بالبعد عن فضول القول والحشو، والإسهاب، وكل ما يقلل من شأنهم.

ولم تكن العرب تفخر بتلك الفصاحة فحسب، وإنما كان يترتب على تلك الفصاحة أشياء ترفع من شأن العربي الذي يتسم بها؛ فيسود قومه، ويعلو شأنه، ويخبرنا الجاحظ في كتاب شرائع المروءة: "أن العرب كانت تسود على أشياء ... وكان أهل الجاهلية لا يسوِّدون إلَّا مَنْ تكاملتْ فيه سِتُّ خصالٍ: السَّخاءُ، والنَّجْدَةُ، والصَّبرُ، والحِلْمُ، والتَّواضعُ، والبيانُ"[١].

---

١ خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبد القادر بن عمر البغدادي (المتوفى: ١٠٩٣هـ)، ٣/ ٩٥.

فالبيانُ شرط من شروط السيادة بين العرب، ومن دونه يستحيل على العربي مهما اتصف بكثير من الصفات الحميدة، أن يأمل في سيادة قومه وعشيرته.

وأبرز ما يلفت أنظارنا في لغة العرب في العصر الجاهلي أنها لغة إيجاز، وأنهم حريصون على هذا الإيجاز كل الحرص، فيحقون الحرف، والكلمة، والجملة، والجمل، إذا كان الكلام مفهوما من دونها، وظهر الدليل عليها، فيأنسون إلى طبيعتهم في الاقتصار، ويشيرون إلى المعنى إشارة معبرة موحية تغني عن الكلام الطويل والسرد المملول.

يقول بعض الحكماء: "البلاغة علمٌ كثير في قول يسير"[١]. أو "إجاعة اللفظ، وإشباع المعنى"[٢]؛ فالإيجاز فضيلة مشهورة في لغة العرب، وهم يعتزون بذلك كل الاعتزاز ويفخرون، فاللغة العربية مع السعة والكثرة أخصر اللغات في إيصال المعنى؛ لأنها كانت لغة تفصح عن المقصود، وتظهره مع الاختصار والاقتصار، فهي أولى بالاستعمال وأفضل مما يحتاج فيه إلى الإسهاب والإطالة"[٣].

وينبغي أن ننبه إلى أن الإيجاز لم يكن محمودًا في كل المواطن، بل في الموطن الذي لا يحتاج فيه المعنى إلى سواه، فالإيجاز في لغة العرب طبع وسليقة

---

١ الصناعتين، أبو هلال العسكري، ص٣٧.

٢ العمدة في محاسن الشعر وآدابه، أبو على الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (المتوفى: ٤٦٣ هـ)، ١/ ٤٢.

٣ سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٤٨.

وروح وأصل ، ثم صار لأهميته في تزيين الأسلوب اجتهادًا وروية، وتدريبا؛ حتى يصل البليغ إلى الكمال؛ وذلك لأنه يترك على أطراف المعاني ظلالًا خفيفة يشتغل بها الذهن، ويعمل فيها الخيال حتى تبرز، وتتلون، وتتسع؛ فيزيد الاتجاه من دلالة الكلام[١].

ومعنى هذا أن حسن الإيجاز يرجع إلى سبب نفسي؛ فهو يقتضي أن يشارك السامع المتكلم في تكملة الكلام وبيان المراد.

على أن الجاحظ لم يكن يعني بالإيجاز قلة عدد الحروف، أو اختصار الألفاظ الذي يؤدى إلى الإبهام؛ "فقد يستغرق الكلام صفحات طوال، ولا يخرج عن الإيجاز"[٢]. وإنما يعني بالإيجاز اللفظ الموحي بالمعنى في إجماله.

ولعل السبب في ميل العرب للإيجاز، أنهم كانوا يعتمدون على ذاكرتهم في الحفظ، والإيجاز أيسر حفظا وأقرب تذكرا من غيره من صور الكلام[٣]، ولذلك كان الاتجاه العام عند نقاد العرب أنهم يفضلون الإيجاز، ويعدونه حد البلاغة منذ أقدم العصور.

والعرب في الجاهلية لم يكن يعنيهم الإيجاز وحده دون الألوان البلاغية الأخرى، وإنما نلحظ في قصائدهم الوقوف على اختيار الألفاظ والمعاني والصور، ومن يتصفح أشعارهم يجدها تزخر بالتشبيهات، والاستعارات،

---

١ دفاع عن البلاغة، الزيات، ١١، ١٣.

٢ الحيوان، ١/ ٩١.

٣ علم المعاني، د/ درويش الجندي، ١٦٥.

والكنايات، والطباق، والمقابلة، والجناس، وغيرها من الصور والألوان؛ حتى يصبح قرض الشعر عملا فنيا متكاملا، وهذا أوضح برهان على عنايتهم الفائقة بتحسين الكلام، والتفنن في ألفاظه ومعانيه، وأنهم قوم يمتازون باللسن، والفصاحة والقدرة على حوك الكلام ونظمه.

وهل ننسى ما نقرأ عنه في تاريخ الأدب العربى عن مدرسة الحوليات من أن زهير بن أبي سلمى صاحب القصائد الحولية كان يكرر نظره في قصائده حينا بعد حين على وجه التنقيح والتثقيف؛ خوفا من التعقب والنقد، فيمر عليه الحول قبل أن يشرع في بناء قصيدة أخرى، ولا نبعد كثيرا إذا زعمنا أن العرب في الجاهلية عرفوا الفن البياني، ولعل قول زهير:

ما أرانا نقول إلا معارا   أو معادا من لفظنا مكرورًا

أوضح دليل على أن العرب في الجاهلية عرفوا "الفن البياني": "والذي يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه"[١].

فقد لاحظ زهير أن ما يقوله هو وغيره لا يتجاوز المعنى المعروف بألفاظ مختلفة، وهذا يتفق مع تعريف المتأخرين لعلم البيان.

ومدرسة زهير التي كان أصحابها رواة يتخرج فيها بعضهم على بعض، فالتلميذ يلزم أستاذًا له يأخذ برواية شعره، ومعرفة طريقته، وما يزال به حتى

---

١ شروح التلخيص للقزويني وغيره، ٣\٢٥٨.

تتفتح مواهبه، ويسيل الشعر على لسانه، وحينئذ يورد عليه بعض ملاحظاته على ما ينظم، وقد يصلح له بعض نظمه[١].

كل هذا يدل على أن الأمر لم يكن متروكًا للطبع والسليقة، أو الاكتفاء بالإحساس الذي لا يصاحبه معاودة للنظر، فهذه المدرسة التي قامت على المدارسة والممارسة، واعتمدت على الفطرة والموهبة، قبل اعتمادها على شيء آخر قد أخذت فرصتها الكافية لصقل موهبتها، والكشف عنها، وأفسحت الطريق أمامها؛ لظهورها والسير بها نحو الكمال. "وليس أدل على ذلك من أن العرب في جميع عصورهم لم يعنوا بشيء قط عنايتهم بفصاحة اللفظ وجزالته، ورقيق الأسلوب ورصانته، وقد جعلوا الإعراب، واصطفاء اللفظ، والملاءمة بين الكلمة والكلمة في الجرس الذي ييسر على اللسان نطقه، ويزين في الأذن وقعه أساسًا لكل هذه الخصال"[٢].

ومن ثم نستطيع أن نقول في اطمئنان: "إن فصاحة العرب في الجاهلية لم تكن على الموهبة أو الفطرة وحدها، وإنما كانوا يعملون على صقلها بالممارسة، والدربة، والتنقيح؛ حتى وصلت إلى ما وصلت إليه، وهذا يتفق مع طبيعة أي فن من الفنون؛ فالموهبة وحدها في العمل الفني لا تجدي إذالم تساندها الدراسة – مهما كان نوعها –؛ حتى تتضح ويكتب لها البقاء والخلود.

---

١ البلاغة تطور وتاريخ، د/ شوقي ضيف، ص ٢٣.

٢ ألوان د. طه حسين، دار المعارف، ط٤، ص ١٤.

العصر الإسلامي

البلاغة في العصر الإسلامي:

كانت الحاجة ماسة إلى ذيوع البلاغة وانتشارها في العصر الإسلامي؛ لأسباب سياسية وعقائدية؛ فالمسلمون ينافحون عن صدق النبوة، والدعوة الإسلامية الجديدة، ولا شك أن هذه الدعوة الإسلامية قامت على النضال بالبيان، كما قامت على الحرب بالسيف؛ فللرسول -ﷺ- أنصاره من المسلمين، وللشرك أتباعه من الكافرين، ورحى الحرب تدور بين الفريقين. فالمسلمون يمدحون الرسول، ويؤيدون الدعوة الجديدة، ويهجون المشركين ويسفهون الشرك والوثنية. والمشركون -أيضا- كانوا يقومون بمثل ما كان يقوم به المسلمون من مدح وهجاء، وكل فريق ينشد البراعة الفنية، والمقدرة البلاغية.

ثم التنافس الشديد الذي قام بين المهاجرين والأنصار؛ للاستئثار بالخلافة بعد وفاة الرسول-صلى الله عليه وسلم-، وهذا وذاك يدعو لنفسه بالخطب تارة، وبالجدل والمحاورة تارة أخرى.

والفتنة التي نشبت بين علي ومعاوية، ولكل منها أتباعه ينشر الدعوة لمن يناصره هنا وهناك في الأمصار، وبين القبائل بما يخلب القلوب، ويجذب الأسماع، ويؤثر في النفوس، ولا سبيل إلى شيء من ذلك سوى المقدرة البلاغية والبراعة الفنية.

وفي عهد الخلفاء الراشدين والأمويين نسمع بأن المهتمين بسلامة اللغة، والمحافظة على نقائها يرتحلون البوادي، أو يستقدمون الأعراب الخُلَّصَ، أصحاب السليقة الفطرية والطبع السليم؛ ليحفظوا منابع الفصحى وسلامة اللسان، فكانت البلاغة والفصاحة تلتمس في هذه العصور؛ حفاظا على كيان الأمة القومي، وعصبيتها الدينية.

وعندما اختلط العرب بغيرهم من الأجانب بعد اتساع الفتوح الإسلامية، واتصلوا بثقافتهم، وعرفوا حضارتهم، أمكنهم التعرف على طرق جديدة في فن الخطابة والكتابة، وانتفعوا بها، وكان لها أثرها في أساليبهم ومعانيهم.

وقد تطور الأدب تطورا سريعا بعد ظهور الإسلام بنحو نصف قرن، حين نشأ الجيل الجديد من العرب، واتصل بالأمم الأجنبية.

فالشعر تطور في ألفاظه، وأوزانه، وأساليبه، وفي معانيه وموضوعاته، ونشأت فنون لم تكن من قبل، واستحدث النثر خطبًا مطولة، وقصصًا مفصلة، ورسائل موجزة مجملة، وغير ذلك.

والنثر قد اتخذ لنفسه أصولا فنية تقليدية تقارب أصول الشعر؛ فحرص على اللغة العربية، وعلى الفصاحة والجزالة، وعلى الرونق والرصانة، وحرص على هذه الأصول حرصا شديدًا مستمدًا أكثرها من الشعر الذي اتخذه إماما له في أول الأمر، ثم نافسه وغلبه بعد ذلك.

واستعمل الكتاب البديع والزخرف، وأكثروا من الصنعة، وأسرفوا فيها إسرافًا ربما انتهى بهم إلى السخف في كثير من الأحيان[1].

هذه صورة موجزة عن الحياة الأدبية في العصر الإسلامي نثرًا وشعرًا، وكتابة وخطابة، وقد ألحت عليهم الظروف أن يتناولوا هذه الفنون ويمارسوها.

أما البلاغة في ذلك العصر فينبغي أن نتحدث عنها بشيء من التفصيل؛ حيثُ نلاحظ أن البلاغة في هذا العصر لا تختلف كثيرا عن البلاغة في العصر الجاهلي، فقد كان العرب في صدر الإسلام يجرون في أساليبهم على الطبع والسليقة تارة، وعلى الدربة والتثقيف تارة أخرى، فيعطون اللفظ والمعنى حقهما، ويصلون إلى الغرض في إيجاز أو إطناب أو مساواة على حسب ما يقتضيه المقام.

ونزول القرآن بلسان عربي مبين، توج فصاحة العرب، وبرهن على بلاغتهم التي لا تبارى، فكان القرآن متحديًا هذه الفصاحة الكاملة، وتلك البلاغة التامة، وقد كان الرسول -ﷺ- أفصح العرب، والصحابة يتعجبون لفصاحته، ولا يرون من هو أفصح منه، ويحدثنا ابنُ الأعرابي "بأن رسول الله-ﷺ- كان جالسا مع الصحابة فسألوه عن سحابة؛ فأجابهم، فقالوا: يا رسول الله-ﷺ- ما أفصحك، ما رأينا الذي هو أفصح منك!!! فقال-ﷺ-: وما

---

١ ألوان، د/ طه حسين، ص ١٦ – ١٨.

يمنعني، وإنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين»[١]. ويروي البلاغيون: أن الرسول –ﷺ– سئل: فيم الجمال؟ فقال: في اللسان؛ يريد البيان[٢].

وأخذت عناية العرب بالأساليب والفصاحة والبلاغة تنمو بعد ظهور الإسلام بدافع المداولة على قراءة القرآن والاستماع إلى أحاديث الرسول–ﷺ– التي تجري على كل لسان، وقد عرف عن النبي –ﷺ– أنه كان يتخير ألفاظه، ويُعنى بذلك أشد العناية، فقد أثر عنه أنه –ﷺ– كان يقول: ولا يقولن أحدكم خبثت نفسي، ولكن لقيت نفسي؛ كراهة أن يضيف المسلم الخبث إلى نفسه[٣].

ويروي لنا الجاحظ تلك القولة المشهورة التي جرت على لسان أبي بكر –رضي الله عنه–، ودارت على ألسنة علماء البلاغة حتى جعلوا لها فصلا خاصًّا في علم المعاني يسمى (الفصل والوصل)؛ حين عرض لرجل معه ثوب فقال له: أتبيع الثوب؟ فأجابه: لا عافاك الله، وظاهر اللفظ يوهم أنه دعاء على أبي بكر وليس دعاء له؛ فتأذى أبو بكر–رضي الله عنه– لرهافة شعوره، ودقة حسه؛ فقال له: "قل: لا، وعافاك الله"[٤]. وعلم الرجل بذلك الأماكن التي يجب فيها وصل الكلام وفصله.

---

١ مجالس ثعلب، ص٤٥٤.

٢ العمدة، ص١٦١.

٣ الحيوان ١ / ٣٣٥.

٤ الصناعتين، ص٥٢.

ونرى البلاغة عند علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- في الكشف عن المعنى، وإيضاح الغامض، وسهولة العبارة، حين يقول: "والبلاغة إيضاح الملتبسات بأسهل ما يكون من العبارات"[١].

والصحابة-رضوان الله عليهم- أيضا كانوا على علم وافر بأسرار العربية، ودقة إحساسها، وروعة نطقها، ولم تكن هذه الفصاحة مقصورة على الصحابة وحدهم، بل كانت تشمل أنحاء الجزيرة العربية؛ لأن العرب يشتركون في اللغة واللسان، وهم سواء في المنطق والعبارة، وإن كانت القبيلة تفضل أختها بشيء من الفصاحة، والعربي يفوق صاحبه من جهة الطبع والذكاء، وحدة القريحة والفطنة.

وإذا كانت البلاغة في العصر الجاهلي تميل في أغلب صورها نحو الإيجاز، فهل كانت تسير على نفس النمط في العصر الإسلامي في تفضيل الإيجاز على غيره من صور الكلام؟

إننا نصادف نصوصًا غزيرة في كتب السابقين توحي لنا أن العرب في صدر الإسلام كانوا يجعلون الإيجاز عماد بلاغتهم، وركن فصاحتهم؛ فالجاحظ "يخبرنا بقول الرسول-صلى الله عليه وسلم-: نصرت بالصبا، وأعطيت جوامع الكلم ... وهو

---

١ البيان والتبين ١ /١٤.

القليل الجامع للكثير"[1]، وابن رشيق يسوق لنا قول الرسول-ﷺ- في بيان منزلة الإيجاز: «نضر الله وجه رجل أوجز في كلامه، واقتصر على حاجته"[2].

وعمر بن عبد العزيز-رحمه الله تعالى- يكتب إلى عامله في المدينة: أن دقق القلم، وأوجز الكتاب؛ فإنه أسرع للفهم، وجرى بعض خلفاء بني أمية على نهج عمر بن عبد العزيز في الإيجاز.

ولكن الإيجاز كانت له مواضعه التي يؤثر فيها على غيره، وأنه لا يستحب في كل المواضع؛ فبعض المواضع لا يحسن فيها إلا الإطناب، وبعضها يستحب فيها إتيان اللفظ مساوية للمعنى، وقد شاهدوا النبي – صلى الله عليه وسلم- وخطبه الطوال في المواسم الكبار، فالمعاني إذا كثرت، والوجوه إذا افتنت، كثر عدد اللفظ، وإن حذفت فضوله بغاية الحذف[3]. فهم يوجزون تارة، ويطنبون أخرى، وفقا للظروف، ومقتضيات الأحوال، وكان من الخطباء مَن يطيل خطبته، ومنهم مَن يوجزها، ولا يرجعون في ذلك إلى قاعدة غير المناسبات التي توجب الكلام فتقضي مرة بالإطناب، وأخرى بالإيجاز، وثالثة بما يعرفُ بالمساواة.

١ البيان ٤ / ٢٩.

٢ العمدة ١/٢٤١.

٣ البيان ٤ / ٢٨.

والقرآن الكريم في كثير من سوره يميل إلى الإطناب، كما هو الشأن في كثير من السور التي يميل فيها إلى الإيجاز، ولو كان الإطناب مكروها عند العرب في هذا العصر لما أتى به القرآن الكريم.

وليس الإيجاز محمودًا في كل موضع، ولا مختار في كل كتاب، بل لكل مقام مقال، ولو كان الإيجاز محمودًا في كل الأحوال لجرَّده الله – سبحانه وتعالى– في القرآن الكريم – أي لجعله إيجازا كله – ولم يفعل الله – جلَّ وعلا– ذلك، ولكنه أطال تارة للتوكيد، وحذف تارة للإيجاز وكرر تارة للإفهام"[1].

ويضرب لنا ابن قتيبة بعض الأمثلة للمواقف التي لا يحسن فيها الإيجاز، مثل: التحضيض على حرب، والصلح بين القبائل[2].

فالإطناب في العصر الإسلامي كان يسيرُ جنبا إلى جنب مع الإيجاز، وبصورة أوضح مما كان عليه في العصر الجاهلي.

وكما عرف العرب في هذا العصر الإيجاز والإطناب، وأحسُّوا أيضًا بحاجتهم إلى أسلوب آخر بين الإيجاز والإطناب، وهو ما سُمِّي بعد ذلك بالمساواة؛ فاستمعوا إلى المساواة في القرآن، وأعجبوا بها، وإن لم يعرفوا اسمها، ولكنهم لجئوا إلى هذا الأسلوب عملا بالحكمة القائلة: "خير الأمور أوساطها".

---

١ أدب، ص١٥.

٢ المصدر السابق، ن ص.

ويبدو أيضا أن السجع كان أثيرًا عند العرب في هذا العصر، وغلب على كلامهم، والرسول -ﷺ- لم يستهجن السجع على الإطلاق؛ فقد كان ينطق به، وإنما يستهجن فقط الذي يتشبه فيه قائله بسجع الكهان.

والرسول -ﷺ- ينهى المتكلم عن هذا النوع؛ لأنه يريد به إبطال الحقوق فيتشادق في الكلام. "أما السجع الذي يأتي طائعًا صفوا لا تكلف فيه ولا قصد، بل لإقامة الوزن، فلا عليه من بأس، والرسول -ﷺ- يقبله ويستحسنه، وإلا فلو كان مذموما لما ورد في القرآن الكريم، فإنه قد أتى منه بالكثير حتى ليؤتى بالسورة كلها مسجوعة كسورة الرحمن، وسورة القمر، وغيرهما، وبالجملة فلم تخل منه سورة من سوره"[1].

أما ألوان البلاغة الأخرى التي دخلت فيها بعد ضمن علوم المعاني والبيان والبديع، فلا شك أنها كانت مستعملة في هذا العصر استعمالا مبسوطًا في غير إسراف ولا قصور، ولكن في مواضعها الجديرة بها، الملائمة لها من حيث المضمون والشكل.

ومن المؤكد أن العرب في الجاهلية والإسلام وأوائل العصر العباسي قد عرفوا كثيرًا من ألوان البديع، وضمنوه مواضع عديدة من شعرهم ونثرهم، واستعملوه بوفرة يلاحظها الجاحظ عند المقارنة بين لغة العرب ولغة العجم، وينبئنا عن ذلك قوله: "والبديع مقصور على العرب، ومن أجله فاقت لغتهم

---

١ المثل الثائر، ابن الأثير، ١ / ٢٧١.

كل لغة، وأربت على كل لسان"[١]، والدليل على ذلك أن القرآن قد استعمل هذه الألوان البديعية في غير إفراط ولا تفريط، ونحن نعلم أن القرآن قد جاء على طريقة العرب في كلامهم، وما ساروا عليه في أساليبهم، فهذه حقيقة بلاغية تلمسها في العصر الإسلامي، ولا ينبغي إنكارها أو تجاهلها.

وقد كثرت في العصر الإسلامي الملاحظات البلاغية؛ فقد كانوا يكرهون التكلف السمج، والتزيد الشنيع، والإغراب في اللفظ، فالرسول –صلى الله عليه وسلم– يقول: (إياي والتشادق)، ويقول–ﷺ–: "أبغضكم إليَّ الثرثارون المتفيهقون"، ويقول–ﷺ–: "مَن بدا جفاه"[٢].

كما كانوا يمقتون الإسهاب والتطويل؛ لأنه يفضي إلى الملل والاستثقال؛ فللكلام غاية، ولنشاط السامعين نهاية، وفرق بين الإطناب والإسهاب، فالأول صفة مدح في البلاغة، والآخر صفة قدح، فالإطناب بلاغة، والإسهاب عي؛ لأن الإطناب كثرة العبارة بسبب كثرة المعاني، والإسهاب كثرة العبارة عن المعنى الواحد، أو المعاني القليلة، والأول بعينه هو حد البلاغة[٣].

وكانوا يعيبون –أيضًا– الألفاظ التي تؤدي إلى لبس في المعنى، كأن يكون اللفظ غامضًا أو يؤدي إلى معنيين فأكثر، حتى إن بعضهم عاب الأضداد في

---

١ البيان ٤/٥.

٢ البيان ١/١٣.

٣ التحرير والتحبير، ابن أبي الإصبع، ص٤٩٠.

اللغة – اللفظ الذي له معنيان متضادان –، مثل: كلمة (الجون) التي تطلق على الأسود والأبيض، و(الجلل) التي تطلق على الحقير والعظيم.

وهكذا كانوا يبدون ملاحظاتهم على الكلام، وما فيه من حسن أو قبح يتصل بالبيان، ويتوخون في ذلك ما يتفق مع طبعهم وسليقتهم، ويرون أن يصلوا بهذه الملاحظات إلى الاستمرار فيما يستحسنون، والانقطاع عمَّا يستقبحون ويكرهون.

وتطورت هذه الملاحظات البلاغية، والإشارات الفنية عند المشتغلين بالنقد والبلاغة، وصبت جداول متعددة في نهر البلاغة، وتمثلت في الطوائف المختلفة التي أسهمت بأوفر نصيب في نشأة البلاغة وتطورها كطائفة النحويين، واللغويين، والمتكلمين، والمفسرين، والنقاد والكتاب، والأصولين، والفقهاء، والمناطقة.

وفي الحق أن نشاط النحويين قد كشف عن دراسات خصبة؛ حيث كانوا يلاحظون ظواهر اللغة، وتركيب الكلام، وتأليف الجمل، ويسجلون ملاحظاتهم الدقيقة عن كل ما يصادفونه بالإضافة إلى أنهم كانوا محافظين أشد المحافظة على المقاييس العربية الخالصة، جاعلين نصب أعينهم شواهد القرآن، وشعر الفحول من العرب الأقدمين كمثال يحتذى في وضع القواعد العربية، وعدم الاكتفاء بصحة العبارة، أو خطئها، بل تجاوزوا ذلك إلى ما يطرأ عليها من

حسن أو قبح؛ فعرضوا من خلال ذلك إلى مسائل دقيقة كان لها شأن في تاريخ البلاغة العربية.

وهكذا تطورت البلاغة من قرن إلى قرن، وكل علم من الأعلام يسهم في إرساء القواعد، وإقامة الدعائم، ورصد الأحجار في البنيان؛ حتى اكتمل وصار شاهقًا على يد عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) ذلك العلم الفذ، والإمام الأكبر الذي بلورها وصاغها في ثوبها الفني الرائع.

ويمكن القول: إن عبد القاهر الجرجاني يُعدُّ واضعًا لعلم المعاني الذي أحاله المتأخرون إلى قوالب جامدة، وقواعد جافة، ينفر منها الطبع السليم.

وعلى نحو ما وضع عبد القاهر علم المعاني في كتابه دلائل الإعجاز، فإنه أيضا وضع بكتابه أسرار البلاغة علم البيان – رغم أنه قد سبق بكثير من مباحثه؛ لأنه درس الأسرار والدقائق التي تنطوي عليها الصور البيانية، فحدد الأقسام والفروع، وأفاض في ذكر الأمثاة وتحليلها تحليلًا نفسيًّا رائعًا، وهذه الأبواب التي طرقها عبدالقاهر –رحمه الله تعالى– هي التي جمعت عند المتأخرين باسم علم البيان.

حول نشاة المفهوم الاصطلاحى للبلاغة

كلمة البلاغة من الكلمات التى شاع استعمالها في كتب الأدب، وكانت هي والفصاحة صنوين تستعملان معا، أو تستعمل الواحدة في موضع الأخرى.

في اللغة:

البلاغة في اللغة الانتهاء والوصول؛ ورد في لسان العرب: "بلغ الشيء يبلغ بلوغا وبلاغا: وصل وانتهى". وتبلَّغ بالشيء وصل إلى مراده، والبلاغ: ما يتبلغ به ويتوصل إلى الشيء المطلوب، والبلاغ: ما بلغك والكفاية". والإبلاغ: الإيصال، بلغت المكان بلوغا وصلت إليه، وكذا إذا شارفت عليه.

وأشار ابن منظور إلى المعنى الاصطلاحي، فقال (البلاغة): الفصاحة، والبلغ البليغ من الرجال، ورجل بليغ وبلغ وبلغ أي: حسن الكلام فصيحه، يبلغ بعبارة لسانه كنه ما في قلبه، والجمع بلغاء، وقد بلغ بلاغة: صار بليغا".

وليس في هذا القول غير المعنى العام للكلمة؛ فهي أولا الانتهاء والوصول إلى الغاية، وهي ثانيا الفصاحة، فالكلمات مترادفتان، وهذا رأي معظم اللغويين والبلاغيين الأوائل.

في القرآن:

لقد جاءت لفظة "بليغ " في قوله تعالى: { فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا}[١]، يقول الراغب الأصفهاني في تفسيرها: البلاغة على وجهين:

أحدهما: أن يكون بذاته بليغا يجمع ثلاثة أوصاف: صوابا في موضوع لغته، وطبقا للمعنى المقصود، وصدقًا في نفسه، ومتى اخترم وُصِفَ مَن كان كذلك ناقصا في البلاغة.

والثاني: أن يكون بليغا باعتبار القائل والمقول له، وهو أن يقصد القائل أمرًا فيرده على وجه حقيق أن يقبله المقول له، وقوله تعالى: {وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا}[٢]، يصح حمله على المعنيين.

وذهب الزمخشري مذهبا نفسيا في تفسيرها، وأشار إلى تاثيرها رمزا في قوله: {وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا}[٣]، مؤثرا في قلوبهم يغتمون به اغتماما، ويستشعرون منه الخوف استشعارا".

في الحديث:

وليس في أحاديث النبي –صلى الله عليه وسلم– ما يشير إلى هذا المعنى مع كثرة ما جاء من مشتقاتها في كلامه، فقد ورد عند قوله–صلى الله عليه وسلم–:"إنَّ الله يبغض البليغ

١ سورة النساء، الآية: ٦٣.

٢ سورة النساء، الآية: ٦٣.

٣ سورة النساء، الآية: ٦٣.

الذي يتخلل بلسانه". وجاء عنه–صلى الله عليه وسلم- أنه عاب فيه المتشادقين والثرثارين والذي يتخلل بلسانه تظل الباقرة بلسانها.

في التراث:

ولو تلمسنا هذه اللفظة في التراث العربي، لوجدناها شائعة معروفة، ولا نكاد نعثر على بغيتنا في فترة صدر الإسلام، وحينما جاء العصر الأموي نجد معاوية بن أبي سفيان – رضي الله عنه– يسأل صحار بن عياش: "ما هذه البلاغة التي فيكم"؟ قال: شيء تجيش به صدورنا فنقذفه على ألسنتنا، فقال له معاوية: "ما تعدون البلاغة فيكم"؟ قال:الإيجاز". قال له معاوية: "وما الإيجاز"؟ قال صحار: "أن تجيبَ فلا تبطئ، وتقول فلا تخطئ".

وفي كتاب البيان والتبيين– تعريفات كثيرة للبلاغة عند العرب وغيرهم؛ فقد قيل للفارسي: ما البلاغة؟ قال: معرفة الفصل من الوصل، وقيل: لليوناني: ما البلاغة؟ قال: حسن الاقتضاب عند البداهة والغزارة يوم الإطالة، وقيل للهندي: ما البلاغة؟ قال: موضوع الدلالة، وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة. وقال بعض أهل الهند: "جماع البلاغة البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة.

وفسرها عمرو بن عبيد في أول الأمر تفسيرًا دينيًّا حين قيل له: ما البلاغة؟ فقال: ما بلغ بك الجنة، وعدل بك عن النار، وما بصرك مواقع رشدك وعواقب غيك، قال السائل: ليس هذا أريد. قال: مَن لم يحسن أن يسكت لم يحسن أن يستمع، ومن لم يحسن الاستماع لم يحسن القول، قال ليس هذا أريد.

قال: قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: "إنا معشر الأنبياء بكاء، أي: قليلو الكلام، ومنه قيل: "رجل بكي"، وكانوا يكرهون أن يزيد منطق الرجل على عقله؛ قال: قال السائل: ليس هذا أريد. قال: كانوا يخافون من فتنة القول، ومن سقطات الصمت، قال السائل: ليس هذا أريد. قال عمرو: فكأنك تريد تخير اللفظ في حسن الإفهام؟ قال:نعم. قال: إنك إذا أوتيت حجة الله في عقول المكلفين وتخفيف المؤونة على المستمعين، وتزيين تلك المعاني في قلوب المريدين بالألفاظ المستحسنة في الآذان المقبولة عند الأذهان رغبة في سرعة استجابتهم ونفي الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة على الكتاب والسنة كنت قد أوتيت فصل الخطاب، واستحققت على الله جزيل الثواب.

وقال الأصمعى عن البليغ: "إنه من طبق المنفصل، وأغناك عن المفسر".

وقال العتابي: "إن كل مَن أفهمك حاجته من غير إعادة، ولا حبسة، ولا استعانة، فهو بليغ. فإن أردت اللسان الذي يروق الألسنة، ويفوق كل خطيب في إظهار ما غمض من الحق، وتصوير الباطل في صورة الحق".

الفصاحة والبلاغة

الفصاحة:

وردت هذه المادة في اللغة على معان عدة؛ يقال: أفصح الصبي في منطقه إذا بان وظهر كلامه أول أمره، كما يقال: أفصح الأعجمي إذا انطلق لسانه بالعربية، لا تشوبه لكنة، ومنه قوله تعالى – حكاية عن موسى عليه السلام–: "وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا"[1]، أي أبين وأظهر مني قولا.

ويقال: أفصح الصبح إذا بدا ضوءه ولمع، ومنه المثل المشهور: "أفصح الصبح لذي عينين"[2]، كما يقال: هذا يوم مفصح، أي جلي، لا غيم فيه ولا ضباب.

ويقال: أفصح اللبن إذا نزعت رغوته فظهر، ومنه المثل المشهور: "وتحت الرغوة اللبن الفصيح"[3].

فظهر لك مما تقدم في الأمثلة أن: الفصاحة – في اللغة – لا تخرج عن معنى الظهور والبيان. أما معناها في اصطلاح البلغاء، فيختلف باختلاف موصوفها. وهو أحد أمور ثلاثة: الكلمة، والكلام، والمتكلم.

---

١ القصص، ٣٤.

٢ يضرب للشيء يظهر بعد استتاره

٣ يضرب للشيء يدل ظاهره على باطنه.

فصاحة الكلمة:

١- سئل أعرابي عن ناقته. فقال: تركتها ترعى "الهُعْخُع": وهو اسم لنبات ترعاه الإبل.

٢- لقيت امرأه غدائرها " مستشزرات "[1].

٣- أسمع " جعجعة " ولا أرى طحنا[2].

٤- وأحمق ممن يكرع الماء قال لي: دع الخمر واشرب من نقاح مبرد[3]

البيان:

في المثالين الأولين لفظان هما: "الهعخع، ومستشزرات" يحس الناطق بهما ثقلًا واضحًا في الأداء، مما يدل على أن بين حروفهما معاداة شديدة، ينفر بعضهما من بعض أشد النفور. وكلمة "مستشزرات" قد جاءت في بيت لامرئ القيس يقول فيه:

غدائِرُهَا مُسْتَشْزِراتٌ إِلى العُـــــلا تَضِلّ العِقاصُ في مُثَنَّى وَمُرْسَلِ

يريد أن يصف ذوائبها بالارتفاع إلى أعلى، وأن خصل الشعر مفتولة ومسدولة أي شعرها غزير، وقد أحسن تصفيفه.

١ الغدائر : جمع غديرة ما يسمى بالضفيرة، ومستشزرات: مرتفعات.

٢ الجعجعة : صوت الرحى، وصوت الجمال إذا اجتمعت ، والطحن – بكسر الطاء – الدقيق .

٣ يكرع الماء : يشربه غبا كعب الحمام، والنفاخ: الماء البارد العذب.

وهذه الكلمة كما ترى متنافرة الأحرف، ثقيلة الوقع على الأذن. وإنما كان الثقل فيها؛ لتوسط الشين – وهي مهموسة رخوة بين التاء، وهي مهموسة شديدة، والزاي وهي مجهورة.

أما كلمة (الهعخع) فالتنافر بين حروفها أشد قبحا؛ لتناهيه في الثقل، وعسر النطق به، وقد روي عن الخليل أنه قال: سمعت كلمة شنعاء وهي (الهعخع)، وهي تطلق كذلك على نوع من الشجر يتداوى بورقه، وواضح أن سبب الثقل فيها هو أن الهاء والعين لا يكاد واحد منها يأتلف مع الآخر من غير فصل.

وفي المثالين الآخرين لفظان هما "جعجع، ونقاخ" يحس الناطق بهما ثقلًا عند الأداء كذلك؛ لما بين حروفهما من تنافر، إلا أنه أخف نوعا من سابقه، وهو على أي الحالين ـ خلل في مادة الكلمة يخرجها عن الفصاحة، ويسمى هذا العيب عندهم "بالتنافر".

وقد قالوا: التنافر يكون إما لتباعد الحروف جدا، فهذا بمنزلة الطفرة، أو لتقارب الحروف جدا فيكون بمنزلة مشي المقيد، والحق أن هذا السبب ليس قاعدة في إيجاد التنافر، بل هو أمر غالب وليس لازما؛ فقد تكون الكلمة فصيحة مع قرب مخارج حروفها، مثل: كلمة (فم). وقد تكون الكلمة فصيحة

مع بعد مخارج حروفها، مثل: كلمة (بعد) فإنَّ الباء من الشفتين والعين من الحلق، وهو حسن لا تنافر فيه، وكذلك علم، وأو، وألم.

ومن هنا نعلم أن:

١- التنافر:

وصف في الكلمة يوحب ثقلها على اللسان، وصعوبة أدائها به -كما رأيت-، والحكم في إدراك هذا العيب للذوق السليم المكتسب بالنظر في كلام وممارسة أساليبهم.

يقول المتنبي[1] يمدح سيف الدولة:

إذا كانَ بَعضُ النّاسِ سَيفاً لدَوْلَةٍ   فَفي النّاسِ بُوقاتٌ لهَا وطُبُولُ

ويقول الشاعر:

مهلا أعاذل قد جربت من خلقي   أني أجود لأقوام وإن ضننوا

يقول لمن لامته على إحسانه لمن بخلوا عليه: هوني على نفسك واقصدى من عتبك، فقد عرفت أن من خلقي مجازاة من يسيء إليَّ بالإحسان إليه؛ لأني إنما أصنع المعروف للمعروف، لا لشيء وراءه.

البيـــان :

---

١ هو أبو الطيب أحمد بن الحسين الشاعر المشهور ، الذي امتاز شعره بالحكمة وضرب الأمثال، ولد بالكوفة سنة ٣٠٣ هـ، وتوفى سنة ٣٥٤ هـ.

في هذين البيتين كلمتان "بوقات، وضننوا"، وكلاهما مخالف لما ثبت عن الواضع ـ ذلك أن الثابت عنه في الأول جمع تكسير أي "أبواق"، لا جمعه جمع مؤنث كما هنا. ـ وأن الثابت عن الوضع في الثاني إدغامه لا فكه أي "وإن ضنوا"– ومخالفة الواضع خلل في صيغة الكلمة يخرجها عن الفصاحة، ويسمى هذا العيب عندهم "مخالفة الوضع" أو "مخالفة القياس".

إذا تعلم أن:

٢– مخالفة الوضع (أو مخالفة القياس):

هي أن تكون الكلمة مخالفة لما ثبت عن الواضع –كما رأيت في البيتين السابقين–، أو أن تكون الكلمة غير جارية على العرف العربي الصحيح؛ بأن تكون الكلمة مستعملة في غير ما وضعت له في عرف اللغة، ولم يقصد بها المجاز، كاستعمال كلمة الأيم بمعنى الثيب فى قول البحتري :

تشقُّ عليه الرِّيحُ كُلَّ عَشِيَّةٍ   جُيوبَ الغمامِ بَينَ بِكْرٍ وَأَيَّمِ

فوضع الأيم في مقابل البكر، والأيم في اللغة تطلق على المرأة التي لا زوج لها، بكرًا كانت أم ثيبًا.

أو تكون الكلمة مخالفة للقياس الصرفي؛ كفك الإدغام في كلمة (ضنَّ) في البيت السابق، ومثل قول أبي النجم[١]:

الحَمْدُ للهِ العَلِيّ الأجْلَلِ	الواحِدِ الفَردِ القَدِيمِ الأوَّلِ

فالأجلل هنا مخالقة للقواعد الصرف؛ لأنه فك الإدغام، والأصل الإدغام، فكان ينبغى أن يقول: الحمد لله العلي (الأجلِّ). وهذا كثير جدا في أشعار العرب.

هذا وينبغي أن تعلم أنه ليس كل ضرورة شعرية ارتكبها شاعر تخرج الكلمة عن الفصاحة، فالضرورات الشعرية، منها السائغ، ومنها المستقبح، كما يقول حازم القرطاجني[٢].

فالسائغ: ما لا تشعر النفس معه بوحشة، كقصر الممدود، ومد المقصور.

والمستقبح: ما تشعر النفس معه بوحشية، كصرف ما لا ينصرف، وتذكير المؤنث، والعكس.

يقول أبو تمام:

قَدْ قُلْتُ لمَّا اطلَخَمَّ الأَمْرُ وانْبَعَثَتْ	عَشواءُ تَالِيةً غُبْساً دَهارِيسَا[١]

---

١ الفضل بن قدامة العجلي، أبو النجم، من بني بكر بن وائل. ١٣٠ هـ، ٧٤٧ م من أكابر الرجّاز ومن أحسن الناس إنشاداً للشعر.نبغ في العصر الأموي، وكان يحضر مجالس عبد الملك بن مروان وولده هشام. قال أبو عمرو بن العلاء: كان ينزل سواد الكوفة، وهو أبلغ من العجاج في النعت.

٢ عروس الأفراح ١ / ٨٨.

ويقول عِيسى بنِ عمرَ النَّحْويّ –وقد سَقَطَ عَنْ حِمَارٍ فاجْتَمَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ؛ فَقَالَ لَهُمْ: مَا لَكُمْ تَكَأْكَأْتُم عَليَّ تَكَأْكُؤكُم عَلَى ذِي جِنَّةٍ؟! افْرَنْقَعُوا عَنِّي[2].

وَمَعْنَى هَذَا الكَلامِ :مَا لَكُم اجتَمَعْتُم عليَّ اجتِمَاعَكُم عَلَى مَجْنُونٍ؟ تَنَحَّوا عنّي! فالكلمتان" :تَكَأْكَأَ – افْرَنْقَعَ "كلمتَانِ خَارِجَتَانِ عَنِ الفَصَاحَةِ لِغَرابَتِهِما.

ويقول أعرابي: "أن تمنعي صوبك صوب المدمع، يجري على الخد كضنب " الثعثع " من طمحه صبيرها " جحلنجع"[3].

يقول رؤبة بن العجاج[4]:

أيام أبدت واضحًا مفلجًا ... أغر براقًا وطرفًا أدعجا

ومقلة وحاجبًا مزججًا ... وفاحمًا ومرسنًا مُسَرَّجًا [5]

---

١ اطلخم الأمر: اشتد والعشواء : الناقة ضعيفة والغبش جمع غبشاء وهي شديدة الظلمة، والدهاريس: الدواهي.

٢ تكاكأ بعنى اجتمع، افرنقعوا: بمعنى تنحوا عني أي ابتعدوا.

٣ الضب الحب، والثعثع اللؤلؤ، والطمحة النظرة ، والصبير السحاب، وأما الجحلنجع فلم يعثر له على معنى في معاجم اللغة، وهو بجيم مفتوحة فمهملة ساكنة ، فلان مفتوحة ، فنون ساكنة ، فجيم مفتوحة .، فعين مهملة.

٤ كان هو وأبوه رجازين مشهورين لكل منهما ديوان رجز ليس فيه سوى الأراجيز .

٥ ضمير أبدت عائد على محبوبته ليلى في البيت قبله ، واوضحا صفة لموصوف محذوف أي سناً واضحاً متميزاً ، ومفلجا بتشديد اللام المفتوحة من الفلج بالتحريك وهو تباعد ما بين الأسنان، وهو من الصفات المستحسنة ، والأغر : الأبيض والأدعج من الدعج بالتحريك اتساع العين وحسنها والمراد بالمقلة حدقه العين، والتوجيج التدقيق مع تقويس. وفاحما صفة لموصوف محذوف أي شعراً أسود كالفحم من نسبة المشبه إلى المشبه به .

يصف الشاعر من محبوبته ليلى عدة أشياء منها الأنف في قوله: "ومرسنا مسرجا"؛ فقد أراد بالمرسن أنفها وهو – في الأصل – أنف البعير؛ إذ هو موضع الرسن منه، ثم أريد به: مطلق أنف مجازا مرسلا – على ما سيأتي في محله.

البيـــان :

في الأمثلة الثلاثة الأولى ألفاظ هي: "اطلخم، ودهاريس، وتكأكا، وافرنقعوا، وثعثع، وجحلنجع"، وهي كلمات – كما ترى – غربية، غير ظاهرة الدلالة على المعنى المراد منها؛ لعدم تداولها على ألسنة الناطقين من شعراء العرب وخطبائهم، فهي بحاجة إلى الكشف عنها في معاجم اللغة، فمنها ما عثر على معناه بعد البحث كالكلمات الخمس الأولى، وبعضها لم يعثر على معناه أصلا كلفظ "جحلنجع"؛ وذلك خلل في معنى الكلمة يخرجها عن نطاق الفصاحة؛ إذ ينبغي أن تكون الكلمة بينة المعنى، مفهومة المراد منها.

وفي المثال الرابع، في قول رؤبة لفظ "مسرجا" وهي كلمة غربية كذلك غير ظاهر الدلالة على المعنى المراد منها؛ إذ لم يعرف ما أراده الشاعر بها؛ ولذلك اختلف فيه فقيل: هو من قولهم: "سيوف سريجية" أي: منسوبة إلى حداد يقال له: سريج كان يجيد صنعها، فهو يريد أن يشبه أنفها في الدقة والاستواء بالسيف السريجي.

وقيل: هو مأخوذ من السراج أي: المصباح، فهو يريد أن يشبه أنفها في البريق واللمعان والإشراق بالسراج؟ -وهذا التأويل قريب من قولهم: سرج الله وجهه أي: بهجه وحسنه-.

وعلى كلا التقديرين هو غير ظاهر الدلالة على ما ذكر؛ لأن هذه المادة التي منها لفظ "مسرجًا" لم تستعمل عندا العرب بالمعنى الذي أراده الشاعر على التقديرين السابقين، فأخذه منها بعيد. وهذا خلل في معنى الكلمة يخرجها عن الفصاحة؛ إذ ينبغى أن تكون الكلمة مستعلمة في المعنى الذي استعمله العرب فيه، ويسمى هذا العيب في الموضعين "غرابة".

إذًا تعلم أن:

٣- الغرابة:

هي أن تكون الكلمة وحشية غريبة، غير ظاهرة الدلالة على المعنى المراد منها:

إما لعدم تداولها على ألسنة العرب الفصحاء، فتحتاج إلى بحث عنها كما في الأمثلة الثلاثة الأولى.

وإما لعدم استعمالها في المعنى الذي استعمله العرب فيه فتحتاج إلى تخريج بعيد كما في المثال الأخير.

وَمِنْ ذَلِكَ أيْضًا استِخْدامُ كَلِمة "عُسْلُوج" بَدَلَ "غُصْنٍ" و"حَقَلَّدٍ" بَدَلَ "البَخِيلِ".

وإذا فغرابة الكلمة ليست بالإضافة إلى استعمال الناس لها أو تركه؛ فلا نحكم على كل كلمة تقادم العهد بها، أو ذكرت في كتب الغريب بأنها غير فصيحة.

هذا وقد تكون الغرابة بجانب ماسبق بيانه بسبب قلة استعمال الكلمة بالنسبة إلى العرب العرباء، ومن ذلك قول أبي تمام:

أهلس أليس لجاء إلى هم   تعرق العيس في آذيها الليسا

يريد بأهلس: خفيف اللحم، ويريد بالأليس: الشجاع البطل الغاية في الشجاعة، فهاتان اللفظتان مستكرهتان، ثم لم يقنع بذلك حتى قال في آخر البيت "الليسا" يريد جمع أليس. وقد أنكر الرواة على زهير قوله[1]:

تقيٌّ نقيٌّ لم يُكَثِّر غَنِيمَةً ... بِنَهكَةِ ذِي قُرْبَى ولا بِحَقَلَّدِ

---

١ البيت لزهير في مدح هرم بن سنان .. والحقلّد: اختلفوا في معناها، وإنما هي صفة ذم ينفيها عن الممدوح ... يقول: لم يكثر غنيمة بأن ينهك ذا قرابة ولا هو بلئيم سيء الخلق .. والشاهد فيه: أن قوله: بحقلّد: معطوف على شيء متوهم، كأنه قال: ليس بمكثر غنيمة، فعطف عليه قوله: بحقلّد، بناء على توهّم جرّ خبر ليس بالباء الزائدة ... ويحتمل أن تكون معطوفة على بنهكة، على تضمين «حقلّد» معنى سوء الخلق .. أي: لا يكثر ماله بإنهاك الأقارب، ولا بسوء الخلق، والله أعلم. [شرح أبيات المغني/ ٧/ ١٤٦].

واستشنعوا "حقلد" وهو السيئ الخلق، ولا يعرف في شعره لفظة هي أنكر منها.

وأكثر ما ترى هذه الألفاظ الوحشية في أراجيز العرب.

وإذا كان هذا يستنكر من الأعرابي القح الذي لا يتعمل له ولا يطلبه، وإنما يأتي به على عادته وطلبه، فهو من المحدث الذي ليس هو من لغته ولا من ألفاظه ولا من كلامه الذي تجرى به عادته أحرى أن يستهجن.

ولهذا أنكر الناس على رؤية استعماله الغريب الوحشي؛ وذلك لتأخره وقرب عهده حتى زهد كثير من الرواة شعره، إلا أصحاب اللغه والغريب. فالعبارة الزاخرة بالكلمات الغريبة أخس أسلوبا، وأقبح ديباجة من العبارة السهلة التي ليس بها غير المألوف من الكلمات؛ فأفصح الألفاظ ما كان مألوفا متداولًا، وأقبحها ماكان وحشها متوعرا.

فما استعمله العرب المحدثون دون عامتهم فهو حسن جدا؛ لأنه خلص من حوشية العرب وابتذال العامة.

وما استعمله العرب كثيرًا دون المحدثين، فهو حسن فصيح.

وما استعمله العرب قليلًا فهو غير حسن.

وما كثر على ألسنة العامة، وأمكن للخاصة الاستعاضة عنه بألفاظ أخرى، فهذا قبيح؛ لابتذاله.

وما لم يكثر على ألسنة العامة فلا بأس به.

فالابتذال كالغرابة عيب يلحق بالكلمة، ينال من قدرها، وينقص من جمالها، وقد عيب على أبي نواس كلمة الشطار؛ لابتذالها حين يقول:

ومُلِحَّةٍ بالعَذلِ تَحسَبُ أنّني   باِلجهلِ أترِكُ صُحبةَ الشُّطّارِ

إذا علمت هذا علمت أن: فصاحة الكلمة: هي أن تسلم من العيوب الثلاثة السابقة:

١. تنافر الحروف .

٢. مخالفة الوضع أو القياس .

٣. الغرابة بمعانيها .

وقد أضاف بعض البلاغيين عيبًا آخر، وهو:

٤- الكَرَاهَةُ فِي السَّمْعِ:

وذلك بِأَنْ تَكُونَ الكَلِمَةُ مَمْجُوجَةً، يَنْفِرُ مِنْهَا السَّامِعُ، كَقَولِ المُتَنَبي:

مُبارَكُ الاِسمِ أَغَرُّ اللَقَبْ   كَريمُ الجِرِشّى شَريفُ النَسَبْ

فَكَلِمَةُ الجِرِشَّى كَلِمَةٌ تَستَثقِلُهَا الأَسْمَاعُ، لِذَا هِي كَلِمَةٌ خَارِجَةٌ عَنِ الفَصَاحَةِ.

فصاحة الكلام

الكلام الفصيح هو المنسجم المتآلف في تركيبه حتى يأخذ بعضه برقاب بعض، ولا يتأتى ذلك إلا إذا كانت مفرداته أيضًا فصيحة.

ولكي يكون الكلام فصيحًا لابد أن تتوفر فيه صفات:

أن يكون خاليا من: ضعف التأليف، وتنافر الكلمات، والتعقيد.

١- ضعف التأليف:

أن يكون الكلام جاريا على غير القواعد النحوية المشهورة، كعود الضمير على متأخر لفظًا ورتبة، نحو: ضرب غلامُه زيدًا. فإن الضمير متصل بالفاعل، وهو يعود على المفعول به، والمفعول هنا متأخر في الرتبة كما نعرف. وجمهور النحاة يمنع ذلك؛ لأنه ربما يؤدى إلى لبس وغموض في المعنى فيظن السامع أن الضمير في غلامه يعود على شخص تقدم ذكره.

من ذلك قول حسان بن ثابت- رضي الله عنه-:

وَلَوْ أَنَّ مَجداً أَخلَدَ الدَّهْرَ واحِداً ... مِنَ النَّاسِ، أَبقى مَجْدُهُ الدَّهرَ مُطْعِما

والعيبُ فيه أنَّ الشاعر أعاد الضميرَ في مجده على مطعِم، وهو متأخرٌ لفظاً ورتبةً؛ لأنه مفعولٌ به، ورتبته التأخيرُ. وقول النابغة الذبياني:

جَزى رَبُّهُ عَنّي عَدِيُّ بنِ حاتِمٍ   جَزاءَ الكِلابِ العاوِياتِ وَقَد فَعَل

وقول الشاعر:

جَزَى بَنُوهُ أبا الْغيْلانِ عنْ كِبَرٍ وَحُسْنِ فِعْلٍ كَما يُجْزَى سِنِّمارُ

والعيبُ أعاد الضمير في بنوه على أبي غيلانَ وهو متأخرٌ لفظاً ورتبة؛ لأنه مفعولٌ به، ورتبتهُ التأخيرُ.

ومما يخالف القواعد النحوية المشهورة، وضع الضمير المتصل موضع المنفصل، كوضعه بعد إلا، كقول الشاعر:

لَيسَ إلاّكَ يا عَليُّ هُمَامٌ سَيْفُهُ دونَ عِرْضِهِ مَسْلُولُ

وكقوله:

وما علينا إذا ما كُنُتِ جارَتَنا ... ألاَّ يُجاوِرَنا إلاَّكِ دَيَّارُ

أو نصب الفعل المضارع دون أن تسبقه أداة نصب كقول طرفة بن العبد:

أَلا أَيُّهذَا الزّاجري أَحْضُرَ الوَغَى وَاَنْ أَشْهَدَ اللَّذّاتِ هَلْ أَنْتَ مُخْلِدِي

فنصب الفعل (أحضر) دون أن يتقدم عليه حرف نصب.

ومثله قول الشاعر:

بَيْضاءُ يَمْنَعُهَا تَكَلَّمَ دَلُّها، تِيهاً ويَمْنَعُهَا الحَياءُ تَمِيسَا

فنصب الفاعل (تميس) ولم يسبقه ناصب.

ومثلة قول الشاعر:

قبيحٌ من الإنسان ينسى عيوبَهُ ويذكرَ عيبًا في أخيه قد اختفى

يقول: لا يجمل بالإنسان العاقل أن يكشف عن عيوب الناس، ويغمض الطرف عن عيوبه، فعليه أولا أن يقوم من ذات نفسه، ويصلح من شأنها. وفي هذا البيت نصب المضارع في شطريه من دون أداة نصب، على تقدير: أن ينسى، وأن يذكر، وهذا خروج كذلك على القواعد النحوية المقررة.

وهكذا كل ما يخالف المشهور من قواعد النحو يخل بفصاحة الكلام، ويسلب منه الجمال، ويؤدى إلى الفهاهة والقبح، وهذا لا يخل بفصاحة الكلمة وحدها، ولكنه يخل بفصاحة مجموع الكلام.

وينبغي أن تعلم أن سوء التأليف ورداءة اللفظ يذهب بطلاوة المعنى الدقيق، ويفسده، ويعميه حتى يحوج مستمعه إلى طول تأمل. وحسن التأليف وبراعة اللفظ يزيد المعنى المكشوف بهاء وحسنا ورونقا، حتى كأنه أحدث فيه غراية لم تكن، وزيادة لم تعهد.

وإذا جاء لطيف المعاني فى غير بلاغة، ولا سبك جيد، ولا لفظ حسن كان ذلك مثل الطراز الجيد الثوب الخلق، أو نقش العبير على خد الجارية القبيحة الوجه.

٢- تنافر الكلمات:

وهذا التنافر يؤدي إلى ثقل الكلمات على اللسان، وعسر النطق بها في تتابعها، وإن كانت كل كلمة فصيحة على انفراد:

"ومن ألفاظ العرب الفاظ تتنافر، وإن كانت مجموعة في بيت شعر لم يستطع المنشد إنشاده إلا يبعض الاستكراه، كقول الشاعر:

وقَبرُ حَربٍ بمكانٍ قَفرٍ ولَيسَ قُربَ قَبرِ حَربٍ قَبرُ

وقد ذكروا أنه من أشعار الجن، وأنه لا يتهيأ لأحد أن ينشده ثلاث مرات فلا يتتعتع[1].

فكل كلمة وهي منفردة لا قبح فيها ولا تنافر، ولكن تكرار الحروف والكلمات أدى إلى هذا التنافر الكلي، وأسلم إلى الثقل على اللسان، بحيث يتعذر عليه النطق به في سلاسة وانسياب، وإن نطق به اكتنفه التعثر والاضطراب. من ذلك أيضا:

وازْوَرّ مَنْ كانَ لهُ زائِرًا وعافَ عافِي العُرْفِ عِرْفانَهُ

ومن هذا القبيل أيضا قول ابن يسير:

لم يضرها والحمد لله شيء ... وانثنت نحو عرف نفس ذهول

---

١ البيان ١ / ٦٥.

فتفقد النصف الأخير من هذا البيت، فإنك ستجد بعض ألفاظه يتبرأ من بعض[١].

وثمة نوع آخر في التنافر وإن كان أخف حدة من سابقه كقول أبي تمام:

كَرِيمٌ مَتَى أَمْدَحْهُ أَمْدَحْهُ وَالْوَرَى   مَعِي وَإِذَا مَا لُمْتُهُ لُمْتُهُ وَحْدِي

فمنشأ الثقل تكرار كلمة أمدحه وكلمة لمته، وليس ناشئًا عن اجتماع الحاء والهاء في كلمة أمدحه، فإن اجتماعهما فصيح لوروده في القرآن الكريم كقوله تعالى: (وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ)[٢].

غير أننا لا نسلم بأن تكرار الحروف يؤدي إلى تنافر الكلمات، فقد ورد في آية واحدة في القرآن الكريم ستة عشر ميما بعضها يتبع بعضًا دون أن نلحظ هذا التنافر قال تعالى: (قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ)[٣].

هذا ومن الأمثلة التي بها تنافر شديد بين الكلمات حتى أن اللسان ليتعثر عند النطق بها أيما تعثر قول الشاعر:

---

١ البيان ١ / ٦٦.

٢ سورة الطور الآية ٤٩.

٣ سورة هود الآية ٤٨.

فقَلْقَلْتُ بالهَمّ الذي قَلْقَلَ الحَشَا   قَلاقِلَ عِيسٍ كُلّهُنّ قَلاقِلُ[١]

أما الأمثلة التي بها تتافر بين كلماتها أخف حدة من المثال السابق قول الشاعر:

وَمن جاهلٍ بي وَهْوَ يَجهَلُ جَهلَهُ   وَيَجْهَلُ عِلمي أنّهُ بيَ جاهِلُ

٣- التعقيد:

هو أن يكون الكلام مشتملا على خلل بحيث المراد منه أو يفهم ولكن بعد مشقة وعسر، فالتعقيد إذًا أثر من آثار الإخلال بقواعد النحو بمعناه الواسع، وعدم تطبيقها، فعلى الشاعر أو الناثر لكي يستقيم كلامه، ويتضح معناه أن يلتزم بمراعاة قواعد النحو وملاحظة تطبيقها، فإذا أخل بذلك فقد ضيع حلاوة النظم، وأجهد السامع في فهم المراد.

والتعقيد نوعان:

١- تعقيد في نظم الكلام، مثل قول الفرزدق في مدح إبراهيم بن هشام المخزومى خال هشام بن عبد الملك بن مروان:

وَمَا مِثْلُهُ في النَّاسِ إلاَّ مُمَلَّكاً   أَبُو أُمِّهِ حَيٌّ أَبُوهُ يُقَارِبُهُ

---

١ قلقل: حرك، وقلاقل الأولى جمع قلقلة وهي الناقة السريعة ، وقلاقل الثانية جمع قلقلة بمعنى الحركة ، وضمير كلهن ، وهي النوق، والمعنى: حركت بسبب الهم الذي حرك نفسي نوقا خفافا في السير، والمراد أنه سافر ولم يعرج بالمكان الذي يلحقه فيه ضيم.

أصْلُ ترتيب الكلام: وما مثله في الناس حيٌّ يقاربُه إلاَّ مملَّكاً أَبُو أُمِّهِ أَبُوه، فقَدَّمَ وأَخَّرَ في الكلمات، فألْغَزَ إلْغازاً سَيِّئاً. أي ليس مثله في الناس حي يقاربه إلا مملكا أبو أمه أبوه، يريد أنه ليس مثله في الناس أحد يشبهه في المكرمات إلَّا ابن أخته هشامًا، ولا شك أن هذا تعسف في القول، وتكلف في التركيب أخرج الكلام عن الفصاحة.

قال المبرد عن هذا البيت: "أنه أقبح الضرورة، وأهجن الألفاظ، وأبعد المعاني، وقد هجنه بما أوقع أوقع فيه من التقديم والتأخير، كأن هذا الشعر لم يجتمع فى صدر رجل واحد"[١].

ويقرر ابن جنى أن هذا النوع من التعقيد لا يجيزه العربي أصلا، فضلا عن أن يتخذه للمولدين رسمًا. ومن ذلك أيضا ما أنشده ابن الأعرابي:

فأصبحَتْ بعد خطَّ بهجتِها ... كأنَّ قَفْرا رسومَها قلما

وهو يريد: فأصبحت بعد بهجتها قفرا كأن قلما خط رسومها، فقدم وأخر، وفصل بين الكلمة وما يتصل بها، ونحو ذلك مما لا يجوز أحد القياس عليه.

وهذا التعقيد ونحوه ربما لجأ اليه الشاعر، لا لضعف منه باللغة، ولا جهلا منه بتوخى أسباب الفصاحة عند العرب، بل يلجأ إلى ذلك إظهارا القوة

---

١ الكامل ١ / ١٨.

طبعه، وشدة أسره، وسمو نفسه، وتعجرفه، كل ذلك قد يدفع الشاعر إلى ارتكاب هذه الضرورات على قبحها، ولكن ابن جنى لا ينصح باللجوء إلى ينصح باللجوء إلى هذا التعقيد، بل يأمرنا أن نعرفه ونجتنبه[1].

إذا علمت هذا علمت أن:

فصاحة الكلام:

هي أن يسلم من العيوب الثلاثة: تنافر الكلمات، وضعف التأليف، والتعقيد بنوعيه.

غير أن سلامة الكلام من هذه العيوب مشروطة بسلامة أجزائه، أي الكلمات منفردة من العيوب السابقة المخلة بفصاحة الكلمة.

وإنما شرطنا في فصاحة الكلام أن تسلم كل كلمة فيه من العيوب المخلة بفصاحتها، لتعلم أن نحو: مُحَمَّد أصدق مودة من أخيه، ونحو: شعر هند مستشزر، وأنفها مسرج غير فصيح، مع أنه كلام سليم من العيوب المخلة بعض أجزائه لم يكن فصيحًا؛ إذ الشرط في فصاحة الكلام -كما قلنا- سلامته من عيوبه، وعيوب أجزائه.

فصاحة المتكلم:

---

١ الخصائص ٢ / ٣٩٢

إذا استطاع إنسان يعبر تعبيرًا صحيحًا، واضح المعنى، سهل اللفظ، رصينه، جيد من الأغراض والمقاصد؛ فهو فصيح. فالمدار في فصاحته على أن تكون فيه القدرة على التعبير، يستخدمها متى شاء، في أي ضرب من الكلام، وفى أي فن من فنونه: كالمدح، والذم، والرثاء، والفخر، والتشبيب، وغير ذلك، فهو فصيح وإن لم ينطق، متى وجد فيه هذا الاستعداد، وهذه القدرة على صوغ اللفظ الفصيح، في أي معنى أراد، فإذا فقد هذه القدرة أصلًا، أو واتته في مقصد دون آخر لا يعد –في عرف البلغاء– فصيحا.

وإذًا تعلم أن:

فصاحة المتكلم: هي ملكة أي قدرة كامنة في نفسه، راسخة فيه، يستطيع بها التعبير عما يدور بنفسه، في أي فن من فنون الكلام بلفظ فصيح.

وتربية هذه الملكة إنما تكون بممارسة أساليب العرب الفصحاء، والوقوف على أسراها، وحفظ الكثير منها نثرا ونظما.

تمرين

بين العيوب التي أخلت بفصاحة الكلام فيما يأتي:

١. أنى يكون أبا البرايا آدم   وأبوك والثقلأن أنت محمد؟[1]

٢. كسا حلمه ذا الحلم أثواب سؤدد ورقى نداه ذا الندى في ذرا المجد[2]

٣. والشمس طالعة ليست بكاسفة   تبكى عليك نجوم الليل والقمر

٤. ما أحببنا إلاك يا رسول الله   قرب منا، فرأيناه أسدا، أي أبخر

جواب التمرين

١. فيه تعقيد لفظي، وأصل وضعه هكذا: أنى يكون آدم أبا البرايا وأبوك محمد وأنت الثقلان؟

٢. فيه ضعف تأليف؛ فقد أعاد الضمير في شطري البيت إلى متأخر لفظًا ورتبة، مخالفًا في ذلك قواعد اللغة التي اعتمدها النحاة.

٣. في البيت تعقيد لفظي من النوع الخفيف، بيانه: "أن نجوم الليل والقمر" منصوبان على المفعولية لكاسفة.

٤. فيه ضعف تأليف؛ فقد ولي الضمير"إلا" وهو متصل على خلاف المعتمد.

---

١ الثقلان : الأنس والجن .

٢ السؤدد: بسكون الهمزة وضم الدال الأولى السيادة، والندى الكرم والذرا جمع ذروة بكسر الذال وهي قمة الشيء.

٥. فيه تعقيد معنوي؛ لأن إطلاق لفظ الأسد على الرجل إنما يكون باعتبار المعنى البارز في الأسد، وهو الشجاعة، لا البخر. وإذا فلإطلاق الأسد على الرجل الأبخر تعقيد في المعنى؛ لخفاء اللزوم بين المعنيين.

تمرين مطلوبه جوابه على قياس ماسبق

بثينة شأنها سلبت فؤادى بلا ذنب أتيت به سلاما [١]

تسمع بالمعيدي خير من أن تراه.

يقول الفرزدق[٢]:

إِلَى مَلِكٍ مَا أُمُّهُ مِنْ مُحَارِبٍ * أَبُوهُ وَلاَ كَانَتْ كُلَيْبٌ تُصَاهِرُهُ [٣]

لَيسَ إِلّاكَ يا عَلِيُّ هُمامٌ سَيفُهُ دونَ عِرضِهِ مَسلولُ

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبر وحسنِ فعلٍ كما يُجزى سِنمار [٤]

سأطلب بعد الدَّارِ عَنْكُمْ لِتَقْرُبُوا وَتَسْكُبُ عَيْنَايَ الدُّمُوعَ لِتَجْمُدَا[٥]

---

١ أصل التركيب هكذا : سلا بثينة ما شأنها سلبت فؤادي بل ذنب أتيت به .

٢ هو: أبو فراس همام بن غالب، تغلب على شعره فخامة الألفاظ، وكان بينه وبين جرير مساجلات طال أمرها، مات سنة ١١٠ هـ.

٣ الوضع الصحيح: إلى ملك أبوه ما أمه من محارب أي ليست أمه منهم ولم تصاهره كليب.

٤ سنمار: هذا اسم رجل بنى للنعمان بن امرئ القيس قصرًا فخمًا بالكوفة أسماه الخورنق ولما أتم بناءه وزخرفه ألقاه النعمان من أعلاه؛ لئلا يبني قصرًا مثله لغيره فمات لساعته فضرب به المثل لكل من يجازى على الخير بشر.

٥ كنى الشاعر بجمود العين عن السرور، وهو خطأ لأن جمود العين جفافها من الدمع عند اشتداد الحزن.

تمرين

مثل لما يأتي من إنشائك أو من غيره: كلام أخل بفصاحة التعقيد اللفظي، وآخر أخل بفصاحة ضعف التأليف، وثالث أخل بفصاحته تنافر الكلمات، ورابع أخل بفصاحته غرابة بعض أجزائه.

اختبار

١. بين معنى الفصاحة في الكلام، مع بيان الفرق بين المتنافر فيه وفي الكلمة، وبين المخالفتين فيهما، مثل لما تقول.

٢. وضح معنى التعقيد في الكلام، واذكر نوعيه، وبين وجه التعقيد في إطلاق اللسان على الجاسوس.

٣. عرف فصاحة المتكلم، وهل إذا أجاد القول الفصيح في معنى الرثاء يكون فصحيا؟ علل لما تقول.

٤. بين العيوب التي تخل بفصاحة الكلام، ومثل لها.

البلاغة

- مفهوم البلاغة:

إذا تتبعنا استعمالات العرب لهذه لكلمة وجدنا أنها – في اللغة – لاتخرج عن معنى الوصول والانتهاء.

يقال: بلغ الرجل كذا بلوغا إذا وصل وانتهى إليه، وبابه "نصر". ويقال: بلُغ الرجل – على زنة كرُم– بلاغة إذا أتى بكلام بليغ مؤثر، أي واصل إلى أعماق النفس – وللبلاغة تعاريف شتى لطائفة من الأدباء والبلغاء لا محل لسردها هنا.

فالبلاغة فعالة مصدر بلُغ بضم اللام كفقُه، وهو مشتق من بلَغ بفتح اللام بلوغاً بمعنى وصل وانتهى. وإنما سمي هذا العلم بالبلاغة لأنه بمسائله وبمعرفتها يبلغ المتكلم إلى الإفصاح عن جميع مراده بكلام سهل وواضح ومشتمل على ما يعين على قبول السامع له ونفوذه في نفسه، فلما صار هذا البلوغ المعنوي سجية يحاول تحصيلها بهذا العلم صاغوا له وزن فعُل بضم العين للدلالة على السجية فقالوا علم البلاغة[1].

---

(١) وبيان ذلك أن اشتمال الكلام على الكيفيات التي تعارفها خاصة فصحاء العرب فكان كلامهم أوقع من كلام عامتهم وأنفذ في نفوس السامعين وعلى ما شابه تلك الكيفيات مما أبتكره المزاولون لكلامهم وأدبهم وعلى ما يحسن ذلك مما وقع في كلام العرب وابتكره المولعون بلسانهم يعد بلوغاً من المتكلم إلى منتهى الإفصاح عن مراده.

أما معناها في الاصطلاح: فيختلاف موصوفها، وهو أحد اثنين: الكلام، والمتكلم، ولاتوصف بها الكلمة، فلا يقال: هذه كلمة بليغة[1]؛ لعدم ورود السماع بذلك.

بلاغة الكلام:

فالبلاغةُ في الكلامِ: مطابقتُه لما يقتضيه حالُ الخطاب– مع فصاحةِ ألفاظهِ «مفردِها ومركَّبِها»[2].. والكلامُ البليغُ: هو الذي يُصورِّهُ المتُكلِّمُ بصورةٍ تناسبُ أحوالَ المخاطبين.

وقد حظيت البلاغة العربية باهتمام القدماء من النقاد والأدباء والبلاغيين؛ فأدلى كلٌّ بدلوه في معنى البلاغة على نحو:

ما أورده الجاحظ في كتابه (البيان والتبيين). ومن هذه التعريفات أن البلاغة معرفة الفصل من الوصل. وما قيل من إنَّها الإيجاز في غير عجز، والإطناب في غير خَطَل. والخطل في اللغة: الكلام الفاسد الكثير المضطرب. ومن أنها تصحيح الأقسام واختيار الكلام، ومن أنها وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة، ومن أنها قول تضطر العقول إلى فهمه بأيسر العبارة،

---

١ المراد بالكلمة القول المفرد فإن أريد بها القصيدة أو المقال على سبيل التجوز وصفت حينئذ بالبلاغة فيقال : كلمة بليغة على معني قصيدة بليغة ومقالة بليغة .

٢ إنما قلنا مع سلامته مما ذكر لان بلاغة الكلام مشروط فيها فصاحته وفصاحة أجزائه .

ومن أنها إجاعة اللفظ وإشباع المعنى، ومن أنها حسن العبارة مع صحة الدلالة، ومن أنها دلالة أول الكلام على آخره، وارتباط آخره بأوله، ومن أنها إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ.

وهذه الأقوال في تعريف البلاغة ليست تعريفات جامعة مانعة، بل هي أوصاف للبلاغة، وكل تعريف منها يتناول جانبًا من جوانب البلاغة ومقصدًا من مقاصدها، وهدفًا من أهدافها، وليس فيها -على كثرتها- تعريف يمكن الاقتصار عليه والاكتفاء به في توضيح معنى البلاغة، ولعل أقرب التعريفات إلى تعريف المتأخرين للبلاغة هو قول أبي هلال العسكري: "البلاغة كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع، فتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسك، مع صورة مقبولة ومعرض حسن". هكذا في (الصناعتين). فهذا التعريف مع وضوحه يشير إلى غاية البلاغة، والأثر الذي تحدثه في نفس القارئ والسامع، كما يركز على حسن الصورة فليست البلاغة إفهام المعنى فقط؛ لأن العيي يفعل ذلك، وإنما البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ، وبذلك يتفاضل القائلون، ويعلو بعض الكلام على بعضه في درجات البلاغة.

وقد عرف المتأخرون البلاغة بقولهم: هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته. كذا في (الإيضاح) للقزويني.

وحالُ الخطابِ « ويسمَّى بالمقامِ»: هو الأمرُ الحاملُ للمتكلِّم على أن يُوردَ عبارتَه على صورةٍ مخصوصةٍ دون أخرى.

والمُقتضَى « ويسمَّى الاعتبارُ المُناسبُ»: هو الصورةُ المخصوصةُ التي تُورَدُ عليها العبارةُ.

ومطابقة الكلام لمقتضى الحال: هي إيراد الكلام مشتملا على هذا الأمر الزائد الذي اقتضاه الحال.

فمثلاً – المدحُ – حالٌ يدعو لإيرادِ العبارة على صورةِ الإطناب ، وذكاءُ المخاطب – حالٌ يدعو لإيرادها على صورةِ الإيجاز، فكلٌّ من المدحِ والذكاءِ « حالٌ ومقامٌ» وكلٌّ من الإطناب والإيجاز «مُقتضَى»، وإيراد الكلام على صورة الإطناب أو الإيجاز « مُطابقة للمقُتضَى» وليست البلاغة إذاً مُنحصرة في إيجاد معانٍ جليلة، ولا في اختيار ألفاظٍ واضحة جزيلةٍ، بل هي تتناولُ مع هذين الأمرين أمرًا ثالثًا (هو إيجادُ أساليبَ مُناسبةٍ للتأليف بين تلك المعاني والألفاظ) مما يُكسبها قوَّةً وجمالًا.

وملخَّصُ القول: إنَّ الأمرَ الذي يَحملُ المُتكلّم على إيراد كلامهِ في صورةٍ دون أخرى: يُسمَّى «حالًا». وإلقاءُ الكلام على هذه الصُّورةِ التي اقتضاها الحال يُسمَّى «مُقتضَى». والبلاغةُ: هي مُطابقةُ الكلامِ الفصيحِ لما يقتضيهِ الحالُ.

ومما ذكرنا تعلم أن: مقضيات الأحوال تختلف باختلاف تلك الاحوال – فإن كانت الحال إنكارا كان المقتضى تأكيدً؛ لأنه المناسب لمقام الإنكار – وإن كانت الحال ذكاء في المخاطب كان المقتضى هو الإيجاز في الكلام، والإتيان بالعبارات اللطيفة، والمعاني الدقيقة اعتمادًا على هذا الذكاء – وإن كانت الحال غباء فيه كان المقتضى هو الإسهاب في القول، والإتيان بالمعاني الصريحة الواضحة؛ لأن ذلك هو الموافق الحال الغبي ... وهكذا.

فمراعاة مقتضى الحال تكون في عدم الإيجاز في موطن التطويل وكذا العكس، أو عدم تقديم ما يحسن تأخيره وكذا العكس، ومنه توكيد ما لا ضرورة لتوكيده وما أشبه ذلك مما يعني به علم المعاني، وإنما يتأتى للمتكلم مراعاة هذه الأحوال بنمو الحس البلاغي لديه ، ويتم مثل هذا النمو بالعوامل التالية:

- الاستعداد الفطري والموهبة.
- الذوق المدرب.
- كثرة المطالعات لكتابات البلغاء وفي مقدمتها حفظ القرآن الكريم.
- ممارسة الإنتاج الأدبي ما أمكن.

- دراسة فنون البلاغة والتعرف إلى مختلف وجوهها وحالاتها مع التمييز بين ما يحسن منها وما هو متكلف.

لكل مقام مقال:

فللسوقة كلام لايصلح لسراة القوم وأمرائهم، وفي مواقف الحرب والفخر، أو الوعيد والتهديد كلام يخالف ما يقال في مواطن توديع الأحبة، أو الاستعطاف والاعتذار، أو نحو ذلك؛ ففي الأول يستعمل اللفظ الضخم، والمعنى الفخم. وفي الثاني يستعمل اللفظ الرقيق الحاشية، الناعم الملمس، اللطيف الموقع.

وقد دعم هذه الفكرة أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ) الذي يقول: "ولا يُكلم سيدُ الأمة بكلام الأمة ولا الملوك بكلام السوقة؛ لأن ذلك جهل بالمقامات، ومايصلح في كل واحد منهما من الكلام، وأحسن الذي قال: "لكل مقام مقال"، فتحقيق التواصل الجيد بين المتكلم والمخاطب، هو الغايةُ من مراعاة المقام، ويجبُ عدم استخدام الألفاظ الغريبة في العملية التواصلية؛ لأن الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس، كما يفهم السوقي رطانة السوقي"[١].

---

١ الصناعتين لأبي هلال العسكري . ص : ٢٧

انظر إلى قول البارودي في الفخر:

وإنِّ امرؤٌ لولا العوائقُ أذعَنت لِسلطانهِ البدو المُغيرَةُ والحَضرُ

مِنَ النَّفَرِ الْغُرِّ الَّذِين سُيُوفُهُمْ لَهَا فِي حَوَاشِي كُلِّ دَاجِيَةٍ فَجْرُ

إِذَا اسْتَلَّ مِنْهُمْ سَيِّدٌ غَرْبَ سَيْفِهِ تفزَّعتِ الأفلاكُ ، والتفَتَ الدَهرُ[1].

وانظر إلى قول بشار بن برد في الفخر أيضًا:

إذا ما غَضِبْنَا غَضْبةً مُضَرِّيةً هَتَكنا حِجابَ الشمْسِ أوْ قَطَرَتْ دمَا

إذا ما أَعَرْنَا سيِّدًا منْ قَبيلَةٍ ذرى مِنْبَرٍ صلَّى عَلَيْنا وَسَلَّمَا

ثم انظر إلى القائل يستعطف المأمون الخليفة:

ذنبي اليك عظيم ... وأنت أعظم منه

فخذ بحقك أو لا ... فاصفح بعفوك عنه

إن لم أكن في فعالي ... من الكرام فكنه

فإنك لترى الألفاظ في الأول تنحدر كما تنحدر الصخور من شواهق، وتراها في الثاني تسيل كما يسيل العذب الفرات سائعا للشاربين ... وهكذا:

---

١ المراد بالبدو والحضر سكان البادية والحضر وحواشي الليل جوانبه يريد أو أخر الليل وغرب السيف حده .

لكل مقام مقال، ولكل حال مقتضاه، وإن لنا في القرآن الكريم والحديث الشريف لخير قدوة في استعمال ما يناسب المقام من فنون الكلام.

فالقرآن الكريم هو خير ما روعي فيه مقتضيات الأحوال، ولعلك تلحظ اختلاف أسلوب النظم الكريم تبعًا لاختلاف المواقف والأحوال بصورة واضحة، فهو حين يواجه المشركين المعاندين؛ يلجأ إلى الأسلوب القوي الحاسم؛ ليثير الانفعال السريع العنيف، وكثيرًا ما يتدفق الأسلوب في جمل قصيرة سريعة تهز أوتار المشاعر، وتحرك كامن العواطف، مثلًا قول الله تعالى في سورة الحاقة، وهي سورة مكية: {الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ}. (الحاقة: ١-٨). وذلك كالموقف الذي يستدعي هجوما من الحق على الباطل عنيفا مثيرا ،فالقرآن الكريم يسوق من الآيات السريعة القصيرة ما يمثل هذا العنف المثير خيرَ تمثيل، ومنه قوله تعالى:"ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ

وَٱسۡتَكۡبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾[1].

وهكذا فإننا لو تتبعنا الأسلوب القرآني سنجده متفقا مع الحال أو الموقف كل الاتفاق. إن الآيات الكريمة كما ذكر الدكتور إبراهيم التلب في كتابه (دراسات في علم المعاني) تتحدث عن مصير المكذبين بيوم الدين، وما ينتظرهم من العذاب الأليم في الدنيا والآخرة، تقريرًا لسنن الله الكونية في إهلاك أهل الكفر والعصيان، وانتصار أهل الهدى والإيمان لأن الجزاء من جنس العمل، فأسلوب القرآن في هذا الموقف مطابق لمقتضيات أحوال السامعين من أرباب الضلال وشياطين الكفر؛ حيث اتسم بالقوة والإثارة، والسرعة في الإيقاع مع الحزم، مما أكسبه دقة التعبير وقوة التأثير. أما إذا اقتضى المقام أسلوبًا هادئًا في مجال الإقناع والدعوة إلى التأمل والتدبر، فإننا نرى أسلوب الذكر الحكيم يتسم بالهدوء والرفق والإثارة في سبيل تحقيق الغرض من الآيات الكريمة.

واقرأ معي مثلًا قول الحق –تبارك وتعالى– في سورة الرعد، وهي مدنية: {اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ

---

١ سورة المدثر، الآيات: من ١١ : ٢٠.

رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}(الرعد: ٢-٤).

فمن الواضح أن هذه الآيات تسوق الدلائل المتعددة على قدرة الله تعالى بغية الوصول إلى أن الله قادر على كل شيء، وهو لذلك جدير بالعبادة وحده، وقد أوردت الآيات هذه الدلائل في أسلوب هادئ النبرات، يخاطب العقل والعاطفة معًا، ويشف عن معناه، كما يشف الروض عن عبيره؛ ولذلك جاء مقنعًا للذين يتفكرون ويعقلون. وما اختلاف أسلوب السور المكية عن السور المدنية إلا صدى لاختلاف طبيعة الموقف في مكة عنه في المدينة، فالإسلام في مكة كان يواجه أعتى قوى الشرك في محاولة مضنية لاقتلاع جذور الباطل بشتى صوره في تلك البيئة، ليرسي دعائم التوحيد على أساس سليم؛ لذلك اتسم أسلوبه في مكة بالقوة والحزم في مواجهة المشركين. أما في المدينة، فإن الوضع قد اختلف حيث توطدت أركان الإسلام، وأصبحت له دولة وساد جو الاستقرار الذي يسمح بتنظيم العلاقات الاجتماعية والسلوكية بين أفراد المجتمع الجديد. ولذلك أخذ القرآن يرشد المؤمنين إلى آداب السلوك، ويوجههم

إلى الخير والصلاح، وذلك وضع يستدعي الأسلوب الهادئ المقنع الذي يصل إلى أغوار النفوس؛ ولذلك كان القرآن مثلًا أعلى للبلاغة العربية في أرقى مظاهرها، وأروعِ سماتها.

البلاغة العربية، وقضية الإعجاز القرآني

لمَّا كانتْ البلاغةُ القُرآنيةُ هي النموذجُ الأمثلُ، والأسمى الذي ينبغي أنْ تتَّجه عنايةُ الدارسين إليه، والمَعين الذي لا ينضَب ولا يغيض، ومن ثم كان لابد من الإشارة إلى علاقة الدرس البلاغي بالقرآن الكريم، وإعجازه وتوظَّيف الدراسة البلاغيَّة للوصول إلى إعجاز القُرآن الكريم وما تميَّزت به بلاغته، ومحاولة كشفها للناس بروعة الأداء ورُقِيِّ العرض والتحليل؛ لأن علوم البلاغة تعد من أهم العلوم التي وُضِعت للبحث في إعجاز القرآن الكريم، وأسهَمتْ فيه بنصيبٍ موفور كما أن قضية الإعجاز تتَّصل بالبحث البلاغي اتصالاً وثيقًا، بل هي من أهم قضايا البلاغة.

وتعد قضيةُ الإعجازِ القرآنِيّ ذات أثرٍ كبيرٍ في دراسةِ بلاغتنا العربية والموجه الأكبر للدرس البلاغي العربي منذ نشأته، وتطوره، وحتى إزدهاره، واستقراره. ويعد المتكلمون أول من بحثوا في إعجاز القرآن، وبلاغته ومن أشهرهم الجاحظ، وبشر بن المعتمر (ت٢١٠هـ) ومن قبلهم المفسرين كأبي عبيدة، والفراء وهذا ما يصل بنا إلى نتيجة مهمة هي أن نشأة البلاغة، وبدايتها

هي عربيةٌ خالصة تتصل بكتاب الله، وتفسيره أولا ثم بأدب العرب، وفنونهم قبل أن تتأثر ببلاغة اليونان أو منطقهم.

⟸ مظاهر الإعجاز البلاغي في القـرآن الكريم: يتجلى هذا الجانب من الإعجاز في مظاهر عدة نوجزها فيما يلي:

أ- نظمه البديع:يجري القرآنُ على نسقٍ بديعٍ خاص في أسلوبه، خارج عن المعـروف والمألـوف من نظام كلام العرب، ولا يجاريه أحدٌ فهو لا تُنطبق عليه قوافي الشعر، كما أنه ليس على سنن أسجاع النثر.

ب- المحافظة على جمال اللفظ، وروعة التعبير: إن التعبيرَ القرآني يختارُ أجملَ الألفاظ لأبهى تعبير، ويظل جاريا على مستوى رفيع من هذا الجمال اللفظي، ورقة الصياغة، وروعة التعبير، مهما تنوعت أبحاثه، واختلفت موضوعاته، وهذا مما يخرج عن طوق البشر، ومقدرتهم اللغوية اللفظية، والمعنوية فكلمة واحدة من القرآن الكريم (أنلزمكموها) يقابلها سبع كلمات باللغة الإنجليزية[1]، وكذا كلمة أسقيناكموه لفظة واحدة فيها حرف عطف، وفعل، وفاعل، ومفعول به أول، ومفعول به ثان.فما أروع بلاغة القرآن الكريم لفظا، وتعبيرا !!

* لطيفة قرآنية: رُوِيَ عَن الأصمَعي قال: اجتَزتُ بِبَعضِ أحياءِ العربِ، فرأيتُ صَبِيَّةً مَعَها قِربةٌ فيها ماءٌ وقد انحَلَّ وِكاءُ فَمِها. فقالت: يا عَمّ، أدرِكْ فاها ، قَد غَلَبَني فوها، لا طاقَةَ لي بِفيها فأعنتُها، وقُلت: يا جارية، ما أفصحكَ! فقالت يا عمّ، وهل تَركَ القرآنُ لأحدٍ فصاحةً ؟ وفيه آيةٌ فيها خَبران وأمران ونَهيان وبِشارَتان! قلت: وما هي؟قالت: قوله تبارك وتعالى: "وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ"(سورة القصص.الآية:٧) قال: فرَجَعتُ بِفائدةٍ، وكأنّ تلك الآية ما مرّت بِمسامِعي مِن قبل!

ج- صياغته الموافقة لحال المخاطبين: إن ألفاظَ القرآن وعباراته مصوغةٌ بشكلٍ غريبٍ، وعلى هيئةٍ عجيبة بحيث تصلح أن تكونَ خطابًا لمختلف المستويات من الناس، وبحيث يأخذُ كلُ قارئٍ منها ما يقدر على فهمه واستيعابه، ويراها مقدرة على مقياس عقله ووفق حاجاته، ومتطلباته.

د- التجديد في الأسلوب: المظهر الرابع من مظاهر الإعجاز البلاغي في القرآن هو تصريف بعض المعاني وتكرارها بقوالب مختلفة من التعبير والأسلوب البياني، بشكل يُضفي عليها الجدة، ويُلبسها ثوبًا من التجسيم، والتخييل غير الذي كانت تلبسُه، بحيث تظهر وكأنها معنى جديد.

بلاغة المتكلم:

هي -كما قلنا - في فصاحة المتكلم - استعداد وقدرة في المتكلم يسطتيع بها متى شاء تأليف كلام بليغ في أي مقصد يريد، فهو بليغ وإن لم ينطق، متى وجدت فيه هذه القدرة على صوغ الكلام البليغ في أي فن من فنونه.

فإن فقد هذه القدرة لم يكن بليغًا -كما لايكون بليغا إذا استطاع صوغ الكلام البليغ في مقصد دون آخر.

مرجع البلاغة: يتوقف تحققها على أمرين:

الأول: الاحتراز عن الخطأ في تأدية المعنى المراد، وذلك هو معنى مطابقة الكلام لمقتضى حال الخطاب – على ما تقدم بيانه.

الثاني: سلامته من العيوب المخلة بفصاحته وفصاحة أجزائه على ما فصلناه لك سابقًا.

عناصرُ البلاغةِ: أربعة لفظٌ ومعنًى، وتأليفٌ الألفاظ يمنحُها قوةً وتأثيرًا وحسنًا، ثم دقةٌ في اختيار الكلمات والأساليب على حسب مواطن الكلام ومواقعه، وموضوعاته، وحال السامعين، والنزعةِ النفسية التي تتملكهم، و تسيطرُ على نفوسهم.

أقسامُ علمِ البلاغةِ: ينقسمُ علمُ البلاغة إلى ثلاثة أقسامٍ:

علمُ المعاني: وهو علمٌ يعرَفُ به أحوال اللفظ العربيِّ التي بها يطابقُ مقتضَى الحال.

علمُ البيان: وهو علمٌ يعرَف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفةٍ مع وضوحِ الدلالة عليه.

علمُ البديع: وهو علمٌ يعرَف به وجوه تحسين الكلام، بعد رعايةِ تطبيقه على مقتضَى الحال ووضوحِ الدلالة.

تمرين

بين وجه وجه خروج الجمل الآتية عن حد البلاغة:

(١) قال رجل لمنكر رسالة مُحمد -ﷺ-: مُحمَّد رسول الله.

(٢) نزلت بالمستعمر داهية خنفقيق[1].

اختبار

١. بين معنى بلاغة الكلام، مع بيان الألفاظ الآتية: الحال، ومقتضى الحال، والمطابقة. ثم إيت بمثال توضح فيه ذلك.

٢. إذا استطاع إنسانٌ أن يؤلف كلامًا في الطبقة العليا من البلاغة في أحد الأغراض كالمدح، أو الرثاء، فهل يعد في عرف البلغاء بليغًا؟ علل لما تقول.

٣. إيت بثلاثة أمثلة اختلفت فيها المقتضيات لاختلاف الأحوال والمقامات، مع بيان الحال ومقتضاه، ومطابقة الكلام له في واحد منها.

كلمة موجزة في تعاريف علوم البلاغة

لم يصنف العلماء في هذه الفنون الثلاثة: المعاني، والبيان، والبديع، إلا بعد الفراغ من تدوين علوم اللسان: النحو، والصرف، واللغة.

---

١ شديدة.

ويمكن القول بأن أول كتاب دون في هذه العلوم كان في علم البيان، وهو كتاب "مجاز القرآن " لأبي عبيدة، المتوفى سنة ٢٠٦ هـ، وضعه على إثر سؤال وجه إليه في مجلس الفضل بن الربيع[١] عن معنى قوله تعالى في شجرة الزقوم التي ورد ذكرها في القرآن: "طلعها[٢] كأنه رءوس الشياطين"، وكيف يشبه الطلع برءوس الشياطين، وهي لم تعرف بعد؟ أي ينبغي أن يشبه بشيء معروف؛ حتى يتبين المشبه ويتضح؛ فأجاب أبو عبيدة بأنه على حد قول امرئ القيس[٣]:

أَيَقتُلُني وَالمَشرَفِيُّ مُضاجِعي   وَمَسنونَةٌ زُرقٌ كَأَنيابِ أَغوالِ[٤]

يريد أن المشبه به هنا غير معروف كذلك، وأن الغرض من التشبيه: عرض المشبه فى صورة بشعة مخوفة، والعرب – عادة تشبه قبيح الصورة بالشيطان، أوالغول، وإن لم يروهما–؛ لاعتقادهم أنهما شر محض، لا يخالطه خير، فيرتسم في خيالهم بأقبح صورة.

ثم قام أبو عبيده من فوره، وتقصى – جهد المستطيع – ماورد في القرآن الكريم من الأساليب البيانية، وجميعها في هذا الكتاب، وأسماه "مجاز القرآن".

---

١ أحد وزراء المأمون الخليفة العباسي.

٢ الطلع هنا يراد به الحمل أي الثمر وأصله طلع النخل الذي يلقح به ، سمى به حمل هذه الشجرة .

٣ وهو أسبق شعراء الجاهلية إلى ابتداع المعاني، وهو أول من وقف على الديار واستبكى الأطلال.

٤ المشرفي وصف للسيف منسوبا إلى مشارف الشام ، وهي قرى كانت تجيد صناعة السيوف ، وزرق : به أسنة الرماح: يريد الشاعر أن ينكر على من يحاول قتله أن يتمكن من قتله أحد، وهو محصن بسيفه ورمحه.

وأبو عبيدة هذا هو معمر بن المثنى اللغوي البصري، تلميذ يونس ابن حبيب شيخ سيبويه إمام النحاة، وأستاذ هارون الرشيد الخليفة العباسي، ثم تبعه العلماء من بعده؛ فوضعوا رسائل في الاستعارة والكناية، لم تميز علم البيان تمييزا خاصا، وبقيت الحال كذلك مدة العصر العباسي الأول.

أما علم المعاني فلم يعرف بالضبط أول من تكلم فيه، وإنما أثر عن بعض فحول الكتاب والخطباء، كجعفر بن يحيى[1]، وسهل بن هارون[2]، وغيرهما كلام في هذا النوع من البلاغة، ولكنه لم يطبع هذا العلم بطابع خاص يتميز به عن سواه، وأول من عرض لهذا العلم، ودوَّن فيه ونظم عمرو ابن بحر الجاحظ[3] في كتابيه "البيان والتبيين، وإعجاز القرآن"، وغيرهما. ثم تقفاه العلماء من بعده كأبي العباس المبرد[4] صاحب "الكامل"، وقدامة ابن جعفر الكاتب[5]، ووقف الأمر عند هذا الحد مدة هذا العصر.

أما علم البديع فيقال: إن أول مَن كتب فيه كتابا خاصا عبد الله بن المعتز[6] الخليفة العباسي المتوفى سنة ٢٩٦ هـ، وكان الشعراء قبله يأتون في

١ أحد وزراء هارون الرشيد

٢ هو فارسي الأصل اتصل بالمأمون فولاه خزانة الحكمة وكان أديبا شاعرا حكيما ويتعصب للعجم على العرب .

٣ هو : إمام الأدب أبو عثمان عمرو بن بحر البصري صاحب التصانيف الممتعة والرسائل الشائقة .

٤ هو : أبو العباس محمد بن يزيد النحوي وله تأليف في الأدب، وكان حسن المحاضرة، مليح الأخبار، كثير النوادر توفى سنة ٢٨٥ هـ

٥ كان نصرانيا وأسلم واشتهر في زمانه بالبلاغة ونقد الشعر ، وألف في ذلك كتبا .

٦ منزلته في الشعر والنثر رفيعة واشتهر بتشبيهاته الرائعة .

أشعارهم بضروب من البديع كبشار بن برد[1]، ومسلم بن الوليد[2]، وأبي تمام[3]، وغيرهم، فجاء ابن المعتز وجمع من أنواعه سبعة عشر نوعا، وكان ممن يعاصره قدامة بن جعفر سالف الذكر، فجمع منه عشرين نوعا، اتفق مع ابن المعتز على سبعة منها، وسلم له ثلاثة عشر، تضاف إلى السبعة عشر التي جمعها ابن المعتز فيكون جملة ما جمعاه ثلاثين نوعًا هي أقصى ما جمع في العصر.

وجاء العصر التالي؛ فزاد كل من أبي هلال العسكري[4] صاحب الصناعتين، وابن رشيق[5] صاحب العمدة، أنواعا كثيرة.

هذا ولم تميز هذه العلوم، وتبوب وتفصل إلا في العصر العباسي الثاني، وأول من نزع عن قوسه ورمى إلى هذا الهدف شيخ البلاغة الإمام عبد القاهر الجرجاني –رحمه الله تعالى–[6]صاحب "دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة".

وبقيت الحال كذلك حتى جاء فارس الحلبة أبو يعقوب يوسف السكاكي المتوفى سنة ٦٢٦هـ؛ فبسط هذه العلوم في كتابه "مفتاح العلوم" وهذب مسائلها، فكان كل من جاء بعده عيالا عليه.

---

١ هو أبو معاذ ، أشعر مخضرمي الدولتين : الأموية والعباسية ، وكان مع هذا كفيفاً توفى سنة ١٦٧ هـ

٢ كان يلقب بصريع الغواني ، وكان متصرفا في شعره ، يقال إنه أول من تعمد البديع في شعره ، وهو شاعر عباسي توفي ٢٠٨ هـ

٣ هو حبيب بن أوس الطائي ، عربي الأصل وأحد شعراء الأعلام توفي سنة ٢٣١ هـ

٤ هو : الحسن بن عبد الله بن سهل المتوفى سنة ٣٩٥ هـ

٥ هو : أبو علي الحسن بن رشيق المتوفى سنة ٤٦٣ هـ

٦ هو : أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١ هـ

وجه الحاجة إلى دراستها:

لتعلم: أن لهذه العلوم الفضل الأول في بيان أسرار اللغة والكشف عن كنوزها ونفائسها، وفي معرفة مالها من ميزة السبق على سائر اللغات، حتى نزل بها القرآن الكريم، فوسعته معنى وأسلوبا، على ما فيه من روعة البيان وسحره، فكان ذلك شهادة لها بإحرازها قصب السبق واستوائها على عرش السيادة.

كذلك لها الفضل الأول في الكشف عن سر إعجاز القرآن بما حواه من بارِع اللفظ، ورائع الأسلوب، وبما تضمنه من بيان ساحر، وهو فوق متناول الإدراك، حتى وقف بنو العروبة وحاملو لوائها واجمين، وخر له عباقرة البيان ساجدين.

من أجل هذا كانت حاجتنا إلى دراسة هذه العلوم فوق حاجتنا إلى أي شيء، آخر من شئون الحياة.

وما ظنك بما يكشف لك عن سر لغة آبائك من قوة واعتزاز، وما احتواه كتاب ربك رمز العظمة وآية الإعجاز.

أبرز محتويات علوم البلاغة في

أمثلة تطبيقية من القرآن والحديث

مع علم المعاني وأبرز مباحثه

- تعريفُ علمِ المعاني: علم المعاني: علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي يطابق بها مقتضى الحال[1] ومداره على الجملة وما يطرأ عليها من تقديم أو

---

١ ينظر :الإيضاح في علوم البلاغة:٢٢ وينظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها:٣/٢٧٩.

تأخير أو ذكر أو حذف أو تعريف وتنكير، أو قصر، أو فصل ووصل، أو إيجاز وإطناب ومساواة .

فهو أحد علوم البلاغة الثلاثة المعروفة: المعاني والبيان والبديع، وهو أصولٌ وقوَاعِد يُعرَف بها أحوالُ الكلامِ العربِيّ التي يكونُ بها مُطابقاً لِمقتضَى الحال، بحيثُ يكونُ وفقَ الغَرَضِ الذي سِيقَ لهُ.

وأحوال اللفظ هي الأمور التي تعرض له من التقديم والتأخير، والتعريف والتنكير، والذكر والحذف، إلى غير ذلك.

فذكاءُ المُخاطَب: حالٌ تَقتضي إيجازَ القول، فإذا أوَجزتَ في خطابهِ كان كلامُك مطابقاً لمقتضَى الحالِ، وغباوتُه حالٌ تقتضي الإطنابَ والإطالةَ ، فإذا جاءَ كلامُك في مخاطبتهِ مطنبًا: فهو مطابقٌ لمُقتضَى الحال، ويكونُ كلامُك في الحالين بليغاً، وَلو أنكَ عكستَ لانتفتْ منْ كلامِك صفةُ البلاغةِ.

- موضوعُه: اللَّفظُ العربيُّ، من حيثُ إفادتُه المعاني الثَّواني التي هي الأغراضُ المقصودةُ للمتكلّم، من جعلِ الكلام مشتملاً على تلك اللَّطائفَ والخصوصيّاتِ، التي بها يُطابقُ مُقتضَى الحال.

- **واضِعُهُ: عبد القاهر الجرجاني (المُتوفَّى سنة ٤٧١ هـ) هو واضع أصول علمي المعاني والبيان ومؤسسهما في العربية، وقد جعل من مباحث كلا العلمين وحدة يمكن النظر فيها نظرة شاملة.**

- **استمدادُه: من الكتابِ الشَّريفِ، والحديث النَّبويِّ، وكلامِ العرب.**

- **أهمية علم المعاني، وأثر علم المعاني في بلاغة الكلام:**

يمكن القول من البَدْءِ: إنَّ الأثر الذي يحدثه علم المعاني في بلاغة القول يتولد في الواقع من أمرين اثنين:

الأمرُ الأوَّلُ: بيانُ وجوب مطابقة الكلام لحال السامعين والمواطن التي يقال فيها، والمعاني المستفادة من الكلام ضمنا بمعونة القرائن. وتوضيحا للأمر الأول نقول: إن مباحث علم المعاني من شأنها أن تبين لنا وجوب مطابقة الكلام لحال السامعين والمواطن التي يقال فيها، كما ترينا أن القول لا يكون بليغا كيفما كانت صورته حتى يلائم المقام الذي قيل فيه، ويناسب حال السامع الذي ألقي عليه.

فللمخاطب الذي يلقى إليه خبر من الأخبار مثلا ثلاث حالات:

ففي الحالة الأولى: قد يكون خالي الذهن من الحكم الذي هو مضمون الخبر، وعندئذ تقتضي مطابقة الكلام لحاله أن يلقى إليه الخبر مجردا عن أي تأكيد.

وفي الحالة الثانية: قد يكون المخاطب على علم ما بالخبر، ولكن علمه به يمتزج بالشك وله تطلع إلى معرفة الحقيقة، وفي هذه الحالة وطبقا. لمقتضيات البلاغة يحسن توكيد الخبر له إزالة للشك وتمكينا للخبر من نفسه.

وفي الحالة الثالثة: قد يكون المخاطب على علم بالخبر ولكنه منكر جاحد له، وعندئذ يجب أن يلقى الخبر مؤكدا بمؤكد أو أكثر تبعا لدرجة إنكاره قوة وضعفا.

على هذا الأساس إذا ألقي الخبر إلى خالي الذهن منه بالصورة التي يجب أن يلقى بها إلى المنكر له، كان في ذلك خروج على مقتضيات البلاغة من جهة وجوب مطابقة الكلام لحال السامع الذي هو أصل من أصول علم المعاني.

كذلك من أصول علم المعاني أن يخاطب كل إنسان على قدر استعداده في الفهم وحظه من اللغة والأدب، فلا يجوز أن يخاطب العامي بما ينبغي أن يخاطب به الأديب. فعكس الأمر هنا بلا داع فيه إخلال بما تتطلبه بلاغة المعنى، لانعدام الملاءمة بين الكلام ومقامه.

وتتمثل مطابقة الكلام لمقتضى الحال أيضا فيما يتصرف فيه القائل من إيجاز وإطناب، حيث لكل من الإيجاز والإطناب مقاماته التي تقتضيها حال السامع ومواطن القول. فالذكي الذي تكفيه اللمحة أو الإشارة يحسن له الإيجاز، والغبي أو المكابر يجمل عند خطابه الإطناب في القول.

فالبلاغة تقتضي استخدام أسلوب الإيجاز مع الذكي اعتمادا على سرعة فهمه وقدرته على استيعاب ما تحمله الألفاظ القليلة من المعاني الكثيرة، وكذلك الشأن بالنسبة لأسلوب الإطناب، فبلاغته تستلزم الإسهاب بالشرح والإيضاح، إما طلبا لتمكين المخاطب من الفهم إن كان غبيا، وإما لتنزيله منزلة قصار العقول إن كان قد تجاوز الحد في المكابرة والعناد.

أمَّا الأمرُ الثاني الذي يبحث فيه علم المعاني فهو دراسة ما يستفاد من الكلام ضمنا بمعونة القرائن. فالكلام يفيد بأصل وضعه معنى نطلق عليه المعنى الحقيقي أو الأصلي، ولكنه قد يخرج أحيانا عن المعنى الذي وضع له أصلا ليؤدي إلينا معنى جديدا يفهم من السياق وترشد إليه الحال التي قيل فيها. فالغرض مثلا من إلقاء الخبر إلى المخاطب في أصل الوضع هو، إمّا إفادته الحكم الذي تضمنه الخبر، وإمّا إفادته أن المتكلم عالم بالحكم. كقولك: «كان عمر بن عبد العزيز لا يأخذ من بيت المال شيئا»، وكقولك: «لقد كنت في مطار بيروت أمس». ففي المثال الأول تريد إفادة السامع بما لم يكن يعرفه عن عمر بن عبد العزيز من الفقه والزهد في مال المسلمين. وفي المثال الثاني لا تريد إفادة السامع مضمون الكلام لأن ذلك معلوم له قبل أن تعلمه أنت، فالسامع في هذه الحال لم يستفد علما بالخبر نفسه، وإنما استفاد أنك عالم به. ذلك هو الغرض من إلقاء الخبر في أصل الوضع، إما إفادة المخاطب بالحكم، وإما إفادته أن المتكلم

عالم به. ولكن الخبر قد يخرج عن هذين المعنيين ليؤدي إلينا معنى جديدا يفهم من السياق. وكذلك الشأن بالنسبة لأساليب الأمر والنهي والاستفهام والتمني والنداء، فقد يخرج كل منها عن معناه الأصلي لغرض بلاغي بديع، أراده المتكلم من الخروج عما يقتضيه ظاهر الكلام، كالخروج بالأمر عن أصل وضعه مثلا لإفادة التعجيز، وبالنهي لإفادة الدعاء، وبالاستفهام لإفادة التعجب.

- أبوابه: ينحصر علم المعاني في أبواب ثمانية :

١- أحوال الإسناد الخبري.

٢- أحوال المسند إليه.

٣- أحوال المسند.

٤- أحوال متعلقات الفعل.

٥- القصر.

٦- الإنشاء.

٧- الفصل والوصل.

٨- الإيجاز والإطناب والمساواة[1].

وسبب انحصار علم المعاني في هذه الأبواب الثمانية: أن الكلام قسمان: خبر وإنشاء:

فالخبر:

---

١ ينظر م.ن:٢٣. وينظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها:٢٧٩/٣.

ما يحتمل الصدق والكذب لذاته، أي بقطع النظر عن الذي ينطق بالخبر سواء أكان مقطوعة بصدقه أم كذبه، وبقطع النظر عن الواقع: كالسماء فوقنا والأرض تحتنا، فهذه بديهات لا يشك أحد في صدقها، ولكننا نعدها خبرًا بالنظر إلى الكلام نفسه، دون النظر لشيء آخر.

فالعبرة بالكلام نفسه، إذا احتمل الصدق والكذب، أمكن أن يقال لقائله: إنه صادق فيه أو كاذب، ويسمى خبرًا، مثل: المال نعمة، والسفر مفيد، فهذا كلام يحتمل الصدق والكذب؛ لأن المال ربما كان نعمة، وربما كان نقمة، والسفر ربما كان مفيدة، وربما كان ضارا، فالقطع بصدق هذا القول، أو كذبه أمر غير محقق.

والإنشاء:

ما لا يحتمل الصدق والكذب لذاته، ولا يصح أن يقال لقائله: إنه صادق في قوله أو كاذب، كقولك: أنصت إلى الدرس، ولا تتدخل فيما لا يعنيك؛ فالأمر بالإنصات، والنهي عن التدخل في غير ما يعنيك، لا يحتمل صدقًا ولا كذبًا؛ لأنه لا يفيدنا حصول شيء، أو عدم حصول هذا الشيء، وإنما هو يأمر فقط، أو ينهى فحسب.

والخبر لا بد له من مسند إليه، ومسند، وإسناد، مثل: مُحَمَّد مسافر، فمحمد مسند إليه، ومسافر مسند، ونسبة السفر إلى مُحَمَّد هي الإسناد،

والمسند قد يكون فعلا، فتأتي له متعلقات، مثل: محمد يأكل، فإذا وضعنا معه ما يتعلق به كالمفعول، قلنا: محمد يأكل طعامه، أو يشرب دواءه، فأحوال المسند إليه والمسند ومتعلقات الفعل، بالإضافة إلى الخبر والإنشاء خمسة أبواب.

والإسناد قد يأتي بقصر، وأحيانا بغير قصر، مثل: ما المريض إلا نائم، والمريض نائم، وهذا هو الباب السادس.

والجملة إذا اقترنت بجملة أخرى، فالثانية إما أن تكون معطوفة على الجملة الأولى، أو غير معطوفة، فهذا هو الفصل والوصل، ومثال الفصل: قوله تعالى: (أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ)[١]. ومثال الوصل: كقول أعرابي للرسول – ﷺ –: "أعطني يا محمد، فقال: "لا، واستغفر الله"، والفصل والوصل هو الباب السابع.

وإما أن يكون الكلام زائدا لفائدة، أو ناقصًا لفائدة، أو غير زائد ولا ناقص. وهو الإطناب والإيجاز والمساواة، وهذا هو الباب الثامن والأخير.

---

١ سورة الشعراء الآيتان (١٣٢ ، ١٣٣)

المبحث الأول: الخبر

تعريف الخبر: الخبر: كلامٌ يحتملُ الصدقَ والكذبَ لذاتهِ، وإن شئتَ فقل: «الخبرُ هو ما يتحقّقُ مدلولهُ في الخارجِ بدون النطقِ به» نحو: العلمُ نافعٌ. فقد أثبتنا صفةَ النفعِ للعلم، وتلكَ الصفةُ ثابتةٌ له، سواءٌ تلفظتَ بالجملةِ السابقة أمْ لم تتلفظْ؛ لأنَّ نفعَ العلمِ أمرٌ حاصلٌ في الحقيقةِ والواقعِ، وإنما أنتَ تحكي ما اتفقَ عليه الناسُ قاطبةً، وقضَتْ به الشرائعُ، وهديتْ إليه العقولُ، بدونِ نظرٍ إلى إثباتٍ جديدٍ.

والمرادُ بصدقِ الخبر: مُطابقتُه للواقعِ ونفسِ الأمر، والمرادُ بكذبِهِ: عدمُ مطابقتهِ له، فجملةُ: العلمُ نافعٌ – إن كانتْ نسبتُه الكلاميَّةُ (وهي ثبوتُ النفعِ المفهومةِ من تلك الجملةِ) مطابقةً للنسبةِ الخارجيّةِ – أي موافقةً لما في الخارجِ والواقعِ «فصدْقٌ» وإلا «فكذِبٌ»، نحو: «الجهلُ نافعٌ»، فنسبتهُ الكلاميةُ ليستْ مطابقةً وموافقةً للنسبةِ الخارجيةِ.

أضربُ الخبر

يُراد بالبحث في هذا الموضوع دراسة الخبر من حيث التوكيد وخلافه[١]؛ وذلك لأنَّ الخبر – أيًّا كان غرضُهُ– لا يأتي على ضرب واحد من القول؛ ومن مزايا اللغة العربية دقة التعبير واختلاف الأساليب، بتنوع الأغراض والمقاصد، ومن الخطل عدمُ مراعاة تلك الأمور؛ فالبلاغة: مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وينبغي لصاحب الخبر أن يراعي ذلك، ويضعه في اعتباره عند صياغة كلامه؛

١ خصائص التراكيب دراسة تحليليَّة لمسائل علم المعاني، د/ مُحَّد مُحَّد أبو موسى، القاهرة، مكتبة وهبة، ط٩، ١٤٣٥هـ– ٢٠١٤م، ص١١٦.

وذلك كي يكون كلامُهُ بليغًا، مناسبًا لمقامه. فينبغي "أن يكون المتكلم عالمًا بأحوال المخاطبين، خبيرًا بما في نفوسهم وما يجول في خواطرهم ويتردد في أذهانهم، وأن يلقي إليهم كلامه ملائمًا لتلك الأحوال"[1].

والمراد بالتأكيد في هذا الباب تأكيد الحكم، لا تأكيد المسند إليه، ولا تأكيد المسند، وكما يكونُ التأكيد وعدمه في الإثباتِ، يكون في النفي أيضًا.

وكما راعى البلاغيُّون في أسباب وأغراض خروج الكلام حالَيْ المخاطب والمتكلم، راعوهما أيضًا في هيئة وكيفية تركيب الكلام وصوره؛ فقد درسوا الأشكال التي يأتي عليها الكلام، وفقًا لحال المخاطب، ووفقًا –كذلك– لاعتبارات يفترضها المتكلم في حال مخاطبه؛ لأنه يراها أنسب وأليق بالمقام. ولم تقتصر دراساتهم وتحليلاتهم على تلك الأمور فحسب؛ بل نظروا –كذلك– لحال مُنشئ الكلام وصانعه، وأحواله وهو ينشئُ كلامه. فجاءت دراستهم كالتَّالي:

أوَّلًا– التوكيد بالنَّظر إلى حالِ المُخاطبِ:

أ– خروجُ (مَجِيْءُ) الكلامِ على مُقْتَضَى الظَّاهِرِ

علم المعاني – كما سبق وذكرنا– معنيٌّ بإرسال الكلام إلى المخاطب بما يضمن مطابقة الكلام لمقتضى حال السامع؛ ولأنَّ الغرضُ من الكلام الإفصاحَ

---

[1] علم المعاني، د/بسيوني فيود، ج١، ص٤٨.

والإظهارَ، لذا يجبُ أن يكونَ المتكلمُ مع المخاطَبِ كالطبيبِ مع المريضِ، يشخِّصُ حالتَهُ، ويعطيهِ ما يناسبُها، فحقُّ الكلامِ أن يكونَ بقدرِ الحاجةِ، لا زائداً عنها، لِئلا يكونَ عبثاً، ولا ناقصاً عنها، لئلا يُخِلَّ بالغرضِ، وهو: الإفصاحُ والبيانُ؛ وذلك لأنَّ للجملة الخبريَّة معنى يحدده تركيبها، فإذا أطلقت خالية من أي تأكيد كان لها دلالة، وإن أكدت بمؤكد واحد أو أكثر كانت لها دلالة أخرى.

وقد ذكر البلاغيُّون أنَّ المخاطب الذي يتلقى الخبر تعتريهِ ثلاثةُ أحوالٍ؛ لذا تختلفُ صورُ الخبرِ في أساليب اللغةِ باختلافِ أحوالِ المخاطبِ الذي يعتريهِ ثلاثةُ أحوالٍ:

أولا – أنْ يكونَ المخاطبُ خاليَ الذهنِ من الخبرِ، غيرَ مترددٍ فيه ولا منكرٍ له – وفي هذه الحالِ لا يؤكدُ له الكلامُ، لعدم الحاجةِ إلى التوكيد نحو قوله تعالى: «الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا»[1]، ويسمَّى هذا الضربُ من الخبرِ (ابتدائياً)، ويستعملُ هذا الضربُ حين يكون المخاطبُ خاليَ الذهنِ من مدلولِ الخبرِ ، فيتمكنُ فيه لمصادفتهِ إياهُ خاليًا. الأصل في الجملة الخبرية أن يؤتى بها خالية من المؤكدات، حين لا يكون حال المخاطب يستدعي تأكيد الخبر له، وذلك: إذا كان خالي الذهن، ليس في نفسه شك أو إحجام عن قبول الخبر. ويمكن أن

---

١ الكهف:٤٦.

نعرف الخبر الابتدائي بأنه الخبر الذي يكون خاليا من المؤكدات؛ لأنه موجه إلى مخاطب خالي الذهن، غير متردد ولا منكر للحكم الذي تضمنه، ومن ذلك قوله تعالى: (قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا)[1]، وقوله تعالى: (وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ)[2].

ثانيًا– أنْ يكونَ المخاطبُ مترددًا في الخبرِ: طالبًا الوصولَ لمعرفتهِ، والوقوفَ على حقيقته، فيستحسنُ تأكيدُ الكلامِ المُلقَى إليه تقويةً للحُكم؛ ليتمكَّنَ من نفسهِ، ويطرحَ الخلافَ وراء ظهرهِ، نحو: إنَّ الأميرَ منتصرٌ، ويسمَّى هذا الضربُ من الخبرِ (طلبيًّا) ويؤتَى بالخبرِ من هذا الضربِ حين يكونُ المخاطبُ شاكًّا في مدلولِ الخبرِ، طالباً التثبُّتَ من صدقهِ.

فحين يكون لدى المخاطب شك في الخبر أو تردد في قبوله فحاله تكون حال السائل عن صحة الخبر، فيحسن تأكيد الكلام الملقى إليه بما يؤكد صحة مضمون الخبر له؛ ليتمكن مضمون الخبر في نفسه، ويمكن أن نعرف الخبر الطلبي بأنه الخبر الذي يكون موجها لمخاطب متردد في قبول مضمون الخبر؛ ولذا يحسن تأكيد الكلام له بما يؤكد صحة الخبر. أو كما قال السكاكي: "إذا ألقاها إلى طالب لها متحير طرفاها عنده دون الاستناد، فهو منه بين بين لينقذه

---

١ سورة الأنبياء : الآية (٦٣)

٢ سورة النور ٤٧

من ورطه الحيرة: استحسن تقوية المنقذ بإدخال اللام في الجملة و"إن"[١]. ومن ذلك قوله تعالى: (وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ)[٢]. وقوله تعالى: (إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا)[٣].

ثالثًا– أنْ يكونَ المخاطَبُ منكراً للخبرِ الذي يرادُ إلقاؤهُ إليه، معتقداً خلافَهُ، فيجبُ تأكيدُ الكلامِ له بمؤكدٍ أو مؤكدينِ أو أكثرَ، على حسبِ حالهِ من الإنكارِ، قوةً وضعفًا، نحو: إنَّ أخاك قادمٌ – أو إنهُ لقادمٌ – أو واللهِ إنه لقادمٌ، أو لعمري إنَّ الحقَ يعلو ولا يُعلَى عليهِ. وكقوله تعالى:{ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى}، وكقوله تعالى عن النبي يعقوب عليه السلام : { وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ}، ويسمَّى هذا الضربُ من الخبر (إنكارياً)، ويؤتَى بالخبرِ من هذا الضربِ حين يكونُ المخاطَبُ مُنكراً، واعلمْ أنهُ كما يكونُ التأكيد في الإثباتِ، يكون في النفي أيضاً، نحو: ما المقتصدُ بمفتقرٍ، ونحو: واللهِ ما المُستشيرُ بنادمٍ.

فحين يصل المخاطب إلى حالة الإنكار ورفض قبول الخبر واعتقاد خلاف مضمونه، يكون من بلاغة الكلام وجوب اقترانه بالمؤكدات التي تلائم حالة الإنكار والرفض في نفس المخاطب ضعفا وشدة على حسب حاله من

---

١ مفتاح العلوم ص ٦١

٢ سورة القصص : الآية ٢٠

٣ سورة يوسف : الآية : (٨)

الإنكار، ويمكن تعريف الخبر الإنكاري بأنه الخبر الذي يكون موجها لمخاطب منكر لمضمون الخبر، معتقدا خلافه ولذا يتوجب تأكيد الكلام له بمؤكدات على حسب حاله من الإنكار. أو هو الخبر الذي ينكره المخاطب إنكارا يحتاج إلى أن يؤكد بأكثر من مؤكد. ففي قوله تعالى: (وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ)[١]؛ حيث قال أولًا: "إنا إليكم مرسلون"، وقال ثانيًا: "إنا إليكم لمرسلون" حينما ازداد إنكارهم ولذلك أمده بـ (إن) أولاً و بـ (إن) واللام ثانيًا ليزيل منهم ذلك الشك والإنكار، ومنه قوله تعالى: (إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ)[٢].

مؤكدات الخبر

للخبر مؤكدات كثيرة، أشهرها: إنَّ، وأنَّ، ولام الابتداءِ، وأحرفَ التنبيه، والقسمِ، ونونا التوكيد، والحروفَ الزائدة (كتفعل واستفعل) والتكرارَ، وقدْ، وأمَّا الشرطيةُ، وإنما واسميةُ الجملةِ، وضميرَ الفصل، وتقديمَ الفاعل المعنويّ.

١ سورة يس : الآيات (١٣ : ١٦)

٢ سورة الصافات : الآية : (٣٨)

١ـ «إنّ»المكسورة الهمزة المشددة النون: **وهذه هي التي تنصب الاسم وترفع الخبر، ووظيفتها أو فائدتها التأكيد لمضمون الجملة أو الخبر، فإن قول القائل: «إن الحياة جهاد» ناب مناب تكرير الجملة مرتين، إلّا أن قولك: «إن الحياة جهاد» أوجز من قولك: «الحياة جهاد، الحياة جهاد» مع حصول الغرض من التأكيد. فإن أدخلت اللام وقلت: «إن الحياة لجهاد» ازداد معنى التأكيد، وكأنه بمنزلة تكرار الجملة ثلاث مرات. ومن أمثلتها من القرآن الكريم: قول الله تعالى: "يأأيها الناس إنَّ وعدَ الله حقٌّ"[1]، ومن أحاديث الرسول: «إن المنبتّ لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى»، وقوله: «إنما الشعر كلام مؤلف فما وافق الحق منه فهو حسن، وما لم يوافق الحق منه، فلا خير فيه». ومن الشعر:**

إنّ التي زعمت فؤادك ملّها ... خلقت هواك كما خلقت هوى لها

٢ـ «أنَّ»: **وهي التي تنصب الاسم وترفع الخبر، كقوله تعالى: "قل إنَّما يوحى إليَّ أنَّما إلهكم إلهٌ واحدٌ"[2]، وقوله: "فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم، ومن أضلُّ ممن اتبع هواه بغير هدى من الله، إنَّ الله لا يهدي القوم الظالمين"[3]. ولم يُعِدُّ بعضُهُم "أنَّ" من المؤكدات؛ لأن ما بعدها في**

---

١ فاطر ٥.

٢ الأنبياء ١٠٨.

٣ القصص ٥٠.

حكم المفرد، والتأكيد المقصود هو تأكيد النسبة لا المسند ولا المسند إليه، لكنَّ ابنَ هشامٍ يقول: "أن تكون حرف توكيد تنصب الاسم، وترفع الخبر، والأصحُّ أنَّها فرعٌ عن "إنَّ" المكسورة"[1].

٣- «كأنَّ»: وفيها التشبيه المؤكد إن كانت بسيطة، وإن كانت مركبة من "كاف التشبيه وأنَّ"؛ فهي متضمنة؛ لأنَّ فيها ما سبق وزيادة، كقوله تعالى: "وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون: وي كأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أنْ منَّ الله علينا لخسف بنا، وي كأنه لا يفلح الكافرون"[2].

٤- «لكنَّ»: لتأكيد الجمل، وقيل: للتأكيد مع الاستدراك، وقيل: إنَّها للتوكيد دائمًا، مثل "إنَّ"[3]، ومنه قوله تعالى: "إنَّك لا تهدي مَن أحببت، ولكنَّ الله يهدي مَن يشاء وهو أعلم بالمهتدين"[4]. وقول المتنبي:

فلا تعجبا إنَّ السيوفَ كثيرةٌ ولكنَّ سيف الدوةِ اليومَ واحدُ

٥- «لام الابتداء»: وفائدتها توكيد مضمون حكم الجملة، وسميت بذلك لأنها في الأصل تدخل على المبتدأ، أو لأنها تقع في ابتداء الكلام ، نحو: لأنت

---

١ مغني اللبيب، ج١، ص٣٩.

٢ القصص ٨٢.

٣ مغني اللبيب، ج١، ص٢٩١. والبرهان في علوم القرآن، ج٢، ص٤٠٨.

٤ القصص ٥٦.

خير من عرفت. وتسمى(لام التوكيد) أيضا، ومتى ما دخلت عليها (إنّ) زحلقوها إلى الخبر؛ ؛ وذلك لأنها تفيد تأكيد مضمون الجمة، ولهذا زحلقوها في باب "إنَّ" عن صدر الجملة؛ كراهية اجتماع مؤكدين في صدر الجملة فتسمى بـ(اللام المزحلقة) ومن أمثلتها: قوله تعالى: إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعاءِ[1]، وقوله تعالى (لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ) الحشر:١٣. وقوله تعالى: (وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) البقرة:٢٢١ وعلى المضارع الواقع خبرا لإن لشبهه بالاسم، نحو قوله تعالى: "وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ"، وعلى شبه الجملة، نحو قوله تعالى: (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) القلم:٤، وقوله تعالى: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى) النازعات:٢٦.

٦ـ حروف التنبيه: ومنها (أَلا وأَما) بفتح الهمزة والتخفيف:يستفتح بهما الكلام، وتفيدان تنبيه السامع إلى ما يلقى إليه من الكلام، وتفيد(ألا) مع التنبيه تحقق ما بعدها ومن أمثلتها: وذلك نحو قول الله تعالى: "ألا إنَّهم هم

---

١ إبراهيم ٣٩.

المفسدون"[١]. ونحو قوله تعالى: "أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ"[٢]. ومنه قول المعري:

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل	عفافٌ وإقدامٌ ومجدٌ ونائل

فـ «ألا» حرف استفتاح، وتسمى "ألا الاستفتاحية" قد تزاد للتنبيه، وعندئذ تدل على تحقق ما بعدها، ومن هنا تأتي دلالتها على معنى التأكيد.

و«أما» حرف استفتاح وهي بمنزلة «ألا» في دلالتها على تحقق ما بعدها تأكيدا، ويكثر مجيئها قبل القسم، لتنبيه المخاطب على استماع القسم وتحقيق المقسم عليه، نحو قول أبي صخر الهذلي:

أما والذي أبكى وأضحك والذي ... أمات وأحيا والذي أمره الأمر

لقد تركتني أحسد الوحش أن أرى ... أليفين منها لا يروعهما النفر

٧- القسم: وهو عند النحاة جملة يؤكد بها الخبر؛ حتى أنهم جعلوا قوله تعالى: "والله يشهد إنَّ المنافقين لكاذبون"[٣]، قسمًا وإن كان فيه إخبارٌ إلَّا أنَّه لما جاء توكيدًا للخبر سمي قسمًا[٤].

---

١ البقرة ١٢.

٢ يونس ٦٢.

٣ المنافقون ١.

٤ البرهان في علوم القرآن، ج٣، ص٤٠.

وأحرف القسم «الباء، والواو، والتاء». و«الباء»هي الأصل في أحرف القسم؛ لدخولها على كل مقسم به، سواء أكان اسما ظاهرا أو ضميرا،وحروفه: الباء، والواو، والتاء. ومثال القسم بالباء قول الشاعر:

باللَّهِ أقسم أن عُمرك ما انقضى   حتّى انقضى الإحسانُ والإجمالُ

و«الواو» تختص بالدخول على الاسم الظاهر دون الضمير، ومثال القسم بالواو قول الله تعالى: "والضحى والليل إذا سجى"[1]، وقوله تعالى: "والتين والزيتون، وطور سنين، وهذا البلد الأمين"[2]. ومنه قول ابن أبي ربيعة:

فوالله لا أدري وإن كنتُ داريًا   بسبعٍ رمين الجمرَ أم بثمانِ

ومنه قول الشاعر:

أَنا وَاللهَ لَم أَزَل فيهِ صِبا   وَبِهِ أَبتَغي مِن اللهَ قُربا

أما «التاء» فتختص بالدخول على اسم الله تعالى فقط، كقوله تعالى: "وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنامَكُمْ بعد أن تولوا مدبرين"[3]. وكقوله تعالى: "قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضًا أو تكون من الهالكين"[4]. ومثال التاء قول الشاعر:

---

١ الضحى ١، ٢.

٢ التين ١، ٣.

٣ الأنبياء٥٧.

٤ يوسف ٨٥.

تالله أقسم ما سمعت محامدا　　　إلا وأنت لهن أَول راقي

٨ـ نونا التوكيد: وهما نون التوكيد الثقيلة ،أي المشددة ونون التوكيد الخفيفة أي غير المشددة. وهما يدخلان على الأمر جوازا، وعلى المضارع بشروط، وقد اجتمعتا في قوله تعالى –حكاية عن لسان امرأة عزيز مصر في قصة يوسف – عليه السلام – :(قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آَمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَنْ مِنَ الصَّاغِرِينَ) يوسف: ٣٢.

٩ـ «لن»: ويؤتى بها لتأكيد النفي، كقول الله تعالى: "ولمَّا جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه، قال: ربِّ أرني أنظر إليك، قال: لن تراني، ولكن انظر إلى الجبل، فإن استقرَّ مكانه فسوف تراني"[١]. ومنه قول الطرماح:

لقد زادني حبًّا لنفسي أنني　　　بغيضٌ إلى كل امرئ غير طائل

وأني شقي باللئام ولن ترى　　　شقيًّا بهم إلا كريم الشمائل

١٠ـ الحروف الزائدة لتأكيد المعنى، وليس معنى زيادة هذه الحروف أنها قد تدخل لغير معنى البتة، بل زيادتها لضرب من التأكيد. وهذه الحروف هي:

١ الأعراف ١٤٣.

– إنْ: المكسورة الهمزة الساكنة النون: كقوله تعالى: (وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) الأحقاف ٢٦.

– أَنْ:المفتوحة الهمزة الساكنة النون: فهي تزاد توكيدا للكلام، وذلك بعد «لما» بتشديد الميم، نحو قوله تعالى: "فَلَمَّا أَنْ جاءَ الْبَشِيرُ أَلْقاهُ عَلى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا"[١]، والمراد فلما جاء البشير ... وكقوله تعالى (وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ)العنكبوت ٣٣.

– ما: فهي تزاد في الكلام لمجرد التأكيد، وهذا كثير في القرآن الكريم والشعر وسائر الكلام.كقوله تعالى: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)آل عمران :١٥٩.

– لا: وهي تزاد مؤكدة ملغاة، نحو قوله تعالى: "لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ"، فلا زائدة، والمعنى ليعلم أَهْلُ الْكِتابِ ...، كقوله تعالى : "فَلا أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ" الواقعة :٧٥.

---

١ سورة يوسف.

-(من): وتزاد توكيدا لعموم نفي ما بعدها في نحو: «ما جاءنا من أحد» فإن أحدا صيغة عموم، بمعنى ما جاني أي أحد. ولا تكون «من» زائدة للعموم إلا إذا تقدمها نفي أو نهي أو استفهام بـ«هل»؛ فالنفي، نحو قوله تعالى: "وَما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُها"[1]، وقوله تعالى: "ما تَرى فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ"[2]. وكقوله تعالى : (وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ) البقرة :١٠٢. والنهي: نحو: «لا تهمل من غذاء عقلك». والاستفهام نحو قول الله تعالى: "هَلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ؟" (الفطور: الخلل والتصدع). ونحو: هل من شاعر بينكم؟ و«من» هذه التي تزاد توكيدا لعموم ما بعدها نفيا كان أو نهيا أو استفهاما يكون الاسم الواقع بعدها إما فاعلا أو مفعولا أو مبتدأ كما في الأمثلة السابقة. ومنها قول زهير:

ومهما تكن عند امرئٍ من خليقةٍ وإن خالها تخفى على الله تعلم

-(الباء): » فمن استعمالاتها أن تزاد لتوكيد ما بعدها، وقد تزاد كثيرا في الخبر بعد «ليس وما» النافيتين، وعندئذ تكون زيادتها لتوكيد نفي ما بعدها، وذلك كقوله تعالى (وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ) الأنعام

١ الأنعام ٥٩.

٢ الملك ٣.

:١٣٢، وقوله تعالى أيضا: "فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ، لَسْتَ عَلَيْهِمْ بمسيطر". وكما في قوله تعالى: "وما أنا بظَلَّامٍ للعبيد"[1]. وقول معن ابن أوس:

ولست بماش ما حييت لمنكر ... من الأمر لا يمشي لمثله مثلي

فزيادة الباء هنا إنما هو لتأكيد معنى النفي؛ أي تأكيد نفي ما بعدها.

١١ـ «السين»: وهي حرف يختص بالمضارع ويخلصه للاستقبال، والسين إذا دخلت على فعل محبوب أو مكروه أفادت أنه واقع لا محالة، ووجه ذلك أنها تفيد الوعد أو الوعيد بحصول الفعل، فدخولها على ما يفيد الوعد أو الوعيد مقتض لتوكيده وتثبيت معناه. فهي في مثل قوله تعالى: "أُولئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ"[2]، مفيدة وجود الرحمة لا محالة، ولذلك فهي تؤكد هنا حصول فعل الوعد. كذلك هي في مثل قوله تعالى: "تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ، ما أَغْنى عَنْهُ مالُهُ وَما كَسَبَ، سَيَصْلى ناراً ذاتَ لَهَبٍ"[3]. تؤكد حصول فعل الوعيد الذي دخلت عليه وتثبّت معناه بأنه كائن لا محالة وإن تأخر إلى حين. كما في قولك: سأنتقمُ منك يومًا أي: أنَّك لا تفوتني وإن تبطأت[4]. ونحو قول الشاعر:

---

١ ق ٢٩.

٢ التوبة ٧١.

٣ سورة المسد، ١–٣.

٤ مغني اللبيب، ج١، ص١٣٨. والبرهان في علوم القرآن، ج٢، ص٤١٨.

سيعلمُ الجمعُ ممن ضمَّ مجلسه　　　بأنني خيرُ مَن تمشي به قدمُ

١٢ـ قد (التحقيقية) وهي حرف تحقيق، نحو قوله تعالى: "قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ"[١]، فهي في مثل هذه الجملة تفيد توكيد مضمونها؛ أي أن فلاح المؤمنين الخاشعين في صلاتهم حق ولا محالة حاصل. وكقول الله تعالى: "ومَن يعتصم بالله فقد هُدِيَ إلى صراطٍ مستقيم"[٢]، وكقول المقنع الكندي:

يعاتبني في الدَّيْنِ قومي وإنَّما　　　ديوني في أشياءَ تكسبهم حمدًا

أسدُّ به ما قد أخلُّوا وضيَّعوا　　　ثغور حقوقٍ ما أطاقوا لها سدًّا

١٣ـ أمّا الشرطية المفتوحة الهمزة المشددة الميم ،وهي حرف شرط وتفصيل وتوكيد، نحو قوله تعالى: "إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا ما بَعُوضَةً فَما فَوْقَها، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ، وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ ماذا أَرادَ اللَّهُ بِهذا مَثَلًا"[٣]. كقول الشاعر:

ولابد للإنسان من مركب به　　　فأمَّا على وعر وأمّا على سهل

وقول الآخر :

---

١ سورة المؤمنون، ١، ٢.

٢ آل عمران ١٠١.

٣ البقرة ٢٦.

ولا شك أن المرء في الدهر راحل   فأَمَّا إلى يسر وأمَّا إلى عسر

ونحو قول الشاعر:

ولم أر كالمعروف أما مذاقه ... فحلو وأما وجهه فجميل

وفائدة «أمَّا» في الكلام أنها تعطيه فضل توكيد وتقوية للحكم.

١٤ـ ضمير الفصل: وهو من مؤكدات الجملة، وهو عادة ضمير رفع منفصل، ويؤتى به للفصل، وهو ضمير قد يتوسط بين المبتدأ والخبر ، أو ما أصله مبتدأ وخبر ، وهو يفيد ضربا من التأكيد، كقوله تعالى : (وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا) الكهف ٣٩. بين الخبر والصفة، نحو: «محمَّد هو النبي» فلو لم نأت بالضمير «هو» وقلنا «محُمَّد النبي»؛ لاحتمل أن يكون «النبي» خبرا عن محُمَّد، وأن يكون صفة له، فلما أتينا بضمير الفصل «هو» تعين أن يكون «النبي» خبرا عن المبتدأ وليس صفة له. فضمير الفصل على هذا الأساس يزيل الاحتمال والإبهام من الجملة التي يدخل عليها، وبالتالي يفيد ضربا من التأكيد. ولهذا عدّ من أدوات توكيد الخبر. وقد نصَّ سيبويه على أنَّه يفيد التأكيد، وقال

في قول الله تعالى: "إنْ ترني أنا أقلّ منك مالًا وولدًا"[1]، إنَّ ضمير الفصل "أنا" وصفٌ للياء في "ترني" يزيد تأكيدًا[2].

================

ب- خُرُوْجُ الخبَرِ عن مُقْتَضَى الظَّاهِرِ

(مَجِيْءُ الكلامِ على خلاف مقتضى الظاهر)

ما سبق من أنماط وصور الخبر بتلك الطريقة المتدرجة على حسب جهل المخاطب بمضمون الخبر أو شكّه فيه أو إنكاره له هو ما يقتضيه ظاهر حال المخاطب، لكنَّها ليست جميع الأحوال والأنماط؛ إذ قد يجري الكلامُ على خلاف الظاهر من حال المخاطب، حيثُ نجد "أن المتكلم لا يعتد بهذا الواقع في صياغته، وإنما يجري على أمور اعتبارية تنزيلية يلحظها هو، ويعتبرها مقامات يصوغ عبارته على مقتضاها، فيخرج كلامه على اعتبارها، وذلك موطن دقيق، لا يهتدي إلى مواقعه الشريفة إلا ذكي النفس دقيق الحس واسع الخيال"[3]، ومنْ صور ذلك ما يأتي:

---

١ الكهف ٣٩.

٢ الكتاب، ج١، ص٣٩٥. وينظر: البرهان في علوم القرآن، ج٢، ص٤٠٩.

٣ خصائص التراكيب دراسة تحليليَّة لمسائل علم المعاني، د/ مُحَمَّد مُحَمَّد أبو موسى، القاهرة، مكتبة وهبة، ط٩، ١٤٣٥هـ- ٢٠١٤م، ص١٢٠.

١- تنزيلُ خالي الذهنِ منزلةَ السائلِ المترددِ، السائل الذي يطلب تأكيد الخبر له ،ويحصل ذلك في حالة شعور السامع من خلال مقدمات الكلام بما يشير إلى مضمون الخبر أو فحواه فتستشرف نفس السامع وتتطلع تطلع المستغرب المتردد في قبول الخبر فكأنه يطلب تأكيد الخبر، كقوله تعالى على لسان النبي يوسف عليه السلامُ: (وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي)، فمدخولُ إنَّ مؤكدُ لمضمونِ ما تقدَّمه، لإشعارهِ بالترددِ، فيما تضمنَهُ مدخولُها– وكقوله تعالى مخاطبا النبي نوح عليه السلامُ: «وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (٣٧)»[١]، لما أمرَ المولى «نوحاً عليه السلامُ»أوّلاً بصنعِ الفلك، ونهاهُ ثانياً عن مخاطبتهِ بالشفاعةِ فيهم، صارَ مع كونهِ غير سائلِ في مقام السائلِ المترددِ،هل حكَمَ اللهُ عليهم بالإغراقِ فأجيبَ بقوله تعالى: «إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ». وقوله تعالى: (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)[٢].

٢- تنزيلُ غيرِ المنُكِر منزلةَ المنكِر: إذا ظهرَ عليه شيءٌ من أماراتِ الإنكارِ، ينزل الشخص الذي لا ينكر الخبر منزلة من ينكره ،إذا ظهرت عليه بعض إمارات الإنكار، ومن أمثلة هذا النوع قوله تعالى: (ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ

---

١ هود :٣٦-٣٧.

٢ التوبة :١٠٣.

ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ) المؤمنون :١٥. فمسألة الموت ممن لا ينكرها احد ،ولا يشك فيها إنسان غير إن تمادي المخاطبين في الغفلة والإعراض عن العمل جعلت من المناسب إن يكون خطابهم خطاب من ينكر وقوع الموت فجاء تأكيد الكلام بأكثر من مؤكد ومن أمثلته الأخرى: قول كقول حَجَل بن نضلَة القيسيّ « من أولادِ عَمِّ شقيقٍ»:

جاءَ شقيقٌ عارضاً رُمْحَهُ ... إنّ بَني عمّكَ فيهم رِماحْ

(فشقيقٌ) رَجلٌ لا يُنكرُ رماحَ بني عمّه، ولكنَّ مجيئهُ على صورةِ المعجَبِ بشجاعتهِ، واضعاً رُمحَه على فخذيهِ بالعرضِ– وهو راكبٌ– أو حَاملاً له عرضاً على كتفهِ في جهةِ العدُوِّ بدون اكتراثهِ به، بمنزلةِ إنكارهِ أنَّ لبني عمّهِ رماحاً، ولنْ يجدَ منهم مُقاوماً له ،كأنهم كلَّهم في نظرهِ عُزَّلٌ، ليسَ مع أحد منهم رمحٌ. فأكَد له الكلامَ استهزاءً به، وخُوطبَ خطابَ التفاتٍ بعد غيبةٍ تهكُّماً به، ورمياً لهُ بالنزَّقِ وخرقِ الرَّأي. ومن أمثلة هذا النوعِ أيضا قول الشاعر:

تَرجو النَجاةَ وَلَم تَسلُك مَسالِكَها		إِنَّ السَفينَةَ لا تَجري عَلى اليَبَسِ

٣– تنزيلُ المنكرِ منزلةُ الخالي "غير المنكر"، إذا كانَ لديه دلائلُ وشواهدُ لو تأمَّلها لارتدعَ وزال إنكارُه، كقوله تعالى : (وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ)، إذ المعروف إن المخاطبين من الكفار ينكرون وحدانية الله فكان مقتضى حالهم إن يؤكد لهم الخبر، ولكن ورد بلا تأكيد تنزيلا

لهؤلاء المنكرين منزله غير المنكرين؛ لأن لديهم من الأدلة الواضحة والبراهين الساطعة على وحدانية الله ما يردعهم عن إنكارهم ويزيل جحودهم وضلالهم؛ لذا جاء خطابهم خاليا من المذكرات بناء على هذا التنزيل. وكقولكَ لمن ينكرُ منفعةَ الطبِّ (الطبُّ نافعٌ).

٤- تنزيلُ المترددِ منزلةُ الخالي، كقولكَ للمترددِ في قدومِ مسافرٍ معَ شهرته:قدِمَ الأميرُ.

٥- تنزيلُ المترددِ منزلةَ المنكرِ، كقولكَ للسائلِ المستبعِدِ لحصولِ الفرجِ: إنَّ الفرجَ لقريبٌ. ونحو قوله الله تعالى : {... أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ}.

نمـــوذجٌ

بينْ وجهَ خروجِ الخبر عن مقتضى الظاهر فيما يأتي:

(١) قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ} (١) سورة الحج .

(٢) إنَّ برَّ الْوَالدَيْن لواجبٌ (تقوله لمنْ لا يطِيع والديه).

(٣)إن الله لمُطلّعٌ على أفعال العبادِ (تقوله لمنْ يظلم الناس بغير حقٍّ).

(٤) الله موجودٌ (تقول ذلك لمنْ ينكر وجود الإله)

الإِجابةُ:

(١) الظاهر في المثال الأول يقتضي أَن يُلقى الخبر خالياً من التوكيد، لأن المخاطَب خالي الذهن من الحكم ولكن لما تقدم في الكلام ما يشعر بنوعِ الحكم أصبح المخاطب متطلعاً إِليه، فنزِّلَ منزلةَ السائل المتردد و استُحسن إِلقاءَ الكلام إِليه مؤكدًا جرياً على خلاف مقتضى الظاهر.

(٢) مقتضَى الظاهرُ أَن يُلقى الخبر غير مؤكد، لأَن المخاطب هنا لا ينكر أن بر الوالدين واجب ولا يتردد في ذلك، ولكن عصيانه أمارة من أمارات الإِنكار، فلذلك نزِّل منزلة المنكر.

(٣) الظاهر هنا يقتضي إلقاء الخبر غير مؤكد أَيضاً، لأَن المخاطب لا يُنكِرُ الحكم ولا يترددُ فيه ولكنه نزِّل منزلة المنكر، وألقى إليه الخبر مؤكدًا لظهور إمارات الإِنكار عليه وهي ظلمه العباد بغير حق.

(٤) الظاهر هنا يقتضي التوكيد لأَن المخاطب يَجْحد وجود الله، ولكن لمَا كان بين يديه من الدلائل والشواهد ما لو تأمله لارتدع عن الإِنكار، جعل كغير المنكر. ألقى إليه خالياً من التوكيد جرياً على خلاف مقتضَى الظاهر.

ثانيًا– بالنظر إلى حال المتكلّم

ما سبق من أنماط وصور وأضرب الخبر في الحالتين التحقيقية والاعتبارية كانت بالنظر إلى أحوال المخاطبِ، أي أن المتكلم فيها يكون ناظرًا إلى حال مخاطبه، ويصوغ عبارته على أساس ما يقتضيه حاله الحقيقي أو الاعتباري من التوكيد وعدمه، ولا يعني هذا بحال أن البلاغيين بذلك قد غفلوا حال المتكلم نفسه وأنهم قصروا البحث في توكيد الخبر ودواعي توكيده على حال المخاطب فقط، فقد يكون الداعي إلى توكيد الخبر هو حال المتكلم نفسه ومدى انفعاله بالحكم الذي يقرره في كلامه، كما يكون حاله أيضًا داعيًا إلى خلو الكلام من التوكيد.

ف"هناك ضروب من التوكيد لا ينظر فيها إلى حال المخاطب، وإنما ينظر فيها المتكلم إلى حال نفسه، ومدى انفعاله بهذه الحقائق، وحرصه على إذاعتها، وتقريرها في النفوس كما أحسها مقررة أكيدة في نفسه، وهذا اللون كثير جدا وله مذاقات حسنة"[١].

أي أنَّ حال المتكلم مأخوذٌ في الاعتبار أيضًا؛ فهو الذي يصوغ الكلام بعد تأثر وانفعال، فتنعكس حالته النفسية ومشاعره المختلفة على الخبر الذي هو صدى لعالمه النفسي وما يجيش به من عواطف، والشاعر عندما يعبر عن تجربته الشعرية، فإن عبارته تأتي ترجمة أمينة لمعاناته النفسية ووصفًا دقيقًا

١ خصائص التراكيب دراسة تحليليَّة لمسائل علم المعاني، د/ مُحَمَّد مُحَمَّد أبو موسى، القاهرة، مكتبة وهبة، ط٩، ١٤٣٥هـ- ٢٠١٤م، ص١٢٧-١٣٦.

لخلجات وجدانه، فهو تارة يؤكد الكلام وينظمه مقررًا كما أحسه وكما امتلأت به نفسه حرصًا منه على إذاعته وتقريره في النفوس، وتارة يرسل الكلام إرسالًا؛ إذ لا يقتضي المقام تقريرًا وتثبيتًا، وهذا الأمر واضح في الشعر العربي، في استطاعة القارئ المتأمل أن يقف على الكثير من هذه المواضع، ومنها:

١- أن ينظر المتكلِّم "إلى حال نفسه، ومدى انفعاله بهذه الحقائق، وحرصه على إذاعتها، وتقريرها في النفوس كما أحسها مقررة أكيدة في نفسه، وهذا اللون كثير جدا وله مذاقات حسنة: فالخنساء حين ترثي صخرًا فتقول:

وإن صخرًا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه إنار

لم تكن معنية بالرد على منكر أو متردد، ولكنها تعبر عن مأساتها الفاجعة في فقد أخيها، والآلام التي تعانيها وتصطلي بنارها، ولذلك نجد أنها صاغت المعنى مؤكدًا كما أحسته، وكما امتلأت به نفسها، ومن هنا جاء كلامها معبرًا أصدق تعبير عن عاطفتها الحزينة، وهذا من الوضوح بمكان، وهو شائع في رثائها لأخيها صخر.

٢- وقد يكون داعي التوكيد هو رغبة المتكلم في تقوية مضمون الكلام عند المخاطب، وتقريره في نفسه، وإن كان غير منكر له، ولا متردد فيه: كقوله -تعالى- في مخاطبة النبي -ﷺ-: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ

تَنْزِيلًا}[1]، وقوله: {إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي}[2]، وقوله: {وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ، وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ}[3]، فالمخاطب، وهو النبي –صلى الله عليه وسلم– لا يشك في شيء من ذلك، وليس في نفسه إثارة شك في هذا، ولكن التوكيد يهدف إلى زيادة تقرير المعنى في نفسه–ﷺ– حتى يبلغ به عين اليقين، وفي ذلك تثبيت لفؤاده حتى ينهض بأعباء الدعوة إلى الله في يقين راسخ، وفي ذلك ما فيه من الإيناس والتلطف في مخاطبة هؤلاء الرسل الذين هم صفوة خلق الله جميعًا. وفيه تعهد الإيمان الراسخ في يقينه –صلى الله عليه وسلم–. حتى ينهض بأثقال الدعوة، وهذا توجيه واضح لحملة الرسالة من بعده –ﷺ، وأنهم في حاجة مستمرة إلى أن يعودوا إلى دواخل نفوسهم يزكون إيمانهم، ويطهرون يقينهم مما قد يعلق به من عوائد الجاهلية؛ لتظل قلوبهم نبعًا طاهرًا يمدهم بالثبات، والإيمان في المواجهات العنيدة بينهم، وبين ضلالات العصور، وظلمات المادة. ، كقوله تعالى في مخاطبة موسى –عليه السلام: {إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي

---

١ الإنسان: ٢٣.

٢ طه: ١٤.

٣ الشعراء: ١٩١–١٩٢.

الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى*إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي}[1].

٣- "وقد يكون التوكيد لتحقيق الوعد، أو مقام الوعيد: كما في قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا}[2]، وقوله: {إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ}[3]، وقوله: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ}[4]، ومثله كثير جدًّا، ومقام الوعد من مقامات التوكيد لتزداد النفوس به يقينا واطمئنانًا، ومثله مقام الوعيد كما في قوله تعالى: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ}[5]"[6].

٤- وقد يكون التوكيد للإشارة إلى أن الذي كان لم يكن على وفق ظن المتكلم، فكأن نفس المتكلم تنكره فيؤكده لها(أي الإشارة إلى مجيء الخبر على خلاف ظن المتكلم، فكأن نفس المتكلم تستبعد الخبر وتنكره،

---

١ (طه: ١٢-١٤).

٢ الحج: ٣٨.

٣ الأنبياء: ١٠١.

٤ الحج: ٣٩.

٥ الأنبياء: ٩٨.

٦ خصائص التراكيب دراسة تحليليَّة لمسائل علم المعاني، د/ مُحَمَّد مُحَمَّد أبو موسى، القاهرة، مكتبة وهبة، ط٩، ١٤٣٥هـ- ٢٠١٤م، ص١٣٣.

فيؤكده لها)، ومثاله قوله تعالى: {قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ}[1]، قال عبد القاهر: قد تدخل كلمة إن للدلالة على أن الظن كان من المتكلم في الذي كان أنه لا يكون، كقولك للشيء وهو بمرأى، ومسمع من المخاطب: إنه كان من الأمر ما ترى وأحسنت إلى فلان، ثم إنه فعل جزائي ما ترى، وعليه: {رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى}[2]، {رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ}"[3].

٥- وقد يكون التوكيد لغرابة الخبر في ذاته، وحرص المتكلم على أن يؤنس به نفس المخاطب، وإن كانت لا تنكره، وإنما هي في حاجة إلى ما يهيئها لقبوله، ومنه قوله تعالى: {فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}[4]، فقد أكد أني أنا الله رب العالمين ليؤنس نفس موسى عليه السلام بالخبر، ويحبط ما عساه يعلق بالنفس في مثل هذا الموقف، فقد انطلق عليه السلام ليأتي أهله بخبر، أو جذوة من النار لعلهم يصطلون، وبينما هو

---

١ الشعراء: ١١٧.

٢ آل عمران: ٣٦.

٣ خصائص التراكيب دراسة تحليليَّة لمسائل علم المعاني، د/ مُحَمَّد مُحَمَّد أبو موسى، القاهرة، مكتبة وهبة، ط٩، ١٤٣٥هـ- ٢٠١٤م، ص١٣٣، ١٣٤.

٤ القصص: ٣٠.

ذاهب إلى هذا الغرض، فجأه نداء الحق سبحانه من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة، وهذا موقف غريب فاحتاج إلى التوكيد.

٦- فقد يكون الداعي إلى التوكيد غرابة الخبر في ذاته، فيلجأ المتكلم إلى التوكيد ليزيل من نفس السامع ما قد يعلق بها من وحشة أو استغراب، ويهيئه لقبول الخبر والاطمئنان به، كقوله تعالى يخاطب موسى –عليه السلام– حين أوجس في نفسه خيفة من أفاعيل السحرة: {قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى} (طه: ٦٨) فموسى –عليه السلام– واثق تمام الثقة في وعد ربه بالإظهار والتأييد، ولا يخالجه في ذلك أدنى شك، ولكنه لما رأى كيد السحرة أحس في نفسه بشيء من الدهشة والخوف، فكان الرد الإلهي {إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى} مؤكدًا بإن وضمير الفصل واسمية الجملة، وذلك ليزيل من نفسه وحشة الشعور في هذا الموقف العصيب. ومنه قوله تعالى: {فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} (القصص: ٣٠).

٧- "وقد يكون التوكيد إظهارًا لمعتقد النفس، وإبرازًا له لتزداد النفس يقينا به؛ لأن مقامها يقتضي ذلك: ومثله قوله تعالى: {الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ

مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}[١]، فإن المصيبة قد تقلق النفس وتهز اليقين، وعندئذ تلوذ النفس المؤمن بكينونتها لله ورجعتها إليه، فتعلن ذلك وتؤكده لتثبت في مواجهة الشدة"[٢].

٨- "وقد يأتي التوكيد في الجمل التي كأنها نتائج لمقدمات، فيلفت التوكيد إلى هذه الجمل، وكأنها هي المقصودة الأهم وموضع العناية: اقرأ قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ، ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ}[٣].

تمرينـــاتٌ

---

١ البقرة: ١٥٦.

٢ خصائص التراكيب دراسة تحليليَّة لمسائل علم المعاني، د/ مُحَمَّد مُحَمَّد أبو موسى، القاهرة، مكتبة وهبة، ط٩، ١٤٣٥هـ- ٢٠١٤م، ص١٣٤.

٣ الحج: ٥-٧.

- بين وجه خروج الخبر عن مقتضى الظاهر في كل مثال من الأمثلة الآتية:

(١) قال تعالى: {..وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ} (١٠٣) سورة التوبة.

(٢) و قال:{ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) [الإخلاص/١، ٢] }.

(٣) إِنَّ الفراغ لَمَفْسدةٌ (تقوله لمنْ يعرفُ ذلك ولكنه يَكره العمَلَ).

(٤) العلم نافعٌ (تقول ذلك لمن ينكر فائدة العلوم).

(٥) قال أبو الطيب:

تَرَفَّقْ أيّهَا المَوْلى عَلَيهِمْ   فإنّ الرّفْقَ بِالجاني عِتَابُ

أغراض الخبر

عندما يلقى الخبر على مسامع المخاطبين لابد أن يكون ثمة مقاصد وأغراض من وراء إلقائه وهذه الأغراض قد تكون أصلية أو مجازية:

- الأغراض الأصلية: وهي الأغراض التي يتم التعامل بها في الحياة اليومية، فهي أغراض حقيقية تداولية وهي عبارة عن غرضين أصليين؛ لأن المخبِر عادة وغالبًا ما يقصد بخبره أحد أمرين:

الأول: أن يكون غرض المتكلم إفادة المخاطب الحكم الذي تضمنتهُ الجملة، إذا كان جاهلا له، ويسمى هذا النوع: فائدة الخبر. وهذا الغرض يقوم أساسا على إن من يُلقى إليه الخبر، أو يوجه إليه الكلام يجهل حكمه أي مضمونه، ويراد إعلامه أو تعريفه به، كقولك: زيد ناجح لمن لا يعلم بنجاحه، وهذه الفائدة هي المقصد الأول من مقاصد الإسناد الخبري. ومن أمثلة هذا الغرض في حياتنا اليومية:

- جميع نشرات الأخبار اليومية التي تبث من على شاشات التلفاز.
- ما ينشر في الصحف والمجلات اليومية.
- الأخبار المتعلقة بالحقائق العلمية التي تشتمل عليها الكتب في العلوم والفنون المختلفة.
- المحاضرات التي تلقى على الطلبة المتعلمين.

إذ يفترض في كل هذه الأخبار أنها تقدم معرفة جديدة لم يكن المتلقي على علم مسبق بها.

الثاني: أن يكون غرض المتكلم إفادة المخاطب أن المتحدث عالم أيضا بمضمون الخبر ويسمى هذا النوع: لازم الفائدة؛ أي إفادة المخاطب كون المتكلم عالمًا بالحكم، نحو قولك لمن حفظ القرآن: أنت حفظت القرآن، وإنما سمي لازم الفائدة؛ لأنه يلزم من إفادة المخاطب الحكم إفادته أن المتكلم عالم به، وهذا هو المقصد الثاني من مقاصد الإسناد الخبري.   ومن تطبيقات هذا النوع في حياتنا اليومية:

- إجابات الطلبة على أسئلة الأساتذة، فهذه الأخبار لا تُقدُّم جديدا للأساتذة سوى إفادتهم أَنَّ الطلبة قد علموا تلك المادة الدراسية التي ألقاها الأساتذة عليهم.
- ومن تطبيقاتها الأخرى أيضا ما يقوم به بعض الأشخاص من إخبار أصدقائهم ببعض الحوادث التي فعلوها في وقت سابق من غير أن يشعر الأصدقاء بتلك المشاهدات من قبيل قولك لأحد زملائك: أنت وصلتَ باكرا هذا الصباح ،وكنت تقود السيارة مسرعا في شارعنا. وغيره من الأمثلة، فهذه الأخبار لا تُقدّم جديدا سوى إفادة السامع أَنك عالمٌ بما قامَ بهِ صديقك ومن أمثلته النصية ما موجود في هذه النصوص .

- قول السيدة خديجة – رضوان الله عليها– تخاطب الرسول – صلى الله عليه وسلم –: (والله إنّك لَتصلَ الرحم، وتصدق الحديث، وتؤدي الأمانة، وتحمل الكَلّ، وتقري الضيف، وتُعين على نوائبِ الدهر).

فهذه أخبار لا تُقدِّم جديدا للرسول الرسول – ﷺ–؛ لأنه كان يفعلها بنفسه الرسول – ﷺ –: ومقصد السيدة خديجة من كل هذا أن تفيد(لازم الفائدة) فهي وغيرها من الناس يعلمون بسلوك الرسول الرسول – صلى الله عليه وسلم –: هذا في كل هذه الأخبار.

- ومثاله أيضا قول الرسول الرسول – ﷺ –: في مخاطبة الأنصار: (إنكم لتقلون عند الطمع، وتكثرون عند الفزع).

- ومثاله من الشعر قول الشاعر موجها الكلام لشخص يغتابه:

تَغتابُنِي عِندَ أَقوامٍ، وتَمْدَحُنِي ... في آخَرِينَ، وكلٌّ عنكَ يأْتِينِي

والفرق بين الحالتين أن المخاطب في الحالة الأولى يكون جاهلًا بمضمون الخبر، ويريد المتكلم أن يعلمه به، وفي الثانية يكون عالمًا بمضمون الخبر إلا أنه لا يعلم أن المتكلم عالم به، فالسامع في هذه الحالة لم يستفد علمًا بالخبر نفسه، وإنما استفاد أن المتكلم عالم به.

- الأغراض المجازية:

الأصل في الخبر أن يلقى لغرضين هما: فائدة الخبر، ولازم الفائدة؛ فهذان الغرضان هما الأصل فيما يراد بالخبر، غير أنّه كثيرًا ما يخرج عن الغرضين السابقين إلى أغراض أخرى تسمى (الأغراض المجازية) أو(البلاغية) وهي أغراض تفهم من السياق وقرائنُ الأحوال أي أنَّ هناك أغراضًا بلاغية أخرى يأتي لها الخبر، ويفهمها المخاطب من سياق الكلام وقرائن الأحوال، وهي عديدة ومتنوعة؛ لأنها تترجم عن مشاعر المتكلمين وأحوالهم ونبضات قلوبهم، وغير ذلك من الانفعالات البشرية والآمال والآلام، التي لا تقف عند حد. ومنها:

١. إظهار التحسر: كما في قول الله تعالى حكاية عن امرأة عمران: {رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى} (آل عمران: ٣٦) فليس غرضها من هذا الخبر إعلام الله بمضمون هذا الخبر، ولا إعلامه تعالى بلازم الفائدة، وهو أنها تعلم بمضمون الخبر، وهو أنها وضعت أنثى، فالله تعالى أعلم بأن الوالدة أعلم من غيرها بما وضعت، وعليه فالغرض من هذا الخبر إظهار التحسر على خيبة رجائها، وعكس تقديرها، والتحزن إلى ربها؛ لأنها كانت ترجو وتقدر أن تلد ذكرًا يحقق رغبتها في خدمة بيت المقدس؛ حيث كانت خدمته خاصة بالذكور دون الإناث؛ ولذلك تحسرت على فوات هذا الغرض، وتستطيع أن تدرك هذا الغرض بسهولة ويسر في قول الشاعر مثلًا:

ذهب الصبا وتولت الأيام ... فعلى الصبا وعلى الزمان سلام

فالشاعر هنا يتحسر على أيام صباه وزهرة عمره التي ولت وأدبرت، وأسلمته إلى الشيخوخة، وهي تؤذن بدنو أجله وانقضاء حياته، فنغمة الحزن واضحة هنا في كلام الشاعر.

٢ـ إظهار الضعف والخشوع: كقوله تعالى حكاية عن زكريا –عليه السلام: {رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا}[١]، فليس قصده – عليه السلام – إفادة الحكم أو لازمه، فالله – سبحانه وتعالى– عالم بهما، وعلمه محيط بكل صغيرة وكبيرة في الكون بأسره، وإنما الغرض من الخبر هنا إظهار الضعف بين يدي الله سبحانه وتعالى. ومن هذا القبيل قول الشاعر:

إن الثمانين وبُلّغتها ... قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

وقول آخر:

إلهي عبدك العاصي أتاك ... مقرًّا بالذنوب وقد دعاك

فالشاعر في البيت الأخير في موقف ضراعة وخضوع؛ ولذلك فهو يعترف بذنبه وتقصيره، لعل الله يغفر له ذنوبه. وقول أبي نواس:

دَبَّ فِيَّ السِقامُ سُفلاً وَعُلوا		وَأَراني أَموتُ عُضواً فَعُضوا

---

١ سورة مريم الآية : (٤).

٣ـ الاسترحام، والاستعطاف، كقوله تعالى في شأن موسى –عليه السلام: {رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ} (القصص: ٢٤) فسيدنا موسى –عليه السلام– لا يقصد إلى أن يرجو الرحمة والعطف من ربه –عز وجل. ومن هذا القبيل أيضا قول أبي نواس:

تعاظمني ذنبي فلما قرنته ..... بعفوك ربي كان عفوك أعظما

وكقول الشاعر:

عَظيم العَفوِ اِن عَظُمتَ ذُنوبي فَلى أَمل لِعَفوِكَ لا يَزول

وقول آخر:

وَالعَفوُ مِن شِيَمِ الكريمِ وَشأنِهِ وَالصَّفحُ في السّاداتِ خَيرُ مزيّةِ

وقول آخر:

أَمسَيتُ ذا ضُرٍّ وَفي يَدِكَ الشِفا لَمّا غَدَوتُ مِنَ الذُنوبِ عَلى شَفا

وَعَلِمتُ أَنَّ الصَفحَ مِنكَ مُؤَمَّلٌ وَالعَفوَ مَرجُوٌّ لَدَيكَ لِمَن هَفا

فَجَعَلتُ عُذري الاِعتِرافَ بِزَلَّتي إِذ بِها في طَيِّ عِلمِكَ مَن خَفا

فَإِذا اِنتَقَمتَ فَإِنَّ ذَنبي موجِبٌ وَلَئِن عَفَوتَ فَإِنَّ مِثلَكَ مَن عَفا

٤ـ الفخر، ومنه قوله – صلَّى الله عليه وآله وسلَّم –: "أَنا أَفْصَحُ الْعَرَبِ، بَيْدَ أَنِّيْ مِنْ قُرَيْشٍ". وقوله– صلَّى الله عليه وآله وسلَّم –: (إن الله اصطفاني من قريش) وقوله – صلَّى الله عليه وآله وسلَّم –: (أنا ابن الذبيحين) يعني (إسماعيل– عليه السلام–) وأبيه عبد الله بن عبد المطلب، وذلك كقول أبي العلاء المعري:

وإني وإن كنت الأخير زمانه ... لآت بما لم تستطعه الأوائل

فليس الغرض إفادة المخاطب الحكم أو لازمه، وإنما الغرض الفخر والاعتداد بالنفس. وكقول عمرو بن كلثوم:

إذا بلغ الرضيع لنا فطاما ... تخر له الجبابر ساجدينا

هو يفخر بقومه وبما لهم من القوة والبأس، ويباهي بعزهم ومنعتهم، كما يفهم من المقام.

٥ـ تحريك الهمة: أي الحث على شيء واستنهاض الهمم له، ومنه قوله تعالى:{لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[1]. وقوله تعالى: {لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى

---

١ سورة يونس الآية (٢٦).

وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٩٥). وذلك تذكيرًا بما بينهما من التفاوت العظيم؛ ليتأنف القاعد بلا عذر، ويرتفع بنفسه عن انحطاط منزلته، فينضم إلى صفوف المجاهدين، ويحظى بشرف الجهاد وعظيم الثواب. وكقولك أنت: لا يستوي العالم والجاهل؛ لأن فيه تحريكًا لحمية الجاهل وحثًّا له على تحصيل العلم ليلحق بركب العلماء، ويحظى بشرف الانتساب إليهم، والارتقاء إلى منزلتهم، ولا غرو فهم ورثة الأنبياء. ومنه قول الشاعر:

وليس أخو الحَاجات مَنْ باتَ نَائماً ... ولكنْ أَخُوها مَنْ يَبيتُ على وَجل

٦- إظهار التحسر: ومنه قول الشاعر:

ذَهَبَ الصِّبَا وَتَوَلَّتِ الأَيَّامُ ... فَعَلَى الصِّبَا وَعَلَى الزَّمَانِ سَلامُ

تَاللَّهِ أَنْسَى مَا حَيِيتُ عُهُودَهُ ... وَلِكُلِّ عَهْدٍ فِي الْكِرَام ذِمَامُ

إِذ نَحْنُ فِي عَيْشٍ تَرِفُّ ظِلالُهُ ... وَلَنَا بِمُعْتَرَك الْهَوَى آثَامُ

ومنه قول الشاعر أيضًا:

ذهب الشبابُ على جناح نعامةٍ ... واتى المشيبُ على أغرَّ محجَّل

قالت مشيبك عند ارباب الحجي ... لهب الهوى بظباء دارة جلجلِ

تحت المشيب جواهرٌ لو قلَّدوا ... جيدي بها مشت النجوم بمجملي

فاجبتها ولقد رقصت لقولها ... رقصَ الغصون على غناءُ البلبلِ

لم يبقَ من تلك الجواهر غيرُ ما خبَّأَتهُ لرجالِ هذا المحفلِ

ومنه قول الشاعر:

إِنَّ الرَزِيَّةَ لا رَزِيَّةَ مِثلُها فِقدانُ كُلِّ أَخٍ كَضَوءِ الكَوكَبِ

ذَهَبَ الَّذينَ يُعاشُ في أَكنافِهِم وَبَقيتُ في خَلفٍ كَجِلدِ الأَجرَبِ

٧- إظهار الفرح والسرور: وذلك كقولك لمن يعلم بنجاحك هذا العام: نجحت في الامتحان والحمد لله.

٨- المدح، كقول النابغة الذبياني يمدح النعمان بن المنذر:

فإنك شمس والملوك كواكب ..... إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

ومنه قول الشاعر:

غَدَت أَرضُنا مِنكُم سَماءً مُظِلَّةً لَها أَنجُمٌ مِن زُهرِ أَخلاقِكُم زُهرُ

كَأَنَّكَ في خَدِّ الزَمانِ تَوَرُّدٌ وَفي فَمِهِ ضِحكٌ وَفي وَجهِهِ بِشرُ

فَمَن يَكُ مَمدوحاً بِنَظمٍ نَصوغُهُ فَإِنَّكَ مَمدوحٌ بِكَ النَظمُ وَالنَثرُ

كأنك في خَدَّ الزمان تورد وفي فمه ضحك وفي وجهه بشر

٩- التوبيخ والتقريع، كما في قول الله تعالى: {قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ} (الأعراف:١٢٣). يقول الزمخشري: "آمنتم به على الإخبار؛ أي فعلتم هذا الفعل الشنيع توبيخًا لهم وتقريعًا، وإنما أفاد الخبر التقريع والتوبيخ؛ لأنه

حين أخبر به من هو عالم بفائدته تولد منه بحسب القرائن والأحوال ما ناسب المقام، والمناسب للمقام هنا هو التوبيخ والتقريع". ومن ذلك أيضًا: الذم، كقول جرير يهجو الفرزدق:

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا ... أبشر بطول سلامة يا مربع

١٠. النصح والإرشاد، كقول زهير:

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله ... على قومه يستغن عنه ويذمم

وكقول الآخر ناصحًا بالابتعاد عن الهموم ومحذرًا من آثارها الضارة:

والهم يخترم الجسيم نحافة ... ويشيب ناصية الصبي ويهرم

١١ـ التعجب، كما في قوله: {قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ} (الأعراف: ١٣٨). فهذا تعجب منهم. ومن قولهم: {يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ} (الأعراف: ١٣٨). وذلك بعد أن رأوا من الآية العظمى والمعجزة الكبرى، وقد استفيد التعجب من المقام؛ لأن من شاهد مثل تلك الآيات العظام إذا صدر عنه مثل هذا الكلام دل ذلك على قصور فهمه وعقله وسوء تقديره وفساد تدبيره.

١٢ـ البشارة بالثواب لأهل الخير، كما في قوله تعالى: {وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ}. (آل عمران: ١١٥).

وأسرار الخبر وأغراضه كثيرة ومتنوعة، ومن يستعرض الأساليب الرفيعة في القرآن والسنة وفي الأدب العربي شعرًا ونثرًا؛ فسوف يقف على كثير من هذه الأغراض، وهي لا تجري على قاعدة ثابتة، وإنما تفهم من سياق الكلام، وقرائن الأحوال، فالأغراض المجازية التي يخرج إليها الخبر كثيرة ومتعددة، والفيصل في تحديدها هو الاحتكام إلى سياق النص وقرائن الأحوال، وقد أشار القدماء إلى تعدد أغراض الخبر، ومن أبرزهم ابن فارس في كتابه الصاحبي الذي ذكر أنَّ المعاني التي يحتملها الخبر كثيرة(١٥)، منها: (التمني، نحو: وددتك عندنا، والإنكار: نحو قولك: ماله عليّ حق، والنفي: كقولك: لا بأس عليك، والأمر:نحو قوله – جل ثناؤه –: (وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ) البقرة ٢٢٨ وقوله: (وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ)[١]، فإن السياق يدل على أن الله تعالى أمر بذلك لا أنه خبر... والنهي نحو قوله تعالى: (لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ) الواقعه٧٩، والتعظيم نحو قولك: (سبحان الله)، والدعاء نحو قولك: عفا الله عنك، والوعد نحو قوله تعالى: (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) فصلت:٥٣، والوعيد نحو قوله تعالى: (وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ) الشعراء٢٢٧،

١ سورة البقرة الآية (٢٢٨)

والإنكار والتبكيت نحو قوله تعالى: (ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ)الدخان:٤٩.

والدعاء: منه قوله تعالى: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)[١]. أي: أعنا على عبادتك.

لكن هنا سؤال يفرض نفسه: ما وجه دلالة الخبر على أغراضه؟ يرى بعض البلاغيين أن الخبر يدل على الغرض الأول، وهو فائدة الخبر دلالة حقيقية؛ لأن الفائدة تفهم من ذات الخبر بلا وسائط.

أما بقية الأغراض فيدل عليها الخبر دلالة تبعية، فهي من مستتبعات التراكيب؛ أي أنها تفهم من الخبر بمعونة سياق الكلام وقرائن الأحوال، ولا توصف بأنها حقيقة، ولا مجاز، ولا كناية.

وقيل: إن الغرضين الأولين – فائدة الخبر ولازم الفائدة– يدل الخبر عليهما دلالة حقيقية؛ حيث يفهمان من نفس الجملة والتركيب، أما بقية الأغراض كإظهار التحسر والضعف والفخر فيدل عليها الخبر بطريق الكناية. وقيل: إنه يدل على هذه الأغراض الثانوية بطريق المجاز المرسل الذي علاقته اللزوم. والرأي الأول هو الأقرب إلى الصواب، فهي من مستتبعات التراكيب.

وربما كان اللفظ خبرًا والمعنى شرطا وجزاء، كقوله تعالى: (إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ)[٢]. فظاهره خبر، والمعنى: إنا إن نكشف عنكم

---

١ سورة الفاتحة الآية (٥)

٢ سورة الدخان الآية (١٥)

العذاب تعودوا، ومنه قوله: (الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ)[1]، والمعنى: من طلق امرأة مرتين فليمسكها بعدهما بمعروف أو يسرحها بإحسان[2].

==============================

نموذجٌ

- بيِّن الغرض من الخبر فيما يأتي:

(١) كان مُعاوِيةُ ﷺ حَسَنَ السياسةِ و التَّدْبيرِ، يحْلَمُ في موضع الحِْلْم، وَيَشتَد في موضِعِ الشِّدَّة.

(٢) لَقدْ أدَّبتَ بَنِيكَ باللين والرفقِ لا بالقَسْوَةِ والعِقاب.

(٣) تُوفيَ عُمَرُ بنُ الخطاب رَضي الله عنه سَنَةَ ثلاثٍ وعشرين من الهجرة.

(٤) قال أبو فِراس الحَمدَاني:

ومكارمي عددُ النجومِ ؛ ومنزلي ... مأوَى الكِرَامِ، وَمَنزِلُ الأضْيَافِ

(٥) قال أبو الطيب:

وَمَا كُلّ هَاوٍ للجَميلِ بفاعِلٍ ... وَلا كُلّ فَعّالٍ لَهُ بِمُتَمِّمِ

(٦) وقال أيضا يَرثِي أخت سَيْفِ الدَّوْلة:

غدَرْتَ يا مَوْتُ كم أفنَيتَ من عدَدٍ ... بمَنْ أصَبْتَ وكم أسكَتَّ من لجَبِ

---

١ سورة البقرة الآية (٢٢٩)

٢ تنظر : أغراض الخبر المجازية في الصاحبي لابن فارس ص ١٧٩ ، وللبرهات في علوم القرآن ٢ \ ٣١٠

(٧) قال أبو العتاهية يَرثِي وَلَدَهُ علياًّ:

بكيتُكَ يا عليٌ بدَمْع عيني... فَمَا أغنى البُكاءُ عليك شياً

وكانَتْ في حَيَاتك لي عِظاتٌ... وأنْتَ اليَومَ أوعَظُ مِنْكَ حَيا

(٨) وقال عوف بن محلم لعبد الله بن طاهر:

إنَّ الثَّمانِينَ، وبُلِّغْتَهَا ... قد أَحْوَجَتْ سَمْعِي إِلى تُرْجُمانْ

(٩) وقال أبو العلاء المعرِّي:

وَلِى منطِق لَمْ يرْضَ لي كُنْه منزلي عَلَى أنني بيْنَ السماكَينِ نازلُ

(١٠) قال إِبراهيمُ بن المَهْدي يخاطب المأمون:

أتَيْتُ جُرْماً شنيعاً ... وأنْتَ لِلْعَفْوِ أهْلُ

فإنْ عفَوْتَ فَمَنْ ... وإنْ قَتَلتَ فَعدْلُ

الإِجابةُ

(١) الغرض إِفادة المخاطب الحكم الذي تضمنه الكلام.

(٢) " إفادةُ المخاطب أنَّ المتكلم عالم بحاله في تهذيب بنيه.

(٣) " إفادةُ المخاطب الحكم الذي تضمنه الكلام.

(٤) " إظهارُ الفخر، فإِنَّ أَبا فِراس إنما يُريد أن يفاخر بمكارمه و شمائله.

(٥) " إفادةُ المخاطب الحكم الذي تضمنه الكلام؟ فإنَّ أبا الطيب يريد أَن يبين لسامعيه ما يراه في بعض الناس من التقصير في أَعمال الخير.

(٦) " إظهارُ الأَسى والحزن.

(٧) الغرضُ إظهار الحزن والتحسر على فقد ولده.

(٨) " إظهارُ الضعف والعجز.

(٩) " الافتخارُ بالعقل واللسان.

(١٠) " الاسترحامُ والاستعطاف.

المبحثُ الثاني: الإنشاء

تعريف الإنشاء، وأقسامه:

الإنشاءُ هو القسم الثاني من أقسام الكلام، وهو كلام لا يحتمل الصدق والكذب لذاته؛ وذلك لأنه ليس لمدلول لفظه قبل النطق به وجود خارجي يطابقه أو لا يطابقه، وهذا ما اعتمد عليه القدماء حينما فصلوا بين الخبر أو الإنشاء فقال القزويني ك ووجه الحصر أن الكلام إما خبر أو إنشاء؛ لأنه إما أن يكون لنسبته خارج تطابقه أو لا تطابقه، أو لا يكون لها خارج، الأول الخبر والثاني والإنشاء[1].

الإنشاءُ لغةً: الإيجادُ.

وفي الاصطلاحِ: ما لا يحتملُ صدقاً ولا كذباً، كالأمرِ والنهيِ والاستفهامِ والتمنِّي والنداءِ وغيرِها، فإنكَ إذا قلتَ: (اللّهُمَّ ارحمْني) لا يصحُّ أن يقالَ لك: صادقٌ أو كاذبٌ، نعمْ يصحُّ ذلك بالنسبةِ إلى الخبرِ الضمنيِّ المستفادِ من الكلامِ، وهو أنكَ طالبٌ للمغفرةِ.

تعريف آخر للإنشاء: هو ما لا يحصلُ مضمونهُ ولا يتحققُ إلا إذا تلفظتَ بهِ، فطلبُ الفعلِ في: افعَلْ، وطلبُ الكفِّ في لاَ تَفْعَلْ، وطلبُ المحبوبِ في: التَّمَنِّي،

---

١ الإيضاح ص ١٣ .

وطلبُ الفهم في: الاستفهامِ، وطلبُ الإقبالِ في النِّداء، كلُّ ذلك ما حصلَ إلا بنفسِ الصّيغِ المتلَفظِ بها.

أقسامُ الإنشاءِ: ينقسمُ الإنشاءُ إلى قسمين: (طلبيٍّ) و(غيرِ طلبيٍّ)[٢٠].

الإنشاءُ غيرُ الطلبيِّ: هو ما لا يستدعي مطلوباً غيرَ حاصلٍ وقتَ الطلبِ، وهو على أقسامٍ:

١- المدحُ والذمُّ: ويكونان بـ (نعْمَ) و(حبَّذا) و(ساءَ) و(بئسَ) و(لا حبَّذا)، والأفعال المحولة إلى (فَعُل). نحو قول الله تعالى عن النبي أيوب عليه السلامُ: {وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ}، ونحو: (نعمَ الرجلُ زيدٌ)، ونحو قوله تعالى: {... وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ}، ونحو :(بئستِ المرأةُ أمُّ جميلٍ). ونحو قوله ﷺ- «إِنَّكُمْ سَتَحْرِصُونَ عَلَى الإِمَارَةِ وَسَتَصِيرُ حَسْرَةً وَنَدَامَةً ، نِعْمَتِ الْمُرْضِعَةُ وَبِئْسَتِ الْفَاطِمَةُ ». أما الأفعال المحولة إلى (فَعُل) فمثالها قوله تعالى: (وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا) النساء:٦٩. وقوله تعالى: (مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآَبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا) الكهف:٥، وقوله (كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ) الصف:٣.

٢- ألفاظُ العقودِ: وهي مجموعة من ألفاظ البيع والشراء والتملك والفسخ مما يجري استعماله في التعاملات اليومية ،وتكون بصيغة الماضي كثيرا،نحو: بعت، واشتريت، ووهبت، وأعتقت، وبغير الماضي، نحو: عبدي حر لوجه الله تعالى، وأنا بائع، وامرأتي طالقٌ.

٣ – القَسَمُ: سواءٌ كان بالواو ، والباء، والتاء، نحو: (واللهِ، بالله، تالله) ونحو قوله تعالى : {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا}. أو بغيرِها، نحو: (لعمر) مضافة إلى اسم ظاهر أو ضمير، ومثاله نحو: (لعمرُ الله، ولعمرُك). وكقوله تعالى : {لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ}.

٤- التعجّبُ، وهو استعظام فعل فاعل ظاهر المزية. ويكون على قسمين:

أ- التعجب القياسي: وهو التعجب بصيغتين معروفتين يمكن قياس غيرهما عليها والصيغتان هما: "ما أفعله، وأفعل به"، فمثال الصيغة الأولى (ما أفعله): (ما أحسنَ الرجلَ)، وقول الشاعر:

فَما أَكثَرَ الإِخوان حينَ تَعدّهُم وَلَكِنَهُم في النائِباتِ قَليلُ

وقول الشاعر:

ما أَحسَنَ الدينَ وَالدُنيا إِذا اِجتَمَعا وَأَقبَحَ الكُفرَ وَالإِفلاسَ بِالرَجُلِ

وكقول الصِّمَّة بنُ عَبْدِ الله:

بنفسي تلْكَ الأرض ما أَطْيَب الرُّبَا! ... ومَا أَحْسَنَ اَلْمُصْطَافَ والمتَرَبَّعَا

أما الصيغة النائبة (أفعل به)، فمثالها كقوله تعالى: {أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}[1]، ونحو: (أكرِمْ بالصِّدِّيقِ).

ب- التعجب السماعي: وهو مجموعة من التراكيب التي سمعت عن العرب الفصحاء فتحفظ وتستعمل في التعجب ولكن لا يقاس عليها. ومنه

- (لله در): كقولنا: لله درُّهُ فارسًا.

- ومنه (سبحان الله): عندما تقال في مواضع الاندهاش من فعل معين يتوجب التعجب، كما في هذا النص: (رأى أبو الأسود الدؤلي اعدالا للتجار مكتوبا عليها؛ لابو فلان. فقال: سبحان الله يلحنون ويربحون)!!!

- وبغيرِهِما، نحو قوله تعالى : (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ).

٥- الرجاءُ: ويأتي بـ (لعل) و(عسَى) و(حرَى) و(اخلولقَ) نحو قولهِ تعالى: (فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ).

---

١ مريم:٣٨

وبعد أن عرفنا أساليب الإنشاء غير الطلبي ينبغي أن نذكر أنَّ البلاغين اهتموا كثيرا بدراسة الإنشاء الطلبي، وأهملوا دراسة أساليب الإنشاء غير الطلبي، والسبب في ذلك يعود إلى:

١- أنَّ أكثر هذه الأساليب غير الطلبية في الأصل أخبار نقلت إلى معنى الإنشاء.

٢- أنها لا تستعمل إلا في معانيها التي وضعت لها، بمعنى قلة الأغراض البلاغية التي تتعلق بها.

الإنشاءُ الطلبيُّ: وهو الإنشاء الذي يستدعِي مطلوباً غيرَ حاصلٍ وقتَ الطلبَ - حسبَ اعتقادِ المتكلِّمِ - وهو المبحوثُ عنه في علمِ المعاني، لما فيه منَ اللطائفَ البلاغيّةِ، وأساليبه خمسةٌ هي: الأمرُ، والنهيُ، والاستفهامُ، والتمنِيّ، والنداءُ .

....

نَمُـــوذجٌ

لبيان نوعِ الإنشاء في كل مثال من الأمثلة الآتية:

(١) قال أبو تمام:

لا تسقني ماءَ الملامِ فإنَّني ... صبٌّ قدِ استعذبتُ ماءَ بُكائي

(٢) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أُرَاهُ رَفَعَهُ قَالَ « أَحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْنًا مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْمًا مَا وَأَبْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْنًا مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْمًا مَا ».

(٣)و قال ابن الزيات يمدح الفضْل بن سهْل .

يا ناصِر الدين إذ رثَّتْ حبائلُه... لأنتَ أكرمُ من آوَى و منْ نصرا

(٤)وقال أميةَ بن أبي الصَّلْت في طلب حاجة:

أَأَذْكُرُ حاجَتِي أَم قد كَفانِي ... حَياؤُك، إِنَّ شِيمَتَكَ الحَياءُ

(٥) و قال زُهيْرُ بن أبي سُلْمى :

نِعْمَ امرَءًا هَرِمٌ، لم تَعْرُ نائِبَةٌ ... إِلاَّ وكانَ لِمُرتْاعٍ بها وَزَرا

(٦) قال امرؤ القيس:

أجارتَنا إنا غَريبانِ هاهُنا ... وكلُّ غريبٍ للغريب نسيبُ

(٧) و قال آخر:

يا ليت منْ يمْنَع المعروفَ يَمْنعُهُ ... حتى يذوق رجالٌ غِبَّ ما صنعوا

(٨) و قال أبو نُواس يستعطفُ الأمين:

وحياةِ رأْسِكَ لا أَعو ... دُ لمثلها وحياةِ رأْسِكْ

(٩)وقال دِعْبلُ الخُزاعيُّ:

ما أكْثر النَّاسِ! لا بلْ ما أقَلَّهم! ... اللَّهُ يَعلَمُ أَنّي لَم أَقُلْ فَنَدا

إِنّي لأَفْتَحُ عيني حِين أفتَحُها ... على كثير ولكنْ لا أرى أَحدا

الجـــوابُ

الرقم	صيغة الإنشاء	نوعه	طريقته
١	لا تسقني ماء الملام	طلبي	النهي
٢	أحْببْ حبيبكَ هوْناً ما عسى أنْ يكون بغيضَكَ يَوْما ما و أبغض بغيضَكَ هوْناً ما عسى أن يكون حبيبَكَ يوْماً ما.	طلبي	الرجاء
٣	يا ناصِر الدين إذ رثَّتْ حبائلُه	طلبي	النداء
٤	أأذكرٌ حاجتي أم قَدْ كفاني	طلبي	الاستفهام بالهمزة
٥	نِعْم امرأً هرِمٌ لَم تَعرُ نَائِبةٌ	غير طلبي	المدح نعم
٦	أجارتَنا إنا غَريبان هاهُنا	طلبي	استفهام بالهمزة
٧	يا ليت منْ يمْنَع المعروفَ يَمْنعُهُ	طلبي	النداء بيا التمني
٨	وحياة راسك لا أعوُ دُ	طلبي	القسم
٩	ما أكْثر النَّاس! لا بلْ ما أقَلَّهم	غير طلبي	التعجب

أولًا– في الأمرِ

تعريفُه: هو طلبُ حصولِ الفعل من المخاطَبِ علىٍ وجه الاستعلاء والإلزام، ويقصد بالاستعلاء هنا أن يعد الأمر نفسه في منزلة أعلى ممن يخاطبه أو يوجه الأمر إليه.

صيغه: للأمر أربع صيغ هي: فهو إمَّا:

١– بفعلِ الأمرِ: نحو قوله تعالى: (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)[1]، ونحو قوله تعالى: (أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ). ونحو قوله تعالى: (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) الأعراف : ١٩٩. ونحو قول الشاعر:

ذَرِينِي وَحَالِي إنَّ مَالَكِ وَافِرٌ وكُلُّ امْرِئٍ جَارٍ عَلَى مَا تَعَوَّدا

٢ – أو بالمضارعِ المجزومِ بلام الأمر: نحو قوله تعالى : (لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا) الطلاق:٧، وقوله تعالى: (لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) النور:٦٣،

[1] سورة النور الآية (٥٦).

ونحو: قوله تعالى: (وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ)، ومثله الجملةُ نحو قولنا لمنْ ترك ركناً أو شرطاً من شروط صحةِ الصلاةِ: (ليعيد الصلاةَ). وقول الشاعر:

مَن فاتهُ مجدهُ مِن جدّ صارمه فَليطلب المجدَ والعلياء بالقلمِ

٣- أو باسمِ فعلِ الأمرِ: وهو كلمة تدل على ما يدل عليه الفعل، غير أنها لا تقبل علامته، نحو: (صه) بمعنى اسكت، كقول الشاعر:

صه يا زمانُ فإِنَّني رَجُلٌ لَيْسَتْ تُغَيِّرُ صَبْرَهُ الغِيرَ

ماءُ البَشَاشَةِ مِلْءُ صَفحتِه والقَلْبُ فيه النَّار تَسْتَعر

و(مه)بمعنى: اكفف، كقول الشاعر:

مَه يا نَسِيمُ فقد كَبِرتُ عَن الصِّبا لم يَبقَ مِن تِلكَ الصَّبابةِ باقِ

و(إليك عني) بمعنى تنح عني، و(عليك)بمعنى الزم، ومنه قوله تعالى: (عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ)[1]. و(بله) بمعنى (دع)، كقول الشاعر:

أَخو المَحافِلِ عَيّافَ الخَنا أَنِفٌ لِلنائِباتِ وَلَو أَضلَعنَ مُضطَلِعُ

حَمّالُ أَثقالِ أَهلِ الوُدِّ آوِنَةً أُعطيهِمُ الجَهدَ مِنّي بَلهَ ما أَسَعُ

و(إيه) بمعنى :زد، ومنه قول الشاعر:

---

١ سورة المائدة الآية (١٠٥)

أبَناتِ الهَديلِ أسْعِدْنَ أوْ عِدْ　　　نَ قَليلَ العَزاءِ بالإسْعَادِ

إيه للهِ دَرّكُنّ فأنْتُنّ اللْ　　　لَوَاتي تُحْسِنّ حِفْظَ الوِدادِ

و(رويدك) بمعنى (أمهل)، ومنه قول الشاعر :

حنانيك يا ورقاء حتام تسجعي　　　رويدك مهلا فالغضى بين أضلعي

٤- أو بالمصدرِ النائبِ عن فعلِ الأمرِ: وهو ما يذكر بدلاً من التلفظ بفعله، كقوله تعالى: (بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) [١]، ونحو قوله تعالى:{فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ ...}، ومنه قول النبي -ﷺ- : (صبرا يا آل ياسر إن موعدكم الجنة)، ونحو قولنا: (ذهاباً إلى بيتِ اللهِ).

الأغراض البلاغية لأسلوب الأمر:

قد تخرجُ صيغةُ الأمرِ عن معناها الأصليِّ . وهو طلب الفعل من الأعلى للأدنى على وجه الاستعلاء والإلزام . فيرادُ منها أحدُ المعاني والأغراض المجازية التي تفهم من السياق ومن قرائن الأحوال، ومن هذه الأغراض:

١- الدُّعاءُ: وهو الطلب المتوجه إلى الله - جلَّ وعلا- على سبيل التضرع، ومنه قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آَمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آَمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)البقرة :١٢٦. ونحو قوله تعالى: (رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ

---

١ سورة البقرة الآية (٨٣)

أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ). وكقوله تعالى: (رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ)[١]، ويسميه ابن فارس "المسألة"[٢]، ومنه قوله تعالى: (رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ۚ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ)[٣]، وقوله تعالى: (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ)[٤].

٢- الرجاء: وهو الطلب الصادر من الأدنى رتبة إلى الأعلى مرتبة، نحو قول الشاعر مخاطبا الممدوح:

تَرَفَّق أَيُّها المَولى عَلَيهِم ... فَإِنَّ الرِفقَ بِالجاني عِتابُ

وقول الشاعر ابن البعاج النميري في الممدوح :

أَجِزْنِي بَوَصْلٍ عَلَى مِدْحَتِي ... فَلِي فِيكَ مَدْحٌ يُدَوِّي عَزِيزَا

وَإِنْ كُنْتَ لِي فِي الْوَرَى مَالِكاً ... فَمَا مَالِكٌ مِثْلُهَا لَنْ يُجِيزَا

٣- الالتماسُ: وهو طلب الفعل الصادر من رتبة إلى رتبة مساوية لها في القدر والمنزلة، ويكون بين الأنداد والنظراء المتساويين، نحو: (اذهبْ إلى الدار) تقوله لمنْ يساويكَ، ونحو قول مالك بن الريب مخاطبا صاحبيه:

أَقولُ لأَصحابي اِرفَعوني فَإِنَّهُ ... يَقَرُّ بِعَيني أَن سُهَيلٌ بَدا لِيا

فَيا صاحِبي رَحلي دَنا المَوتُ فَانزِلا ... بِرابِيَةٍ إِنّي مُقيمٌ لَيالِيا

---

١ سورة نوح الآية (٢٨)

٢ الصاحبي ص ١٤٨

٣ سورة آل عمران الآية (١٩٣)

٤ سورة الفاتحة الآية (٦)

أقيما عَلَيَّ اليَومَ أَو بَعضَ لَيلَةٍ وَلا تُعجلاني قَد تَبَيَّنَ شانِيا

وَقوما إِذا ما اِستُلَّ روحي فَهَيِّئا لِيَ السِّدرَ وَالأَكفانَ عِندَ فَنائِيا

وَخُطّا بِأَطرافِ الأَسِنَّةِ مَضجَعي وَرُدّا عَلى عَينَيَّ فَضلَ ردائِيا

خُذاني فَجُرّاني بِثَوبي إِلَيكُما فَقَد كُنتُ قَبلَ اليَومِ صَعباً قِيادِيا

وقول إيليا أبو ماضي مخاطبا صاحبه ملتمسا منه أن يتعلم من الزهرة الفواحة والبلبل المترنم:

كُن بَلسَماً إِن صارَ دَهرُكَ أَرقَما وَحَلاوَةً إِن صارَ غَيرُكَ عَلقَما

إِنَّ الحَياةَ حَبَتكَ كُلَّ كُنوزِها لا تَبخَلَنَّ عَلى الحَياةِ بِبَعضِ ما

أَحسِن وَإِن لَم تُجزَ حَتّى بِالثَنا أَيَّ الجَزاءِ الغَيثُ يَبغي إِن هَمى

مَن ذا يُكافِئُ زَهرَةً فَوّاحَةً أَو مَن يُثيبُ البُلبُلَ المُتَرَنِّما

عُدَّ الكِرامَ المُحسِنينَ وَقِسهُمُ بِهِما تَجِد هَذَينِ مِنهُم أَكرَما

يا صاحِ خُذ عِلمَ المَحَبَّةِ عَنهُما إِنّي وَجَدتُ الحُبَّ عَلماً قَيِّما

لَو لَم تَفُح هَذي وَهَذا ما شَدا عاشَت مُذَمَّمَةً وَعاشَ مُذَمَّما

فَاِعمَل لِإِسعادِ السِوى وَهَنائِهِم إِن شِئتَ تُسعَدَ في الحَياةِ وَتَنعُما

أَيقِظ شُعورَكَ بِالمَحَبَّةِ إِن غَفا لَولا الشُعورُ الناسُ كانوا كَالدُمى

أَحبِب فَيَغدو الكوخُ كَوناً نَيِّراً وَاِبغُض فَيُمسي الكَونُ سِجناً مُظلِما

٤- النصح والإرشادُ: وهو الطلب الذي لا إلزام فيه وإنما هو نصيحة وموعظة وإرشاد، نحو قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ)[1]، ومنه قول الشاعر :

شاوِرْ سِواكَ إذا نابَتْكَ نائبةٌ يوماً وإن كنتَ من أهلِ المشوراتِ

فالعَيْنُ تَلْقى كِفاحاً ما نأى ودنا ولا ترى نَفْسَها إلا بمِرآة

وقول الشاعر:

اعمل بني فأنت من عملي لترضي والديك

لم يجن قط أبي عل ي ولا جنيت أنا عليك

٥. التمنّي: وهو طلب الأمر المحبوب الذي لا يرجى حصوله، ويكثر في توجيه صيغ الأمر إلى الطبيعة والجمادات و الأشياء التي لا تستجيب لتنفيذ الأمر عادة،نحو قول الشاعر:

يا دارَ عَبلَةَ بِالجَواءِ تَكَلَّمي وَعَمي صَباحاً دارَ عَبلَةَ وَاِسلَمي

وكقول امرئ القيس:

ألا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ ألا انْجَلِي بِصُبْحِ وَمَا الإصباحُ مِنْكَ بِأَمْثَلِ

وقول الشاعر :

---

[1] سورة البقرة الآية (٢٨٣)

فيا موْتُ زُرْ إنّ الحياةَ ذَميمَةٌ ويا نَفْسُ جِدّي إنّ دهرَكِ هازِل

٦. التهديدُ: وهو الأمر الصادر في مقام عدم الرضا بذلك المأمور به وإنما يراد تهديد المخاطب وتخويفه وتحذيره من ذلك الفعل، كما تسمع من الأم التي تقول لولدها الذي لا يطاوعها في المجيء: (العب العب، فسترى بعد حين ما يحصل لك) فليس المراد من هذا الأمر الامتثال أي فعل ما أمرت به من اللعب وإنما يراد معنى التهديد له على ذلك الفعل. ومن أمثلته القرآنية قوله تعالى :(وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ)[١]. وقوله تعالى (يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ) التوبة :٦٤، وقوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آَيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آَمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)[٢]، فليس المراد من الأوامر في الآيات السابقة (تمتعوا) و(استهزئوا) و(اعملوا ما شئتم) أن يمتثلوا هذه الأوامر بل المراد الزجر والتهديد حتى يقلعوا عن تلك الأفعال لأنها أوامر صادرة في مقام عدم رضا الله عن تلك الأفعال. ومنه قول الرسول -ﷺ-: (إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت)، فليس المراد هنا الامتثال بان يصنع الإنسان ما يشاء وإنما المراد معنى التهديد والذم إذا لم يكن

١ سورة إبراهيم الآية (٣٠)

٢ سورة فصلت الآية (٤٠)

لك حياء يردعك عن فعل ما يستحي منه فافعل ما شئت. وقد عبر الشاعر عن هذا المعنى شعرا:

يَعيشُ المَرءُ ما اِستَحيا بِخَيرٍ وَيَبقى العودُ ما بَقِيَ اللِحاءُ

إِذا لَم تَخشَ عاقِبَةَ اللَيالي وَلَم تَستَحيِ فَاِفعَل ما تَشاءُ

٧. التعجيزُ: وهو الطلب الذي لا يقدر عليه المخاطب، وإنما يراد إظهار عجزه عن القيام به، المخاطب كقوله تعالى: (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ)[1]، ومنه قوله تعالى: (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)[2]، وقوله تعالى (وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)البقرة:١١١، وقوله تعالى:(الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) آل عمران :١٦٨، وقوله تعالى: (هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) لقمان:١١. فليس المراد بالأمر في الآيات السابقة التكليف والإلزام والإتيان بتلك الأفعال إنما المراد إظهار عجزهم عن الإتيان بها؛ لأنهم

---

١ سورة الرحمن الآية (٣٣)

٢ سورة البقرة الآية (٢٣)

مهما حاولوا ذلك فلن يكون بمقدورهم تنفيذ تلك الأوامر التعجيزية. ومنه قول الشاعر:

أَريني جَواداً ماتَ هَزلاً لَعَلَّني ... أَرى ما تَرَينَ أَو بَخيلاً مُخَلَّدا

وقول الشاعر:

أَروني اِمرءاً من قبضةِ الدّهرِ مارقا ... ومن ليس يوماً للمنيّةِ ذائقا

٨ ـ الإباحةُ: وهو الطلب الصادر في مقام يتوهم في المخاطب إن الفعل محظور عليه، فيأتي الأمر ليبيح له القيام بذلك الفعل الذي توهم المنع عنه، ومنه قوله تعالى:(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ) البقرة: ١٨٧. وقول الشاعر:

هَنيئاً مَريئاً غَيرَ داءٍ مُخامِرٍ ... لِعَزَّةَ مِن أَعراضِنا ما اِستَحَلَّتِ

أَسيئي بِنا أَو أَحسِني لا مَلومَةً ... لَدَينا وَلا مَقلِيَّةً إِن تَقَلَّتِ

٩ ـ التخييرُ: وهو الطلب من المخاطب أن يختار بين أمرين أو أكثر، مع امتناع الجمع بين الأمرين أو الأمور التي يطلب إليه أن يختار بينهما. نحو قوله تعالى: (فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً). ومنه قول الشاعر:

إِذا كُنتَ في كُلِّ الذُنوبِ مُعاتِباً ... صَديقَكَ لَم تَلقَ الَّذي لا تُعاتِبُه

فَعِش واحِداً أَو صِل أَخاكَ فَإِنَّهُ ... مُفارِقُ ذَنبٍ مَرَّةً وَمُجانِبُه

إِذا أَنتَ لَمْ تَشرَب مِراراً عَلى القَذى ظَمِئتَ وَأَيُّ الناسِ تَصفو مَشارِبُه

وقول الشاعر:

وعِش إمَّا قرين أخٍ وفيّ أمينِ الغيبِ أو عيشَ الوحادِ

١٠- التسويةُ: وهو الطلب في مقام يتوهم فيه إن احد الشيئين أرجح من الآخر والحال أنهما متساويان نحو قوله تعالى: (قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ) التوبة:٥٣.وقوله تعالى: (اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) الطور:١٦. وقوله: (قُلْ آَمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا) الإسراء:١٠٧. فقد يتوهم المخاطب في هذه النصوص رجحان أحد الفعلين على غيره فدفع ذلك بالتسوية بينهما.

١١ . الإكرامُ: وذلك عندما نستعمل صيغة الأمر في سياق بيان الاهلية والاستحقاق، كقوله تعالى: (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آَمِنِينَ)الحجر ٤٥-٤٦، وقوله تعالى: (الَّذِينَ آَمَنُوا بِآَيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ) الزخرف ٦٩-٧٠، وقوله تعالى: {ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ}[١].

١ سورة الحجر الآية (٤٦)

١٢- الامتنانُ: كقوله تعالى:(وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ) المائدة :٨٨. وقوله تعالى :(فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) النحل ١١٤.

١٣- الإهانةُ والتحقيرُ: وهو الأمر الصادر بقصد الاستصغار والإقلال من شأن المخاطب وعدم الاعتداد به، وقلة الاكتراث لأمره .ومنه قوله تعالى (ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ) الدخان ٤٩.وقوله تعالى : (بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) النساء ١٣٨. ونحو قوله تعالى: (قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا)، أو نحو قول جرير يهجو الشاعرَ النميريَّ:

فَغضَ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ ... فَلا كَعْباً بَلَغْتَ وَلا كِلابَا

١٤ . الدوامُ، وهو الأمر الذي يكون متحققا عند الطلب ويراد الاستمرار والمداومة عليه، كقوله تعالى (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) الفاتحة :٦، وقوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا) النساء : ١٣٦.

١٥. الاعتبارُ: حين تستعمل الصيغة في مقام أخذ العظة والعبرة، كقوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ

أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) الأنعام ٩٩.

١٦. الإذنُ:نحو قولك: (ادخلْ) لمن طرقَ الباب. ونحو قوله تعالى لأهل الجنة: {ادْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ آمِنِينَ}.

١٧. التكوينُ: نحو قوله تعالى: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}يس٨٢، التكوينُ: الخلقُ . وهو قريب من التسخير إلا أن هذا أعم .

١٨. التأديبُ، نحو قول الرسول ﷺ لعمر بن أبي سلمة:« يَا غُلاَمُ سَمِّ اللَّهَ ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ ».

١٩. التعجّبُ، حين تستعمل الصيغة في سياق الاستغراب والاندهاش من حدث ظاهر للعيان، كقوله تعالى: (أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ)[١]، ومنه قوله تعالى: (انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا) النساء:٥٠. وقوله تعالى: (انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا) الإسراء :٤٨.

٢٠. التسخير: هو التذليل والاهانة، كقوله سبحانه تعالى: (كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ)[٢]، ويسميه ابن فارس "التكوين"[٣].

---

١ سورة مريم الآية (٣٨)

٢ سورة الأعراف الآية (١٦٦) وخاسئين : مبعدين مطرودين لا يسمح لكم بالقرب من الناس .

٣ الصاحبي ص ١٨٥

٢١. الاحتقار: كقوله تعالى: (أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ)[١]، وبعضهم يجمع الإهانة والاحتقار في غرض واحد.

٢٢. التسليم: كقوله تعالى: (فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ)[٢].

٢٣. الندب: كقوله تعالى: (فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ)[٣].

٢٤. التلهيف والتحسير: كقوله تعالى: (قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ)[٤].

٢٥. الوجوب: كقوله تعالى: (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ)[٥].

٢٦. الخبر: ويكون أمرا والمعنى خبر، كقوله تعالى: (فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً)[٦]، والمعنى: إنهم سيضحكون قليلا ويبكون كثيرًا.

٢٧. التفويض: كقوله تعالى: (فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ)[٧].

٢٨. التكذيب: كقوله تعالى: (قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا)[١]، وقوله: (قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا)[٢].

---

١ سورة يونس الآية (٨٠)

٢ سورة طه الآية (٧٢)

٣ سورة الجمعة الآية (١٠)

٤ سورة آل عمران الآية (١١٩)

٥ سورة البقرة الآية (٤٣)

٦ سورة التوبة الآية (٨٢)

٧ سورة طه الآية (٧٢)

٢٩. المشورة: كقوله تعالى: (فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ)[3].

ويرى السبكي ونحن معه أن في غالب هذه المعاني نظرا[4].

س– قدْ يخرج الأمرُ عن معناه الحقيقيِّ لسببٍ بلاغيٍّ عدد خمساً من الأسبابِ البلاغيةِ قد خرج الأمرُ فيها عن معناهُ الحقيقيِّ مع التمثيل.

نمـــوذجٌ

لبيانِ صيغ الأمر وتعيين المراد من كل صيغة فيما يأتي:

(١) قال تعالى خطاباً ليحيى عليه السلام: {يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا} (١٢) سورة مريم.

(٢) قال الأرجانيُّ:

شاوِرْ سَواكَ إِذا نابَتْكَ نائبةٌ .. يوماً وإنْ كنتَ منْ أهلِ المَشوراتِ

(٣) وقال أبو العتاهية:

واخفِضْ جناحكَ إن مُنِحْتَ إمَارةً ... وارْغَبْ بنَفسِكَ عن رَدَى اللذات

(٤)وقال أبو العلاء:

فيا موت زُرْ إنَّ الحَياةَ ذَميمةٌ ... ويَا نَفْسُ جدِّي إنَّ دهْرَكِ هازلُ

---

١ سورة آل عمران الآية (٩٣)

٢ سورة الأنعام الآية (١٥٠)

٣ سورة الصافات الآية (١٠٢)

٤ تنظر : هذه الأغراض في الصاحبي ص ١٨٤ ، ومفتاح العلوم ص ١٥٢ ، والإيضاح ص ١٤٣ ، وشرح التلخيص ٢ / ٣١٣

(٥) وقال آخر:

أرِيني جَواداً ماتَ هَزْلاً، لَعَلّني ... أرى ما تَرَينَ، أوْ بَخيلاً مُخَلَّدا

(٦) وقال خالد بن صفْوَان ينصح ابنه:دع مِنْ أعمال السر ما لا يَصْلحُ لكَ في العلانيَةِ.

(٧) وقال بشار بن بُرد:

إذا كنتَ في كُلِّ الأُمُورِ مُعاتِباً ... صَدِيقَكَ، لم تَلْقَ الذي لا تُعاتِبُهْ

فعِشْ واحداً، أو صِلْ أخاك، فإنَّهُ ... مُقارِفُ ذَنْبٍ تارَةً ومُجانِبُهْ

(٨) و قال تعالى: {وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ} (٣٠) سورة إبراهيم.

(٩) و قال أبو الطيب يخاطب سيف الدولة:

إذا الجُودِ أعْطِ النّاسَ ما أنتَ مالكٌ ... وَلا تُعْطِيَنّ النّاسَ ما أنَا قائِلُ

(١٠) و قال قطري بن الفُجَاءَة يخاطب نفسه:

فَصَبْراً في مَجالِ المَوْتِ صَبْراً ... فَما نَيْلُ الخُلُودِ بِمُسْتَطاعِ

الإجابـــةُ

الرقم	صيغة الأمر	المعنى المراد	الرقم	صيغة الأمر	المعنى المراد
١	خذ الكتاب	المعنى الحقيقي	٦	دع من	الإرشاد

		للأمر		أعمال السر	
٢	شاور سواك	الإرشاد	٧	فعش واحداً أو صل أخاك	التخير
٣	واخفض جناحك وارغب بنفسك	الإرشاد الإرشاد	٨	قل تمتعو	المعنى الحقيقي للأمر
٤	زر جدي	التمني التمني	٩	أعط الناس	دعاء
٥	أريني	التعجيز	١٠	صبراً	المعنى الحقيقي للأمر

ثانيًا– النَّهي

تعريفُه: هو طلبُ المتكلّمِ من المخاطبِ الكفَّ عن الفعلِ، على سبيلِ الاستعلاءِ والإلزام.

أداتُه:

بصيغةِ المضارعِ المدخولِ عليها بلا الناهيةِ الجازمة: كقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا)النساء ٤٣.وقوله تعالى:(وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا)[1]. وكقوله تعالى: (وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ).

الأغراض البلاغية لأسلوب النهي:

قد تخرج صيغة النهي عن أصل معناها إلى معان أخرى؛ فيُستفادُ من النهيِ معانٍ أخرَى مجازا تفهم من سياق الكلام وقرائن الأحوال وأهمها:

١– الدعاءُ: ويكون إذا كان الخطاب بالنهي متوجهًا إلى الله – جلَّ وعلا– على سبيل التضرع، ومنه قوله تعالى:(وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ)[2]، وقوله تعالى: (وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ

---

[1] سورة الحجرات الآية (١٢)

[2] سورة الأنبياء، الآية (٨٩).

الْكَافِرِينَ دَيَّارًا) نوح: ٢٦. (رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا)[1]، وقوله: (رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا)[2].

٢– الرجاء: وهو النهي الموجه من الأدنى رتبة إلى الأعلى رتبة، ومنه قول كعب ابن زهير– رضي الله عنه– مخاطبا الرسول – صلى الله عليه وسلم –:

لا تَأَخُذَنّي بِأَقوالِ الوُشاةِ وَلَم   أُذنِب وَلَو كَثُرَت عَنّي الأَقاويلُ

ومنه قول المتنبي مخاطبا سيف الدولة:

أَخا الجودِ أَعطِ الناسِ ما أَنتَ مالِكٌ   وَلا تُعطِيَنَّ الناسَ ما أَنا قائِلٌ

٣– الالتماسُ: وهو النهي الصادر من رتبة إلى رتبة مساوية لها في القدر والمنزلة، كقولك لأخيكَ: (لا تفعلْ خلافَ رضايَ). وكقوله تعالى على لسان هارون مخاطبا موسى – عليهما وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام – : (قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي)[3]، ومنه قوله تعالى: (قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ)[4]، ومنه قول الشاعر في مخاطبة صاحبيه:

---

١ سورة البقرة الآية (٢٨٦)

٢ سورة آل عمران الآية (٨)

٣سورة طه الآية (٩٤)

٤ سورة يوسف، الآية (١٠).

خَليلَيَّ عوجا مِنكُما ساعَةً مَعي ... عَلى الرَبعِ نَقضِ حاجَةً وَنُوَدِّعُ

وَلا تَعجَلاني أَن أُلِمَّ بِدمنةٍ ... لِعَزَّةَ لاحَت لي بِبَيداءَ بَلقَعِ

ومنه قول الشاعر في مخاطبة اصحابه:

وَقالوا لَقَد كُنّا نَعُدُّكَ مَرَّةً ... جَليداً وَما هَذا بِفِعلِ فَتىً جَلدِ

أَلا لا تَلوماني فَلَستُ وَإِن نَأَتِ ... بِمُنصَرِمٍ عَنها هَوايَ وَلا وُدّي

٤- النصحُ والإرشادُ: وهو النهي الذي لا إلزام فيه وإنما هو نصيحة وموعظة خالصة، كقوله تعالى: (وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللّهُ)[1]، وكقوله تعالى: (لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ). ومنه قول الشاعر:

لا تأمننَّ صروفَ الدهر مُغمِضَةً ... إغماضَ ليثٍ من الأرواح مُمتارِ

الدَّهرُ سالبُ ما أعطى ومانِعُهُ ... فما الصّنيعُ بدينارٍ وقِنطارِ

ومنه قول الشاعر:

لا تَطمَعنَ وَاقنع ... لا تَخضعن لِمَطمع

لا تَقبَلن ما تَسمَع ... فَعاجر مَن يَخدع

ومنه قول الشاعر:

لا تَسمَعوا كذب الوعود ... أعداؤُنا خانوا العُهود

٥- التمنّي: عندما تكون صيغة النهي موجهة إلى ما لا يعقل، كقول الشاعرِ:

طلعنا ندلّي الضحى ذاتَ يومٍ ... ونهتفُ : يا شمسُ لا تغربي

---

[1] سورة البقرة الآية (٢٨٢)

ومنه قول الشاعر:

لا تسَأمي يا ناق مِن طُول السُرى وَلتبشري في سعة المَراح

ومنه قول الشاعر:

لا تبزغي يا شمس كي لا ترى زين ب حرى ما عليها خمار

ومنه قول الخنساء:

أَعَينَيَّ جودا وَلا تَجمُدا أَلا تَبكِيانِ لِصَخرِ النَدى

ومنه قول الشاعر:

يا ليل طل يا نوم زل يا صبح قف لا تطلع

٦- التيئيسُ: عندما تستعمل صيغة النهي في مقام عدم الجدوى من ذلك الفعل، ويراد إدخال المخاطب في دائرة قطع الأمل من حصول مراده وإيصاله إلى اليأس من الاستمرار في طلب ذلك الفعل. كقوله تعالى عن المنافقين: (لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ) التوبة :٦٦. وقول الشاعر:

لا تَطلُبَنَّ كَريماً بَعدَ رُؤيَتِهِ إِنَّ الكِرامَ بِأَسخاهُم يَداً خُتِموا

ولا تُبالِ بِشِعرٍ بَعدَ شاعِرِهِ قَد أُفسِدَ القَولُ حَتّى أُحمِدَ الصَمَمُ

وقول آخر:

قد قلتُ للغيث الرُّكامِ وِلجَّ في إبْراقهِ وأَلحَّ في إرْعادهِ

لا تعرضَنَّ لجعفرٍ مُتَشبِّهاً بندى يديْهِ فلسْتَ من أندادهِ

اللهُ شرَّفهُ وأعلى ذِكرهُ ورآهُ غيثَ بلادهِ وعبادهِ

يزدادُ إبقاءً على أعدائهِ أبداً وإفضالاً على حسَّادهِ

أمرَ العطاءَ ففاضَ من جمّاتهِ ونهى الصَّفيحَ فقرَّ في أغمادهِ

٧- التهديدُ، عندما نستعمل صيغة النهي في مقام عدم الرضا بذلك المنهي عنه ، ويراد منه أن يخوف المخاطب من عاقبة القيام بفعل لا يرضى عنه المتكلم كأن تقول لمن هو أدنى مرتبة منك، نحو: لا تتمثل أمري وسترى عاقبة ذلك، وقولك: لا تسمع كلامي وسأريك ما أنا صانع بك، وقولك: لا تؤد واجباتك وستعرف النتيجة قريبا. وكقولك لولدك مهددًا: (لا تذهبْ إلى مجالسِ البطالينَ).

٨- التوبيخُ: وهو استعمال صيغة النهي في مقام الطلب من المخاطب أن يكفّ عن عمل لا يليق به، كقوله تعالى: (وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)[١]، و كقول أبي الأسود الدؤلي:

لا تَنهَ عَن خُلُقٍ وَتَأتِيَ مِثلَهُ عارٌ عَلَيكَ إِذا فَعَلتُ عَظيمُ

ابدأ بِنَفسِكَ وَانهَا عَن غِيِّها فَإِذا انتَهَت عَنهُ فَأَنتَ حَكيمُ

فَهُناكَ يُقبَل ما وَعَظتَ وَيُقتَدى بِالعِلمِ مِنكَ وَيَنفَعُ التَعليمُ

وقول الشاعر:

---

١ سورة البقرة الآية (٤٢)

دنوت للمجد والسَّاعون قد بلغوا جهد النُّفوس وشدُّوا دونه الأزرا

وساوروا المجد حتَّى ملَّ أكثرهم وعانق المجد من وفَّي ومن صبرا

لا تحسب المجد تمراً أنت آكله لن تبلغ المجد حتَّى تلعق الصَّبرا

٩- التحقير: عندما يراد من الصيغة الإزراء بالمخاطب والتقليل من شأنه وقدراته، كقول الحطيئة يهجو الزبرقان بن بدر:

دَعِ المكارِمَ لا تَرْحَلْ لِبُغْيَتِها واقْعُدْ فإنَّك أنتَ الطَّاعِمُ الكاسي

وقول الشاعر:

لا تطلب المجد إن المجد سلمه صعب وعش مستريحاً ناعم البال

وقول الشاعر: لا تطلب المجد واقنع فمطلب المجد صعب

١٠- الدوامُ: كقوله تعالى: (وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ).

١١- بيانُ العاقبةِ: كقوله تعالى: { وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ}. وكقوله تعالى: (وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلا)[١]، أي: عاقبة الظلم العذاب لا الغفلة[٢].

١٢- الكراهةُ: نحو (لا تشْتمَّ الريحانَ في يومِ الصومِ).

١٣- الإيناسُ: كقوله تعالى:{ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا ...}.

---

١ سورة إبراهيم الآية (٤٢)

٢ تنظر : هذه الأغراض المجازية في مفتاح العلوم ص ١٥٢ ، والإيضاح ص ١٤٥ ، وشروح التلخيص ٢ / ٣٢٥

١٤- الاعتبار:نحو قوله – ﷺ – لَمَّا مَرَّ بِالْحِجْرِ: «لاَ تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا إِلاَّ أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ ، أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ » .

نـــــموذجٌ

بيّن صبغةَ النهي والمراد منها في كل مثال من الأَمثلة الآتية:

(١) قال تعالى: {وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا .. (٥٦) سورة الأعراف.

(٢) وقال أبو العلاء:

لا تَحلِفَنّ على صِدقٍ ولا كَذِبٍ فما يُفيدُكَ، إلاّ المأثمَ، الحَلِفُ

(٣) وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} (١١) سورة الحجرات.

(٤) وقال تعالى عن المنافقين:{لاَ تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ...}(٦٦) سورة التوبة.

(٥) وقال البحتري يخاطب المعتمد على الله:

لاَ تَخلُ من عَيشٍ يكُرُّ سرُورُهُ أبَداً، وَنيْرُوزٍ عَلَيْكَ مُعَادِ

(٦) وقال الغَزي:

ولا تُثْقِلاَ جيدي بمِنةِ جاهل... أرُوحُ بهَا مِثْل الْحَمَام مُطَوَقا

(٧) و قال آخر:

لا تطلُبِ المجدَ إِنَّ المجدَ سُلَّمه ... صعبٌ وَعِشْ مُسْتريحاً نَاعِمَ الْبَالِ

(٨) وقالت الخنساء ترثي أخاها صخرًا

أعيْنَيَّ جُودا ولاَ تَجْمُدَا ... ألا تبكِيانِ لِصخْرِ النَّدى

(٩)وقال خالدُ بنُ صفْوان:لا تطلبوا الحاجاتِ في غير حِينهَا، ولا تطلبوا مِنْ غير أهْلِها.

الإِجــابةُ

الرقم	صيغة النهي	المعنى المراد	الرقم	صيغة النهي	المعنى المراد
١	ولا تفسدوا	المعنى الحقيقي للنهي	٦	لا تثقلا	الالتماس
٢	لا تحلفن	الإرشاد	٧	لا تطلب	التحقير
٣	لا يسخر	التوبيخ	٨	لا تجمدا	التمني
٤	لا تعتذروا	التيئيس	٩	لا تطلبوا	الإرشاد

٥	لا تخل ولا تطلبوا	الدعاء			

ثالثًا– الاستفهامِ

تعريفُه: هو طلبُ الفهم، فيما يكونُ المستفهَمُ عنه مجهولاً لدى المتكلّم، أو هو طلب العلم بشيء لم يكن معلوما من قبل بأداة خاصة. وقد يكونُ لغيرِ ذلك كما سيأتي،

أدواته: يقعُ الاستفهام بأدوات عديدة، تقسم على قسمين:

أ– الحروف: هما :الهمزة (أ): كقوله تعالى: (قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آَلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ). و(هلْ): كقوله تعالى: (فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ).

ب– الأسماء: وهي: "مَن، وما، ومتى، وأيَّان، وأين، وكيف، وأنى، وكم، وأي".

أقسامُ أدواتِ الاستفهامِ بحسب ما يُطلب بها:

تنقسمُ أدواتُ الاستفهام بحسب ما يطلب بها إلى ثلاثة أقسام[٢٢]:

١– ما يطلب به التَّصوُّر تارة، والتَّصديق تارة أخرى، وهو: الهمزة.

٢ – ما يطلب به التصديق فقط، وهو: هل.

٣ – ما يطلب به التَّصوُّر فقط، وهو بقية ألفاظ الاستفهام المتقدمة.

والتصوّرُ:

هو إدراكُ المفردِ، بمعنى أنْ لا يكونَ هناك نسبةٌ، فيقصد به إدراك أحد أجزاء الجملة عندما يكون السائل عالما بالحكم ولكنه يجهل أحد أجزاء البناء. نحو قولك: أمُحَمَّد ناجح أم علي؟ فأنت هنا لا تسأل عن النجاح، فهو أمر حاصل ومفروغ منه، وإنما أنت تسأل فقط عن تعيين الذي نجح، أهو مُحَمَّد أم علي؟ وبطريقة أخرى: أنت تعتقد أن أحدهما ناجح، ولكنك لا تعرف من هو على سبيل القطع، فتطلب تعيينه، ويكون الجواب بتعيين الناجح منهما.

والمسئول عنه في التصور هو ما يقع حد الهمزة مباشرة، ويذكر له بعد أم معادل من نوعه؛ فإذا كان ما بعد الهمزة اسمًا ذكرت بعد أم اسمًا يعادله، وإذا كان ما بعد الهمزة فعلًا، ذكرت بعد أم فعلا يعادله، وإذا كان ما بعد الهمزة مفعولا أو حالا ذكرت بعد أم مفعولا أو حالا يعادله، وهلم جرا.

ويكون الجواب بتعين المستفهم عنه. فـ (زيدٌ) و(عمرٌو) و(القرآنُ) و(اللهُ) ... ونحوها كلُّها مفردٌ، فهي تصوراتٌ.

وتسمى أم الواقعة بعد همزة التصور: متصلة: أي أن ما قبلها متصل ما بعدها، ولا يستغني أحدهما عن الآخر.

مثال الاسم بعد همزة التصور، وما يعادله بعد أم: أمُحَمَّد مسافر أم علي أخالد حضر أم محمود؟.

مثال الفعل بعد همزة التصور، وما يعادله بعد أم: أسافر مُحَمَّد أم أقام؟، أيكتب علي أم يقرأ؟.

مثال المفعول بعد همزة التصور، وما يعادله بعد أم: أبرتقالًا أكلت أم تفاحًا؟، أسيارة تركب أم قطارًا؟.

مثال الحال بعد همزة التصور، وما يعادله بعد أم: أطائرًا جئت أم مبحرًا؟، أمستفهمًا تكتب أم ناقدًا؟.

مثال المجرور بعد همزة التصور، وما يعادله بعد أم: أفي الكلية مكثت أم في المعسكر؟، أفي المنزل تنظر أم في النادي؟.

مثال الظرف بعد همزة التصور: وما يعادله بعد أم: أيوم السبت تظهر النتيجة أم الإثنين؟، أنهارًا حضرت أم ليلًا؟.

ويُراعى ذلك في كل تركيب مع همزة التصور: أن يكون ما بعد أم معادلا لما بعد الهمزة.

انظر إلى قوله تعالى:

(قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّه)[1].

(ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)[2].

---

١ سورة البقرة الآية (١٤٠)

٢ سورة يوسف الآية (٣٩)

(أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ)[١].

وانظر أيضًا إلى قوله تعالى: (يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ)[٢].

(أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا)[٣].

(لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ)[٤].

وانظر إلى قوله تعالى: (أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ۖ)[٥].

تجد ما بعد أم مماثلا لما بعد همزة الاستفهام سواء أكان اسمًا أم فعلًا أم حرفًا.

وأحيانا يستغنى عن ذكر المعادل، فلا يذكر في الكلام، ولكن نقدره في النفس: فنقول مثلا: أمحمد نجح؟ ونكتفي، دون أن تذكر المعادل، وأم، ويكون التقدير أحمد نجح أم على؟ والاستغناء عن ذكر المعادل قد ورد في القرآن الكريم: قال تعالى: (ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ)[٦].

---

١ سورة الدخان الآية (٣٧)

٢ سورة النحل الآية (٥٩)

٣ سورة مريم الآية (٧٨)

٤ سورة النمل الآية (٤٠)

٥ سورة الأعراف الآية (١٩٥)

٦ سورة الأنبياء الآية (٦٢)

والتقدير: أأنت فعلت هذا أم غيرك، ولكنه استغنى عن ذكر المعادل، هذا هو التصور، فيا التصديق؟.

والتصديقُ:

هو إدراكُ النسبةِ الواقعة بين الطرفين (المسند إليه والمسند) – أي نسبةُ الفعل إلى فاعلِهِ أو المبتدأُ إلى خبرِهِ – ثبوتا أو نفيا، وذلك عندما يكون السائل عالما بأجزاء الإسناد ويجهل الحكم أو مضمون الجملة، فهو يسأل ليقف على هذا الحكم. فـ (زيدٌ قائمٌ) و(اللهُ عالمٌ) و(محمدٌ– ﷺ– نبيٌّ)... ونحوها كلُّها نسبةٌ، فهي تصديقاتٌ .

فالسؤال لا يكون لتعيين المفرد كما في التصور، بل يكون عن مضمون الجملة، وهذا يسمى بالتصديق، فإذا قلت –مثلا–: أحضر الأستاذ؟ فأنت تتصور الحضور، كما نتصور الأستاذ، أي تتصور المسند والمسند إليه، ولذلك لا تسأل عن أيهما، ولا تطلب تعيين واحد منها، وإنما أنت تسأل فقط عن نسبة الحضور للأستاذ، هل تحقق الحضور من الأستاذ أو لم يتحقق؟ فإذا كان قد تحقق، يكون الجواب بنعم، وإلا يكون الجواب لا.

والتصديقُ كما يكونُ في الإثباتِ، نحوَ: (محمدٌ رسولُ الله)، كذلكَ يكونُ في النفيِ، نحو (أبو جهلٍ فاسقٌ). مثل:

– أعاد المسافر؟

– هل وصل الغائب؟

ويكون الجواب فيه(بنعم)في حالة الإيجاب وبـ(لا)في حالة السلب. وهمزة التصديق لا يذكر بعدها أم، فإن جاءت بعدها أم، قدرت منقطعة بمعنى بل، أي فيها معنى الإضراب عن الكلام السابق كأنه لم يكن، وما بعدها هو الكلام المعتمد المطلوب السؤال عنه، ويشترط أن يكون جملة. كقول الشاعر:

ولست أبالي بعد فقدي مالكا أموتي ناءٍ أم هو الآن واقع؟

فأم هنا منقطعة تفيد معنى الإضراب عن الكلام السابق، وهو قوله (أموتي ناء)، ويكون السؤال عن إدراك النسبة في قوله: أموتي الآن واقع، وهو جمله كما ترى.

فـ(أم) إذا وقعت بعد همزة التصور كانت متصلة: أي متصلة بما قبلها فلا تلغي الكلام السابق، و(أم) إذا وقعت بعد همزة التصديق كانت منقطعة أي تكون بمعنى بل التي تفيد الإضراب عن الكلام السابق.

همزةُ الاستفهامِ:

منْ أدواتِ الاستفهام الهمزةُ، وهي مشتركةٌ، فتأتي تارةً لطلبِ التصورِ، وأخرى لطلبِ التصديقِ، أمَّا ما كانَ لطلبِ التصوّرِ، فيلي الهمزةَ المسئولُ عنهُ، والسؤالُ حينئذٍ عن المفرد لا النسبةِ، بمعنى: أنَّ السائلَ يعلمُ بالنسبةِ، وإنما لا يعلمُ شيئاً من أطرافِها. فمثلاً يعلمُ أنهُ (وقعَ) فعلٌ ما، لكنهُ لا يعرفُ المسنَد، أو المسنَد إليه، أو المفعولَ، أو الحالَ، أو الظرفَ، أو الصفةَ.. أو نحوها.

- ففي نحو: (ضربَ زيدٌ عمراً، راكباً، في الصحراءِ) يقعُ المجهولُ بعد همزة الاستفهامِ.
- فتقولُ في الجهلِ بالفعلِ: (أضربَهُ أمْ قتلَهُ)؟
- وتقولُ في الجهلِ بالفاعلِ: (أزيدٌ الضاربُ أمْ بكرٌ)؟
- وتقولُ في الجهلِ بالمفعول: (أعمراً المضروبَ أمْ مُحَّماً) ؟
- وتقولُ في الجهلِ بالصفة: (أعمراً القائدُ أمِ التاجرُ)؟
- وتقولُ في الجهل بالحالِ: (أراكباً كانَ زيدٌ أمْ راجلاً)؟
- وتقولُ في الجهلِ بالظرفِ: (أفي الصحراءِ أمْ في البلدِ)؟ وقد علِم من هذه الأمثلة: أنَّ النسبةَ معلومةٌ، وإنما المجهولُ مفردٌ من المفرداتِ.

وأمَّا ما كانَ لطلبِ التصديقِ، فالهمزةُ تدخلُ على الجملةِ، والسؤالُ يقع عن النسبةِ، كقولكَ: (أجاءَ زيدٌ؟) فيما لم تعلمْ بالمجيء. ثمّ إنَّ الغالبَ أن يؤتَى للهمزةِ التي لطلبِ التصور بمعادلٍ، كما عرفتَ في الأمثلة: من معادلةِ (أمْ) للهمزة، وبخلافِ طلب التصديقِ فلا يؤتَى للهمزة بمعادلٍ، كما تقدَّم في المثال.

ثمَّ إنَّ جوابَ الهمزة التي لطلبِ التصور: تعيينُ أحدِ الشِّقين:

فتقولُ في السؤال الأول: (ضربَهُ).

وتقولُ في السؤال الثاني: (زيدٌ).

وتقولُ في السؤال الثالث: (عمراً). وهكذا...

بخلاف الهمزةِ التي لطلبِ التصديق، فالجوابُ: (نعمْ) أو (لا).

هل الاستفهامية:

من أدواتِ الاستفهامِ هلْ، وهي مختصةٌ بطلبِ التصديقِ، فيرادُ بها معرفةُ وقوع النسبةِ وعدم وقوعها، ولذا لا يذكرُ معها معادلٌ، كما يكونُ جوابها: (نعمْ) أو (لا) ، تقولُ: (هلْ قامَ زيدٌ)؟ والجواب: (نعم) أو: (لا).

وتنقسمُ هلْ إلى:

١- بسيطةٍ: وهي أن يكون المستَفهَمُ عنه بها وجودَ الشيء وعدمَه، كما تقولُ: (هل العنقاء موجودة)؟ الجواب : لا ، ونحو: هلِ الخلُّ الوفيُّ موجودٌ؟

٢- مركبةٌ: وهي أن يكون المستفهَمُ عنه بها صفةً زائدةً على الوجودِ، كما تقول: (هلِ الخفاشُ يبصرُ)؟ ونحو هلِ النَّباتُ حسَّاسٌ؟

ومما تقدم نتبين أن همزة الاستفهام تأتي أحيانا للتصور وأحيانا تأتي للتصديق.

أما هل فإنها تأتي للتصديق فقط، أي معرفة وقوع النسبة بين المسند والمسند إليه أو عدم وقوعها، مثل: هل انكسر الزجاج ؟ هل الكواكب سيارة؟ هل أنت بخير؟.

فالسؤال هنا ليس عن المسند فقط، وليس عن المسند إليه فقط، وإنما السؤال عن نسبة أحدهما للآخر.

ولكون هل مختصة بطلب التصديق امتنع أن يذكر معها المعادل بعد أم المتصلة[1].

فيمتنع أن تقول: هل زينب نجحت أم عائشة؟

فأم هنا متصلة وليست منقطعة؛ لأن بعدها مفردة وليس جملة. وهذا التركيب ممتنع؛ لأن ما بعد أم مفرد، وهذا يفيد أن السائل عالم بالحكم: عالم بحصول النجاح، ولكنه يسأل فقط عن تعيين التي نجحت، أهي زينب أم عائشة، أي عن تعيين المفرد، ولكن هل تأتي للتصديق، أي لتفيد إدراك النسبة، ولا يسأل بها عن تعيين المفرد، فوجود أم في هذا التركيب يفيد العكس، فيحصل التناقض عند الجمع بين هل وأم المتصلة؛ لأن (هل) تأتي لتفيد التصديق وإدراك النسبة بين شيئين. و(أم) المتصلة تأتي لتفيد تعيين المفرد.

أما إذا قدرنا بعد أم جملة، واعتبرنا أم هنا منقطعة تفيد معنى الإضراب عن الكلام السابق، صح التركيب؛ لأن ما بعد أم يُعدُّ كلامًا جديدًا مستأنفًا منقطعًا عما قبله، يطلب إدراك ما فيه من نسبة: أي ثبوت النجاح لعائشة، أو عدم ثبوته، دون تعرض لذكر زينب.

وجملةُ القول: إنَّ العلمَ إنْ كانَ إذعاناً للنسبةِ فتصديقٌ، وإلا فتصوُّرٌ.

أما سائر أدوات الاستفهام فهي للتصور على النحو التالي:

---

١ انظر : شرح التلخيص للقزويني ص ٨٤ ط دمشق ، وشرح المختصر للتفتازاني ١\٢٠٤ وما بعدها ن وجواهر البلاغة للهاشمي ص ٨٨ وما بعدها وعلم المعاني د درويش ص ٤٥ وما بعدها .

بقيةُ أدواتِ الاستفهام:

١- (مَنْ): موضوعةٌ للاستفهامِ عن العقلاء، فيستفهم بها عن العاقل، كقولك : من شيد الأهرام؟ وكقوله تعالى: (فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ)[1]. (فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا)[2]، (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا)[3]، (فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً)[4]، ومثل قوله تعالى: {قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى}. طه ٤٩-٥٠، وقوله تعالى: {قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ}.الأنبياء :٥٩ -٦٠. كقوله تعالى: {مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا}. وقد ينعكسُ، فتستعملُ (ما) للعاقلِ، و(مَن) لغيرِه.

٢- (ما): تكونُ للاستفهام عن غير العقلاءِ، فيستفهم بها عن غير العاقل، كقولك: ما البلاغة؟ وكقوله تعالى: (وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ۗ)[5]، وكقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ)[6]، وكقوله تعالى: (وَمَآ

---

١ سورة التحريم الآية (٣)

٢ سورة غافر الآية (٢٩)

٣ سورة العنكبوت الآية (٦٨)

٤ سورة فصلت الآية (١٥)

٥ سورة البقرة الآية (٢١٩)

٦ سورة الانفطار الآية (٦)

أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَمُوسَىٰ)[1]، وكقوله تعالى: (مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ)[2]، وكقوله تعالى: {وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى}. طه ١٧- ١٨. وكقوله تعالى: {أَمْ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}. وهي أقسامٌ :

- الأول: إيضاحُ الاسمِ، نحو ما الْعَسْجَدُ؟ فيقال في الجواب: إنه ذهبٌ.
- الثاني: بيانُ حقيقةِ الشيء، مثلاً يقال: (ما الأسدُ)؟ فيقالُ في الجواب: (حيوانٌ مفترسٌ). ونحو: ما الشمسُ؟ فيجابُ بأنها كوكبٌ نهاريٌّ.
- الثالث: بيانُ صفةِ الشيءِ، مثلاً يقالُ: (ما الحيوانُ)؟ فيقال في الجواب: (حساسٌ متحركٌ بالإرادةِ). أونحو: ما خليلٌ؟ . وجوابهُ طويلٌ أو قصيرٌ، وهكذا.

٣- (متَى): موضوعةٌ للاستفهامِ عن الزمانِ، ماضيًا كان أم مستقبلًا، نحو قوله تعالى: {وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ}[3]، وقوله تعالى: {وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}[4]، وقوله تعالى: (وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)[5]، وقوله تعالى: (فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ

---

١ سورة طه الآية (٨٣)

٢ سورة الأنبياء الآية (٥٢)

٣ سورة البقرة الآية (٢١٤)

٤ سورة يونس الآية (٤٨)

٥ سورة السجدة الآية (٢٨)

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا)[١]، ونحو: متى توفيَ رسولُ الله ﷺ؟

٤- (أيَّانَ): موضوعةٌ للاستفهامِ عن زمان المستقبلِ خاصة، وتستعمل في مواضع التفخيم والتهويل،كقوله تعالى:{يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ}[٢]. وكقوله تعالى: {يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ}[٣]، وقوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا}[٤]. وقوله تعالى: {أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْيَاء وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ}[٥].

٥ - (كيفَ): موضوعةٌ للاستفهامِ عن الحالِ، فيستفهم بها عن الحال، كقوله تعالى: {أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ}.الغاشية ١٧-٢٠. وكقوله تعالى:{كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}.وكقوله تعالى: {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا)[٦]، وكقوله تعالى: (انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا)[٧]، وكقوله تعالى: (فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ)[٨]، وقوله تعالى:

---

١ سورة الإسراء الآيه (٥١)

٢ سورة الذاريات، الآية:١٢.

٣ سورة القيامة الآية (٦)

٤ سورة الأعراف الآية (١٨٧)

٥ سورة النمل الآية (٦٥)

٦ سورة النساء الآية (٤١)

٧ سورة النساء الآية (٥٠)

٨ سورة الأعراف الآية (٨٦)

(أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ)[١]، وقوله تعالى: (فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ)[٢]، وقوله تعالى: {فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ}.

٦- (أينَ): موضوعةٌ للاستفهام عن المكانِ؛ فيستفهم بها عن المكان، كقولك : أين كتابك؟ وكقوله تعالى: {يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ}[٣]، وكقوله تعالى:({ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ}[٤]. وكقوله تعالى: (أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ)[٥]، وكقوله تعالى: (فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ)[٦].

٧- (أنَّى): موضوعةٌ للاستفهامِ، وتأتي بأكثر من معنًى، فتأتي:

أ- يسأل بها عن الحال فتكون بمعنى(كيف): كقوله تعالى: (قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ)[٧]. وكقوله تعالى: {أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ

---

١ سورة العنكبوت الآية (١٩)
٢ سورة الملك الآية (١٧)
٣ سورة القيامة الآية (١٠)
٤ سورة الأنعام الآية (٢٢)
٥ سورة الأعراف الآية (٢٢)
٦ سورة التكوير الآية (٢٦)
٧ سورة آل عمران (٤٠)

بَعَثَهُ...}[١]. وكقوله تعالى: (هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ)[٢].

ب- وأحيانا يسأل بها عن المكان فتكون بمعنى (من أين): كقوله تعالى: (كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)[٣]، وكقوله تعالى: (نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ)[٤].

ت- بمعنى (متى): كقولك: أنى تسافر؟ وتقول: (زرْهُ أنَّى شئتَ؟).

٨- (كم): موضوعةٌ للاستفهام عن عددٍ مبهمٍ، فيستفهم بها عن العدد، كقوله تعالى: (وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ)[٥]. وكقوله تعالى: (سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ)[٦]. وكقوله تعالى: (قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ

---

١ سوة البقرة (٢٥٩)

٢ سورة المنافقون الآية (٤)

٣ سورة آل عمران (٣٧)

٤ سورة البقرة الآية (٣٣٤)

٥ سورة الكهف الآية (١٩)

٦ سورة البقرة الآية (٢١١)

بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ)[1]. وكقوله تعالى: (قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ)[2].

٩- (أيُّ): موضوعةٌ للاستفهام عن تمييزِ أو تعيين أحد المتشارِكينِ في أمرٍ يعمُّهما فيسأل بها عن الزمان والمكان والحال والعدد والعاقل وغيره على حسب ما تضاف إليه، ولذا تأخذ(أي) معناها مما تضاف إليه، ومثالها قوله تعالى: (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا)[3].

ونحب أن ننبه إلى أن استعمال أدوات الاستفهام في معانيها الأصلية: حيث يراد بها طلب الفهم لمن ليس عنده علم به، لا يحقق غرضة بلاغيا، وإنما هو استعمال نحوي صرف.

أما المعاني الفرعية التي تستفاد من هذه الأدوات، وتعرف بسياق الكلام، وقرائن الأحوال، فتبرز لنا معنى آخر غير الذي وضعت له، فهذا هو من صميم فن البلاغة، وينبغي أن نبحث عنه، ونسعى إليه.

خروجُ أدواتِ الاستفهامِ عن معانيها الحقيقيةِ: الأغراض البلاغية لأسلوب الاستفهام:

١ سورة البقرة الآية (٢٥٩)

٢ سورة المؤمنون الآيتان (١١٣،١١٢)

٣ سورة مريم الآية (٧٣)

قد تخرجُ ألفاظُ الاستفهامِ عن معناها الأصليّ – وهو طلبُ الفهم – ؛إلى معاني أخرى على سبيل المجاز؛ فيستفهَمُ بها عن الشيءِ مع العلمِ به لأغراضٍ أخرى، تفهم من سياق الكلام وقرائن الأحوال،

فالغرض من الاستفهام لن يبدو جليًّا إلا إذا وقفنا على حال القائل، وحال المخاطب، والظروف المحيطة بها، عندئذ نستطيع أن نلمس المغزى البلاغي والهدف البعيد الذي يرمي إليه الكلام، ولا تدل عليه أداة الاستفهام في معناه الأصلي.

والأغراض البلاغية التي تستنبط من الاستفهام عديدة، وقد عد منها السيوطي واحدة وثلاثين موضعا.

وأحيانا يصحب أداة الاستفهام ما يوضح الغرض البلاغي منها، مثلا قوله تعالى: (أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا)[1].

فالمعنى الأصلي للهمزة هو الاستفهام، وليس هذا هو المراد في الآية وإنما المراد والمقصود هو إنكار الفعل لما فيه من الكراهة، فكان قوله بعد ذلك "فكرهتموه" دالًّا على هذا القصد.

وقوله تعالى: (قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ)[2].

---

١ سورة الحجرات الآية (١٢)

٢ سورة هود الآية (٧٢)

فالمراد من الاستفهام، ليس طلب الفهم. وإنما القصد إلى التعجب من الإنجاب في هذا العمر وبعد أن طعنت في السن هي وزوجها، وقوله بعد ذلك إن هذا الشيء عجيب قد وضح القصد والغرض من هذا الاستفهام.

وكثيرا ما يفهم الغرض البلاغي من أدوات الاستفهام وخروجها عن أصل ما وضعت له دون أن يضمنها ما يشير إلى الغرض المقصود كالأمثلة السابقة ، وإنما يفهم القصد من سباق الكلام وما يحمله من المعنى المراد .

فأدوات الاستفهام يفهم منها معنى:

- **الأمرُ**: وهو الاستفهام الذي يراد منه الحث على القيام بالأمر المستفهم عنه وتنفيذه، ومنه قوله تعالى: (فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)[1]. ومعنى الأمر: أي أسلموا. وكقوله تعالى: (وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ)[2]، أي اصبروا. وقوله تعالى: (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ) القمر:١٧. وقوله تعالى: (فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ)[3]، والمعنى أسلموا. وقوله تعالى: (إِنَّمَا يُرِيدُ

---

١ سورة هود الآية (١٤)

٢ سورة الفرقان الآية (٢٠)

٣ سورة آل عمران الآية (٢٠)

الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ)[1]، أي انتهوا. وقوله تعالى: (مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ)[2]، وقوله تعالى: (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ) الحديد:١١، والمعنى: على الأمر بالإقراض والترغيب فيه. وقوله تعالى: (وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ) الأنبياء :٨٠.

- النهيُ: وهو الاستفهام الذي يراد به النهي عن الشيء المستفهم عنه ومثاله قوله تعالى (أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)[3]. أي لا تخشوهم. ومنه قول الشاعر:

يا مَن يُحِبُّ المُشتَري وَعُطارِداً وَيَظُنُّ أَنَّهُما لَهُ سَعدانِ

لم يهبطان وَيعلوان تشرفاً وَبِوَهجِ حَرِّ الشَمسِ يَحتَرِقانِ

أَتَخافُ مِن زُحَلٍ وَتَرجو المُشتَري وَكِلاهُما عَبدانِ مَملوكانِ

وقول الشاعر:

أَتَرجو أَن تَكونَ وَأَنتَ شَيخ كَما قَد كُنتَ أَيّامُ الشَباب

---

١ سورة المائدة الآية (٩١)

٢ سورة البقرة الآية (٢٤٥)

٣ سورة التوبة الآية (١٣٩

لَقَد كَذَّبتَكَ نَفسَكَ لَيسَ ثَوب   دَريسٌ كَالجَديدِ مِنَ الثِياب

- التمني: وذلك عندما يكون الاستفهام موجها إلى من لا يعقل، أو عندما يطلب السائل الأمور المحالة أو البعيدة الحصول. كقول الله تعالى: (يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ)[1]؛ حيث أفادت "أين" تمني الكافر أن يجد له مكانا يفر إليه من عذاب الله.

ومثال توجيه الاستفهام إلى من لا يعقل: قول الشاعر:

أَيَدري الرَبعُ أَيَّ دَمٍ أَراقا   وَأَيَّ قُلوبِ هَذا الرَكبِ شاقا

وقول الشاعر:

أُغالِبُ فيكَ الشَوقَ وَالشَوقُ أَغلَبُ   وَأَعجَبُ مِن ذا الهَجرِ وَالوَصلُ أَعجَبُ

أَما تَغلَطُ الأَيّامُ فِيَّ بِأَن أَرى   بَغيضاً تُنائي أَو حَبيباً تُقَرِّبُ

ومثال طلب السائل الأمور المحالة أو البعيدة الحصول: قوله تعالى:(فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ)[2]، وقوله تعالى:(وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ)الشورى:٤٤. فهو استفهام فيه معنى التمني.

- الاستبعاد: وهو الاستفهام الذي يراد منه عد الشيء المستفهم عنه بعيدا، ومنه قوله تعالى: (قال الكافرون هذا الشيء عجيب أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا

١ سورة القيامة الآية (١٠)

٢ سورة الأعراف الآية (٥٣)

ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ)[1]، فقوله " ذلك رجع بعيد " يفصح عن الغرض من همزة الاستفهام وهو الاستبعاد. وكقوله تعالى: (أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ). وقول الشاعر:

كيف العزاءُ عن الشبا ... بِ وغضنُهُ الغصنُ النضيرُ

كيف العزاءُ عن الشبا ... ب وعيشةُ العيشُ الغريرُ

بان الشبابُ وكان لي ... نِعْمَ المجاور والعشيرُ

وقول الشاعر:

مَن لي بطيف خيال منك يطرقني ... وهناً فقلبي طروق الطيف يكفيه

أنى يلم خيال في خلال ضنى ... لا يألف الغمض والأشجان تبريه

مَن لي بمن يتلافى الصب من تلف ... داء الصبابة يعي من تلافيه

- وقد يكون فيها معنى الاستبطاء، وهو الاستفهام الذي يراد منه إظهار المعاناة من طول الانتظار وجذب انتباه السامع ودعوته للمشاركة والنظر فيما حل ونزل، ومثاله قول الله تعالى: (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ)[2]. حيثُ جعل علماء البلاغة الاستفهام في الآية استبطاء، وقال الزمخشري:

---

١ سورة ق الآية (٣)

٢ سورة البقرة الآية (٢١٤)

فيها طلب النصر وتمشيه، واستطالة أمد الشدة، وهو رأي دقيق، إذ التمني ظاهر فيها[١]. ومنه قول الشاعر:

حتَّى مَتى تَستفزكَ الخُدع ... وكم وكم تستقيدكُ البدعُ

تأمُلُ والموتُ وَيحَ نفسكَ لا ... يُبقي على آملٍ ولا يدعُ

وقول الشاعر:

إلامَ وفيمَ ويُحكَ ذا التَّصابي ... وكَمْ هذا التغابي في ضلالِكْ

تنبَهْ إنّ عمرَكَ قد تَقَضَّى ... فَعَدِّ وعُدّ نَفسَك في الهَوالِكْ

وعاتِبْها على التَفريط وانظرْ ... لأيّ طريقةٍ أَصبْحتَ سالِكْ

- وقد يراد بالاستفهام التشويق، وهو الاستفهام الذي يراد منه تشويق المخاطب واستمالته إلى أمر من الأمور،كقوله تعالى: (قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ)[٢]. فقد أفاد الاستفهام تشوق النفس لمعرفة النبا الذي يحمل الخير، ويتضمن الوعد، كقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ*يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ

---

١ الكشاف ١\١٣٠ ، أساليب الاستفهام ص ٢٣٥ ، النظم القرآني ص ٨٤ .

٢ سورة آل عمران الآية (١٥) .

تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)[١]. ومنه قوله تعالى: وقوله تعالى (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ) آل عمران:١٤-١٥ وقوله تعالى : (وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ) القصص:١٢ وقوله تعالى: (فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى) طه:١٢٠.

- وقد يفيد الاستفهام التعظيم، وهو الاستفهام الذي يراد منه المبالغة في شأن الأمر المستفهم عنه، كقوله تعالى: (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ)[٢]، وقوله تعالى: (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ)[٣]، وقوله تعالى: (فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ)[٤].ومنه قول الشاعر:

مَن لِلمَحافِلِ وَالجَحافِلِ وَالسُرى   فَقَدَت بِفَقدِكَ نَيِّراً لا يَطلَعُ
وَمَنِ اتَّخَذتَ عَلى الضُيوفِ خَليفَةً   ضاعوا وَمِثلُكَ لا يَكادُ يُضَيِّعُ

١ سورة الصف الآية (١٠- ١٢).
٢ سورة البقرة الآية (٢٥٥)
٣ سوة الرحمن الآية (١٣)
٤ سورة الواقعة الآية (٨)

وقول الشاعر:

أَضاعوني وَأَيُّ فَتىً أَضاعوا　　ليومِ كَريهَةٍ وَسِدادُ ثَغرِ

- وقد يفيد الاستفهام التحقير، وهو الاستفهام الذي يراد منه الدلالة على ضآلة المسؤول عنه وصغر شأنه، كقوله تعالى: (أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا)[1]. وقوله تعالى: (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ)[2]، وقوله تعالى: (مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ)[3]. وكقوله تعالى: (أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ). ومنه قول الشاعر:

فَدَعِ الْوَعِيْدَ فَمَا وَعِيْدُكَ ضَائِرِيْ　أَطَنِيْنُ أَجْنِحَةِ الذُّبَابِ يَضِيْرُ؟

- وقد يكون فيها معنى اليأس والقنوط، كقوله تعالى : (فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ)[4].

- وقد يكون فيها معنى العرض وهو الطلب في تلطف ورفق، كقوله تعالى : (قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا)[5].

- وقد يكون فيها معنى النصح، كقوله تعالى: (هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ)[1]. فهو استفهام يشعر بالنصح.

---

١ سورة الفرقان الآية (٤١)

٢ سورة الصافات الآية (٨٥)

٣ سورة الأنبياء الآية (٥٢)

٤ سورة غافر الآية (١١)

٥ سورة الكهف الآية (٦٦)

- التنبيهُ على الخطأ، كقوله تعالى:(أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ).

- التنبيهُ على ضلال الطريق: وهو الاستفهام الذي يراد منه تنبيه السامع على خطأ ما يقوم به ومثاله قوله تعالى: (وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ وَلَقَدْ رَآَهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ) التكوير ٢٢-٢٧.

- التنبيهُ على الباطلِ، كقوله تعالى: (أفأنْتَ تسمع الصُّمَّ أوْ تَهْدِي العُمْي).

- التحسّرُ، كقوله تعالى: (وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ).

- الاستئناسُ، كقوله تعالى: (وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى).

- التكثيرُ، كقول أبي العَلاَء المعرّي:

صاحِ هذي قُبورُنا تملأُ الرُّحبَ فأين القُبورُ من عهَدِ عادِ ؟

- وقد تخرج عن هذه المعاني كلها فتكون بمعنى قد، كقوله تعالى: (قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ)[2]. فهل هنا بمعنى قد؛ لأنهم كانوا عالمين.

---

١ سورة طه الآية (١٢٠)

٢ سورة يوسف الآية (٨٩)

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ)[١]، (هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا)[٢].

ويلاحظ من الآيات القرآنية التي سقناها دلالة على خروج (هل) عن معناها الأصلي أن في معظمها معنى الجحد ومعنى آخر معه فالجحد معنى غالب، وليس معنى شاملا، فالآيات التي تدل على العرض والنصح، والتي تكون فيها هل بمعنى قد، لا نلحظ فيها معنى الجحد، فقول ابن حيان بأن هل خاصة بالجحد[٣] لا تؤيده الآيات المذكورة .

- التسوية: وهو الاستفهام الذي يراد منه التسوية بين أمرين أو أكثر يتوهم السامع رجحان أحدهما على الآخر، ومثال قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) البقرة:٦. وقوله تعالى: (وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ)الأعراف ١٩٣، وقوله تعالى: (وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ

---

١ سورة الذاريات الآية (٢٤)

٢ سورة الإنسان الآيه (١)

٣ البرهان في علوم القرآن ٢\٣٤٨

مَحِيصٍ)إبراهيم ٢١، وقوله تعالى: (قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ)الشعراء: ١٣٦.

- النفي: وذلك حينما تجيء أداة الاستفهام للنفي لا لطلب شيء كان مجهولا، كقوله تعالى: (هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ)[1]. ومثل قوله تعالى: (قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ۗ)[2]، أي لا نؤمن. وكقوله تعالى: (هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ)[3]، وقوله تعالى: (هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)[4]، وقوله تعالى: (بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ) الروم:٢٩.

- وقد تفيد مع النفي شيئا آخر وهو التهكم، وهو الاستفهام الذي يراد منه الاستهزاء والإزراء والاستخفاف بالشيء المستفهم عنه، كقوله تعالى: (هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا)[5]، فإنه ينفي عنهم العلم ويسخرا من ادعاءاتهم، وكقوله تعالى: (قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)[6]، ومن ذلك قوله تعالى حكاية عن قوم شعيب – عليه السلام –: (قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا

---

١ سورة الرحمن الآية (٦٠)

٢ سورة البقرة الآية (١٣٩

٣ سورة الأنعام الآية (٤٧)

٤ سورة النمل الآية (٩٠)

٥ سورة الأنعام الآية (١٤٨)

٦ سورة الحجرات الآية (١٦)

أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ)[1]. ومثله أيضا حكاية عن إبراهيم – عليه السلام–: (فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ)[2]. ومنه قول الشاعر في الهجاء والتهكم:

فما بالكم بالله أنتم بخلتم وقصرتم والضيف يقرى وينزل

- وقد يكون مع النفي العبرة، كقوله تعالى في عاد: (فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ)[3].

- وقد تكون للإنكار، وهو الاستفهام الذي يراد به بيان أن الشيء المستفهم عنه لا ينبغي أن يكون؛ لأنه موضع إنكار من المتكلم.كقوله تعالى: (أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ)[4]، وقوله: (أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ)[5]، فلوط عليه السلام يستنكر من قومه إسرافهم على أنفسهم، وارتكابهم الفاحشة. وقوله تعالى: (قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا)[6]، فالكفار ينكرون الرسالات، ويجحدون أن يبعث الله رسولا من البشر. وقوله تعالى: (أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ)[7]، فالمراد إنكار اصطفاء الله للبنات.

---

١ سورة هو الآية (٨٧)
٢ سورة الصافات الآية (٩١–٩٢)
٣ سورة الحاقة الآية (٨)
٤ سورة الأنعام الآية (٤٠)
٥ سورة الأعراف الآية (٨٠)
٦ سورة الإسراء الآية (٩٤)
٧ سورة الصف الآية (١٥٣)

والإنكارُ يكونُ وهو على وجهين :

أ- أما للتوبيخ، بمعنى ما كان ينبغي أن يكون، مثل قوله تعالى: (قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا) الكهف :٣٧. وقوله تعالى: (وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ)الصافات:١٢٣- ١٢٥. وقوله تعالى: (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) البقرة :٤٤. وكقوله تعالى:(أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ).

ب- وإما للتكذيب بمعنى:

- (لم يكن) إذا كان التكذيب في الماضي، كقوله تعالى : (أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا) الإسراء :٤٠. وقوله تعالى: (أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ) الصافات:١٥٣.
- أو بمعنى (لا يكون) إذا كان التكذيب في المستقبل، كقوله تعالى: (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ) هود:٢٨. ومنه قول الشاعر:

أَأَتْرُكُ الْحَقَّ ونَهْجَ الْهُدَى		إنْ مَزّقُوا عِرْضِيَ أَوْ قَعْقَعُوا

إذن فَلا كُنْتُ ولا كَانَ لِي   بِرَوْضِ عِلْمٍ للهُدَى مَرْتَعُ

وقول الشاعر:

أَأَتْرُك إنْ قَلَّتْ دَرَاهِمُ خَالِدٍ   زِيَارَتَهُ إِنِّي إِذاً لمُلِيم

- وقد يكون الاستفهام للتوبيخ المصاحب للإنكار، كقوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: (فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا)[1]، فموسى عليه السلام يستنكر خرق السفينة ويوبخ الخضر على خرق السفينة الذي يؤدي إلى الهلاك. وقوله تعالى: (أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ)[2]، فهو ينكر الإشراك الذي وقع منهم، ويوبخهم على ذلك. وقوله تعالى: (وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ)[3]، فهو ينكر تفكيرهم في قتل موسى، ويوبخهم على هذا التفكير، خاصة بعد قول فرعون: (ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ)[4].

والهمزة أكثر أدوات الاستفهام دلالة على الإنكار...ونسبة الإنكار بها إلى جملة أساليب الإنكار في القرآن كله، هي نسبة كبيرة.

---

١ سورة الكهف الآية (٧١)

٢ سورة الأعراف الآية (١٩١)

٣ سورة غافر الآية (٢٨)

٤ سورة غافر الآية (٢٦)

كما أن الإنكار أكثر الأغراض البلاغية للاستفهام في القرآن، ونسبته كبيرة إلى مجموع الاستفهام القرآني[١] .

وقد يبدو في بعض أساليب الاستفهام أن المتكلم ينكر الأمر على نفسه في الظاهر، وإن كان مراده إنكاره على الآخرين، يريد بذلك التلطف في النصح، وعدم مواجهة المخاطبين بالإنكار، حتى لا ينسب القبح إليهم فيثير غضبهم، وهذا أسلوب لطيف في الإنكار تتألف به القلوب ، فتقبل النصح، وتبتعد عن الخطا.

فمن ذلك قوله تعالى: (أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ۚ)[٢]. يريد أفغير الله تبتغون؟ بدليل قوله: أنزل إليكم. ومثله قوله تعالى : (وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)[٣]. فإنه يريد "وما لكم لا تعبدون الذي فطركم" لتستقيم العبارة مع قوله تعالى: "وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ".

وللإنكار مؤكدات كثيرة نذكر بعضا منها:

---

١ أساليب الاستفهام في القرآن عبد العليم ص ٢٠١٣

٢ سورة الأنعام الآية (١١٤)

٣ سورة يس الآية (٢٢)

١. فقد يؤكد الإنكار بذكر النداء قبله، كقوله تعالى: (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ)[١]. فقد تضمن النداء وصفهم بالعلم، وإنكار محاجتهم، وجدالهم حينئذ يكون أكثر قبحا.

٢. وقد يؤكد بلفظ " كلا" يتلو أسلوب الاستفهام كقوله تعالى: (أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (٣٨) كَلَّا)[٢]. فهو ينكر طمعهم في دخول الجنة ، ويؤكد هذا الإنكار بقوله "كلا" التي هي في معنى لا يطمع أحد في ذلك.

٣. وقد يؤكد بـ "إن"، كقوله تعالى: (وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ)[٣]، (أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ)[٤]. فقد أنكر الفاحشة، وأنكر إتيان الرجال، ثم أكد هذا الإنكار بإن واللام.

- والاستفهام قد يخرج عن معناه فيفيد معنى آخر، وهو التعجب: وهو الاستفهام الذي يراد منه إظهار الاندهاش من الشيء المستفهم عنه، كقوله تعالى: (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ)[٥]. فلا شك أن أمر الناس بالبر، وعدم التزام أنفسهم بذلك أمر يدعو العجب. وقوله تعالى :

---

١ سورة آل عمران (٦٥)

٢ سورة المعارج الآيتان (٣٨،٣٩)

٣ سورة العنكبوت الآية (٢٨)

٤ سورة العنكبوت الآيه (٢٩)

٥ سورة البقرة الآية (٤٤)

(وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ)[١]. وقوله تعالى: (أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ)[٢]. فالآية تفيد مع الإنكار التعجب ممن يدعي ذلك من المشركين. وقوله تعالى: (رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ)[٣]. أي لا يكون ذلك، وتتعجب مريم ممن بشرها بولد. ومنه قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا)[٤]. فالملائكة هنا تتعجب من أن يستخلف مكان أهل الطاعة، أهل المعصية، وهو الحكيم الذي لا يفعل إلا الخير ولا يريد إلا الخير. وقوله: (عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ)[٥]، كأنه قال: عم يتساءلون يا محمد؟ ثم قال: عن النبأ العظيم يتساءلون. ومثل ذلك قوله تعالى: (قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ)هود:٧٢. وكقوله تعالى: (وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ).

- أو التهويل: وهو الاستفهام الذي يراد منه تفخيم شأن الشيء المستفهم عنه، كقوله تعالى: (الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ) االحاقة١–٣ وقوله

---

١ سورة النمل الآية (٢٠)

٢ الأنعام الآية (١٠١)

٣ سورة آل عمران الآية (٤٧)

٤ سورة البقرة الآية (٣٠)

٥ سورة النبأ الآيتان (١ ، ٢)

تعالى: (الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ) القارعة ١–٣ وقوله تعالى: (كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ) الهمزة٤–٥، وقوله تعالى: (إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ مَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ) المدثر٢٥–٢٧، وكذلك ما في الآيات القرآنية الآتية:(وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ) المرسلات١٤–(وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ) الانفطار١٧–١٨–(كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ)المطففين٧–٨ (فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ) البلد ١١–١٢–(وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ) القدر:٢.

- وقد يفيد الوعيد: وهو الاستفهام الذي يراد منه تهديد السامع وتخويفه، كقوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ)[١]، وقول تعالى: (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ)[٢]، وقوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ)الفجر:٦– ٨. وقوله تعالى: (إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ)[٣]، ومنه قوله تعالى: (أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ

---

١ سورة الفجر الآية (٦)

٢ سورة الفيل الآية (١–٢).

٣ سورة هود الآية (٨١)

فَإِذَا هِيَ تَمُورُ)الملك:١٦ وقوله تعالى: (وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ) الزمر:٣٧.

- وقد يراد بالاستفهام التقرير: وهو الاستفهام الذي يراد منه حمل المخاطب على الإقرار بما يعرفه إثباتا أو نفيا، ويكون الشيء المقرر به تاليا لأداة الاستفهام، كقوله تعالى:(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ) الشرح: ١. وقوله تعالى: (قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ) الشعراء: ١٨، وقوله تعالى(أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآَوَى وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى)الضحى ٦–٨.

ويتحدث ابن جني عن تأثير همزة التقرير، وما تدخله من تغيير في المعنى؛ حيث إنها تحول النفي إلى إثبات، والإثبات إلى نفي. فقول جرير يمدح عبد الملك بن مروان:

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

أي: أنتم كذلك. وقول الله عز وجل: (قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ)[1]، وقوله تعالى: (أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّه)[2]، أي: لم يأذن لكم، ولم

١ سورة يونس الآية (٥٩)

٢ سورة المائدة الآية (١١٦)

تقل للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ... فإذا دخلت همزة التقرير علي الموجب نفته، وإذا دخلت على النفي نفته، ونفي النفي عائد به إلى الإثبات[١].

ولا شك أن ملاحظة ابن جني الدقيقة في أسلوب التقرير تساعدنا في تحديد المعنى لكثير من الأمثلة التي تصادفنا. فقوله تعالى: (وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ)[٢]. فالاستفهام هنا تقرير، ويكون الجواب : نعم هو الحق، فيتحول النفي إلى إثبات. وفي قوله تعالى: (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)[٣]. يكون المعنى أعلم أن الله على كل شيء قدير، فيتحول النفي إلى إثبات. وفي قوله تعالى: (قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا)[٤]، يكون المعنى: قلت لك ذلك، فيتحول النفي إلى إثبات.

وكما قال ابن جني: إن همزة الاستفهام، إذا كانت للتقرير، فإنها تحول الإثبات إلى نفي. نلاحظه في مثل هذه الآيات: (قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ)[٥]، فأراد أن يقر بأنه لم يفعل، فكان الجواب بالنفي فقال: (قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ)[٦]. وقوله: (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا

---

١ الخصائص ٢\٤٦٤

٢ سورة الأحقاف الآية (٣٤)

٣ سورة البقرة الآية (١٠٦)

٤ سورة الكهف الآية (٧٢)

٥ سورة الأنبياء الآية (٦٢)

٦ سورة الأنبياء الآية (٦٣)

يَعْبُدُونَ)[1]، أراد أن يقرر الملائكة بأنهم لم يكونوا يعبدون من دون الله، فكان الجواب بالتفي أيضا: (قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ)[2]، ومثل ذلك الآيات التي ذكرناها نقلا عن ابن جني.

فخروج الاستفهام عن حقيقته، وعن معناه الأصلي إلى معان آخر: كالأمر، أو الإنكار، أو النفي، أو التعجب، أو التهكم، أو التحقير، أو التعظيم، أو التمني، أو التشويق، أو التقرير إلى غير ذلك من أساليب الاستفهام المتعددة، لا بد أن يكون لعلة بلاغية قصد إليها المتكلم ولم يرد أن يكاشف بها صراحة؛ بل لجأ إلى التعبير عنها متخفية وراء أسلوب الاستفهام، ليصل إلى مراده دون حرج لنفسه، أو لغيره من المخاطبين.

وابن جني يبين لنا بعض الأسباب التي تدعو إلى خروج الاستفهام عن صورته متعمقة ببواطن النفس البشرية، مدركا لأغوارها السحيقة، ومراميها المتعددة، ليصل السائل بسؤاله إلى كل ما يبغي الوصول إليه، فيقول: " إعلم أنه ليس شيء يخرج من بابه إلى غيره إلا لأمر قد كان .. ذلك أن المستفهم عن الشيء قد يكون عارفا به مع استفهامه في الظاهر عنه، ولكن غرضه بالاستفهام عنه أشياء، منها:

---

١ سورة سبأ الآية (٤٠)

٢ سورة سبأ الآية (٤١)

أن يظهر للمسئول أنه في الأمر عليه ليسمع جوابه منه ؟

ومنها : أن يتعرف حال المسئول، هل هو عارف به؟

ومنها : أن يرى الحاضر غيرهما أنه بصورة السائل المسترشد لما في ذلك من الغرض.

ومنها: وأن يعد ذلك لما بعده مما يتوقعه، حتى إن حلف بعد ذلك أنه قد سأله عنه حلف صادقة، فأوضح بذلك عذرا ، ولغير ذلك من المعاني التي يسأل السائل عما يعرفه لأجلها وبسببها"[1].

وبهذا يضع ابن جني أيدينا على بعض الدواعي البلاغية التي اقتضت إخراج الاستفهام عن صورته إلى صورة أخرى، ولهذا أهميته القصوى في علم البلاغة.

فلا جدال أن الاستفهام أوفر أساليب الكلام معانيًا، وأوسعها تصرفا، وأكثرها في مواقف الانفعال ورود، ولذا ترى أساليبه تتوالى في مواطن التأثر، وحيث يراد التأثير، وهيج الشعور للاستمالة والاقناع[2].

وإذا صح القول: إن للكلام قمة عليا في البلاغة، كان أسلوب الاستفهام محتلًا أعلى مكانا في تلك القمة.

---

١ الخصائص ٢\٤٦٤

٢ فن البلاغة ص ١٧٩ وما قبله بتصرف .

والقرآن المكي يحوي من أساليب الاستفهام أروع الصور، وأكثرها اللوجدان إثارة، وأشدها على النفس وقعة، فنرى تلك الأساليب تتوالى في مواضع كثيرة منه، مؤدية شتى المعاني البلاغية، محققة هذا التلوين الكلامي الذي يهز المشاعر هزًا ، ويبعث في النفس شغفة، وشوقا إلى تتبعه في حركة سيره، ومجرى انتقاله.

نموذج (١)

(١) شَبَّ في المدينة حريقٌ لم تره، فسلْ صديقك عن رؤيته إيَّاه.

(٢) سمعت أنَّ أحد أخويك عليٌّ ونجيب أنقذ غريقاً. فسل عليًّا يعين لك المنقذ.

(٣) إذا كنت تعرف أنَّ البنفسج يكثر في أحد الفصلين الخريف أو الشتاء لا على التعيين، فضَع سؤالا تطلب فيه تعيين أحد الفصلين.

الإجابة (١)

الرقم ... السؤال المطلوب ... شرح الإجابة

(١)...هل رأيت الحريق الذي شب في المدينة؟ ...السؤال هنا عن النسبة وهل والهمزة صالحتان للاستفهام عنها فتذكر إحداهما ويؤتى بعدها بالجملة.

(٢) ...أأنت الذي أنقذت الغريق؟ ...السؤال هنا للمسند إليه فيستفهم بالهمزة ويؤتى بعدها بالمسؤول عنه ثمَّ يؤتى بمعادل بعد أم.

(٣) ...أفي الخريف يكثر البنفسج أم في الشتاء؟ ...السؤال عن الظرف ويتبع في تكوينه ما اتبع في المثال السابق.

نموذج (٢)

لبيانِ الأغراض التي يدلُّ عليها الاستفهام في الأمثلة الآتية :

(١)قال أبو تمام في المديح:

هَل اجتَمعتْ أَحْيَاءُ عَدْنَانَ كُلُّهَا ... بِمُلْتَحَمٍ إلاَّ وأَنْتَ أَمِيرُها؟

(٢)وقال البحتري :

أأكفُرُكَ النَّعْمَاءَ عِندي، وَقد نمتْ ... عَليّ نُمُوَّ الفَجْرِ، والفَجْرُ ساطِعُ

وأنتَ الذي أعْزَزْتَني بَعدَ ذِلّتِي، ... فلا القوْلُ مَخفوضٌ ولا الطّرْفُ خاشعُ

(٣)وقال ابن الرومي في المدح:

أَلستَ المرءَ يَجْبِي كلَّ حمدٍ ... إذا ما لم يكنْ للحمدِ جابِ

(٤) وقال أبو تمام:

مَا للخُطوبِ طَغَتْ عليَّ كأنَّها ... جهلتْ بأنَّ نداكَ بالمرصادِ

(٥) وقال آخر:

فَدَعِ الوَعيدَ فما وَعيدُكَ ضائري ... أطَنينُ أجْنِحَةِ الذُّبابِ يَضيرُ

(٦)قال الشاعر: أضاعوني وأيَّ فَتى أَضاعوا؟ ... لِيوْم كريهَة وسداد ثَغْر

الإجابــة

الرقم	صيغة الاستفهام	الغرض	الشرح
١	هل اجتمعت أَحياء عدنان	النفي	لأن المعنى أن بطون عدنان لم تجتمع في مكان قتال إلا أنت أمير عليها.
٢	أأكفرك النعماء عندي.	الإنكار	فإن البحتري يريد أن يقول لمدحه إنه لا يليق في أن أكفر نعماءك فقد غمرتني بها غمراً، بدلتني بالذل عزا، وبالخضوع والخشوع عظمة وعلواً.
٣	ألست المرء يجبي كل حمد	التقرير	لأن القائل يريد أن يحمل الممدوح على الإقرار بما ادعاه من اجتماع المحامد له.
٤	ما للخطوب طغت علي	التعجب	فإن أبا تمام يعجب من تراكم الشدائد عليه في حين أن ممدوحه لها بالمرصاد يدفعها عنه نداه وعطاياه، ولذلك قال كأنها جهلت بأن نداك بالمرصاد.
٥	الطنين أجنحة الذباب يضير	التحقير	لأن الشاعر يشبه وعيد عدوه بصوت أجنحة الذباب.
٦	أضاعوني وأي فتي أضاعوا	التعظيم	لأن المتكلم يريد أن يرفع من شأن نفسه ويبين أنه عماد العشيرة في أو قات الحروب والشدائد.

الأغراض البلاغية لخروج كل من الخبر والإنشاء عن مقتضى الحال

أوَّلًا- التعبير بالخبر في موضع الإنشاء

الأسلوب الخبري لفظًا الإنشائي معنى

قد يوضع الخبر موضع الإنشاء لأغراض بلاغية، أهمها:

١- التفاؤل وإظهار الحرص وشدة الرغبة في وقوع المعنى الإنشائي وتحققه إدخالا للسرور على المخاطب: ويكون ذلك في الدعاء باستعمال الجملة الخبرية بصيغة الإخبار بالماضي؛ للدلالة على تحقق الوقوع، وفيه إشعار بأنَّ الدعاء للمخاطب قد حصل وتحقق، كقوله تعالى: (قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ)[1]، معناه: اللهم اغفر لهم، ومنه قولك للعصاة: (تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)[2]، فيكون المعنى حينئذٍ: مروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر، وآمنوا بالله.

---

١ سورة يوسف الآية (٩٢).

٢ سورة آل عمران الآية (١١٠)

ومن ذلك قولك: هداك الله لصالح الأعمال، ووفقك الله لكل خير، وسدد خطاك، ورحمك الله، وغفر لك ... والمعنى اللهم أهده، ووفقه، وسدده، وارحمه، واغفر له. ومنه قول الشاعر:

يا ابنَ الذي دَانَ له المَشْرِقانْ   وأُلْبِس العَدْلَ بِهِ المَغْرِبانْ

إنَّ الثَّمانِينَ، وبُلِّغْتَها   قد أَحْوَجَتْ سَمْعِي إلى تُرْجُمانْ

وقول الشاعر:

لِيَبكِ رَسولَ اللهِ مَن كانَ باكِيا   وَلا تَنسَ قَبراً بِالمَدينَةِ ثاوِيا

جَزى اللهُ عَنّا كُلَّ خَيرٍ مُحَمَّداً   فَقَد كانَ مَهديّاً دَليلاً وَهادِيا

٢- الاحتراز عن صورة الأمر أو النهي المشعرة بالاستعلاء تأدبا واحتراما مع المخاطب حيث يقتضي المقام ذلك التأدب: ويحصل هذا في المواقف التي يكون فيهما المتكلم أقل رتبة ممن يخاطبه، فيعدل عن صيغة الأمر أو النهي لما قد توحيان به من استعلاء إلى الجملة الخبرية. كقولك لأستاذك: لا يعاقبني أستاذي حتى اشرح له الأمر ولو قلت: لا تعاقبني لكان قولاً مخلاً بما يقتضيه المقام من التأدب عند مخاطبة الأستاذ، وقولك لوالدك: يمهلني والداي – إذا تكرم عليّ- لحظة من وقتهِ، ولو قلت: أمهلني لكان إخلالا بالأدب لما فيه من الاستعلاء.

٣- حمل المخاطب على تحقيق المطلوب وتحصيله بألطف أسلوب، كقولك لصديقك: تزورني غداً. بدلاً من زرني غداً بصيغة الأمر؛ ذلك لأن التعبير بصيغة الخبر يحتمل الصدق والكذب، فلو لم يحضر الصديق لزيارة صديقه الصق به الكذب ونسبه إليه، كقول الأستاذ للتلاميذ: تأتوني صباحاً.ومثله الأقوال الآتية: تذهب معي إلى الغداء في بيتي، وقولك تكتب مقالة بمناسبة السنة الميلادية الجديدة.

٤- التنبيه على ان المطلوب سهل يسير، قد توافرت أسبابه: وهذا الغرض يعني أن المذكور بالجملة الخبرية ممكن الحصول لتوفر الشروط المطلوبة في المخاطب، كقولك لصديق تعلمه قيادة السيارة: تمسك المقود بهدوء ثم تدير محرك السيارة، فتمشي السيارة. وقولك في تسهيل الامتحان:تأخذ الدفتر الامتحاني، وتبدأ بالإجابة على السؤال الأسهل.

٥- حمل المخاطب على سرعة الامتثال، وكأنه امتثل: أي التنبيه على لزوم سرعة امتثال المطلوب وأنه ينبغي الإسراع في تحقيقه وهو يعني أن التعبير بالجملة الخبرية يبرز الشيء المطلوب في معرض الواقع المحقق وتعبيرا عن سرعة امتثال السامعين لذلك المطلوب: كقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ* تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ

وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)[1]، فتؤمنون وتجاهدون خبر في معنى الأمر، وتدل عليه قراءة ابن مسعود: "وآمنوا بالله ورسوله وجاهدوا"[2]. ومنه قوله تعالى (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وبالوالدين إحسانا)[3]، يقول الزمخشري: في لا تعبدون إخبار في معنى النهي أي لا تعبدوا. كما تقول: تذهب إلى فلان تقول له: كذا، تريد، الأمر، وعبر بالخبر كأنه سورع إلى الامتثال والانتهاء[4]. وقوله تعالى: (وإذا أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم) البقرة:٨٤. فالمعنى على النهي: أي لا تعبدوا إلا الله، لا تسفكوا دمائكم ولا تخرجوا أنفسكم، وقد عدل عنه إلى الخبر حملا للمخاطبين على تحقيقه وتحصيله وحثاً لهم على سرعة الإجابة والامتثال. ومنه قوله تعالى: (وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ)[5]، أي: لترضع الوالدات أولادهن حولين كاملين. وقوله تعالى: (وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ

---

١ سورة الصف الآيتان (١١،١٠)

٢ الكشاف :٤ / ٩٩

٣ سورة البقرة الآية (٨٣)

٤ الكشاف : ٤ /٢٩٢

٥ سورة البقرة الآية (٢٣٣)

وَعَشْرًا ﴾[1]، ومعناه: ليتربص: "فقد شبه الطلب في تأكده بخبر الصادق الذي لا بد من وقوعه، وإذا شبهه بالخبر الماضي كان آكد"[2].

وربما تظهر سرعة الامتثال في الفعل المضارع دون الأمر؛ باعتبار أن المضارع يدل على الحال، بخلاف الأمر فإنه يدل على الاستقبال، ومن ثم تتحقق سرعة الامتثال في التعبير بالجملة الخبرية بدلا من الجملة الإنشائية.

ثانيًا- التعبير بالإنشاء في موضع الخبر

وقد يقع الإنشاء في موقع الخبر لأغراض بلاغية أهمها:

١- التسوية بين الفعل وعدمه؛ إذ أن الفعل لا يؤدي إلى ثمرة، كقوله تعالى: (قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُم)[3]، وهو أمر في اللفظ، وليس بأمر في المعنى؛ لأنه أخبرهم أنه لن يتقبل منهم، كأنك قلت: إن أنفقت طوعا أو كرها فليس بمقبول منك، فالأمر في الكلام بمنزلة إن في الجزاء. ومثله : (اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ)[4]. ليس بأمر، إنما هو على تأويل الجزاء: أي: إن تستغفر لهم أو لا تستغفر لهم، فإن الله لن يغفر لهم[5].

---

١ سورة البقرة الآية (٢٣٤)

٢ الإشارة إلى الإيجاز ص ٤٠

٣ سورة التوبة الآية (٥٣)

٤ سورة التوبة الآية (٨٠)

٥ سورة القرآن ٢\٤٤١

٢- إظهار الاهتمام والعناية بالشيء فتحول الكلام من صيغة الإخبار إلى صيغة الإنشاء من شأنه أن ينبه السامع إلى وجوب الاهتمام بالشيء الذي توجه فيه المتكلم إلى المخاطب مباشرة، ويدله على مدى حرص المتكلم على تحقيقه، كما في قوله تعالى: (قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ)[١]. والمعنى: وإقامة وجوهكم عند كل مسجد، غير أن العدول إلى أسلوب الأمر الإنشائي من شأنه أن يلفت إلى مدى العناية بأمر الصلاة وإقامتها؛ لأن الخطاب صار مباشرة مع المخاطبين. فلم يقل "وإقامة وجوهكم" إشعارا بالعناية بأمر الصلاة؛ لعظم خطرها، وجليل قدرها في الدين.

٣- الاحتراز عن مساواة اللاحق بالسابق: ففي حال وجود مرتبتين إحداهما أعلي رتبة ومنزلة من الأخرى، يحول الكلام من صيغة الإخبار إلى صيغة الإنشاء؛ لتحاشي مساواة كلا الرتبتين بنفس الخطاب، كما في قوله تعالى: (قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ)[٢]، المعنى إني أشهد الله وأشهدكم فعدل عن ذلك إلى صيغة الأمر (واشهدوا) احترازا عن مساواة شهادتهم بشهادة الله عز وجل، فضلا عن وجود نوع من التعظيم

١ سورة الأعراف الآية (٢٩)

٢ سورة هود الآية (٥٤)

لهود(عليه السلام)، وإعلاء لشأنه وتحقير لهؤلاء الكفرة المشركين؛ حيث أبرز الأمر في صورة الشخص الآمر الذي يوجه إليهم الأوامر، وعليهم أن يخضعوا ويذعنوا وأن يستجيبوا لما يأمر به. فلم يقل وأشهدكم، تحاشياً وفراراً من مساواة شهادتهم بشهادة الله تعالى . بل إن في هذا العدول عن التعبير بلفظ الخبر إلى لفظ الأمر، توكيدا لشهادتهم له بالبراءة من الشرك، فينال المعنى حظه من القوة والتأكيد [1].

واستعمال الإنشاء في موضع الخبر ليس مقصورا على هذه الأغراض البلاغية الثلاثة، فقد سبق القول بأن أساليب الإنشاء وهي (الأمر والنهي – والاستفهام – والتمني – والنداء)، كلها تخرج عن أصل وضعها، وتستعمل في معان أخر غير المعاني التي وضعت لها، فتخرج إلى صور خبرية؛ لأغراض بلاغية، ذكرناها في موضعها المناسب لها[2].

---

١ فن البلاغة ص ٢٦٧ بتصرف .

٢ وقد يكون الغرض إظهار الرضا بالواقع حتى كأنه مطلوب ، كما في قوله ﷺ : "من كذب عليَّ معتمداً فليتبوأ مقعده من النار" حيث المراد تبوأ ..

المبحث الثَّالث– أحوالُ أجزاءِ الجملةِ

تعريفها: الجملة كلمات تأتلف لتدل على معنى، أو هى– كما يقول النحاة–: «اللفظ المفيد فائدة يحسن السكوت عليها»[1]. ولا تكون الجملة تامة إلّا إذا استوفت ركنين هما: المسند إليه والمسند، وإذا ما حذف منها أحد هذين الركنين فان النحاة يلجأون إلى التقدير ليستقيم الكلام. واستعمل القدماء هذين المصطلحين فقال سيبويه: «هذا باب المسند والمسند إليه وهما ما لا يستغنى واحد منهما عن الآخر ولا يجد المتكلم منه بدّا. فمن ذلك الاسم المبتدأ والمبنيّ عليه وهو قولك: «عبد الله أخوك» و«هذا أخوك»، ومثل ذلك قولك: «يذهب زيد» فلا بدّ للفعل من الاسم كما لم يكن للاسم الأول بدّ من الآخر فى الابتداء. ومما يكون بمنزلة الابتداء قولك «كان عبد الله منطلقا» و «ليت زيدا منطلق» لأنّ هذا يحتاج إلى ما بعده كاحتياج المبتدأ إلى ما بعده»[2]. ولم يأخذ النحاة بهذين المصطلحين بعد سيبويه وإن أداروهما فى كتبهم، وإنّما استعملوا ما يقابلهما من مبتدأ وخبر أو فعل وفاعل وغيرها، ولكن علماء البلاغة أخذوهما وبنوا عليهما دراستهم فى علم المعانى، فانحصرت فى المسند والمسند إليه وما يتبعهما من ذكر وحذف، وتقديم وتأخير، وقصر. ولا يتجاوز ذلك إلّا حينما يتحدثون عن الفصل والوصل، والمساواة والإيجاز والاطناب،

---

١ شرح ابن عقيل ج ١ ص ١٤.

٢ كتاب سيبويه ج ١ ص ٧.

وهو تجاوز لا يبعد عن الجملتين فى أكثر الأحيان. وكان أكثر البلاغيين تمسكا بهذا المنهج رجال المدرسة الكلامية كالسكاكى والقزوينى وشراح التلخيص، أما عبد القاهر الجرجانى وضياء الدين بن الأثير وغيرهما من أعلام المدرسة الأدبية فلم يتجهوا هذا الاتجاه ولم ينحوا هذا المنحى، وإنّما كانوا يحكّمون الذوق ويتحسسون مواطن الجمال فى الكلام. ونتج عن ذلك أن مزقت البلاغة شر ممزق فكان الحذف فى عدة مواضع، والذكر فى أبواب متفرقة، لأنهما درسا فى المسند إليه مرة وفى المسند تارة وفى متعلقات الفعل تارة ثالثة. ومثل هذا يقال فى الموضوعات التى بحثها عبد القاهر وابن الأثير فى فصول موحدة جمعت الروعة والنفع، وإنارة السبيل، وتهذيب الذوق وتنمية الملكة الأدبية.

أولًا- الذكر والحذف

في كتب النحو حديث عن الذكر والحذف ولكن النحاة يهتمون بالواجب منهما، ويشيرون إلى الجواز إشارة عابرة، وهو الأولى بالرعاية والاهتمام لأنّ فيه تتضح الأساليب وتظهر المواهب. وكان علماء البلاغة أحرص من غيرهم على هذه الجوانب فأولوها عناية كبيرة وأوضحوا ما فى الذكر والحذف من أغراض:

[الذكر]

المسند إليه والمسند وغيرهما تذكر فى العبارة لسبب من الأسباب ومن أغراض ذكر المسند إليه[1]:

١- أنّه الأصل ولا مقتضى للحذف، فإذا حذف ذهب المعنى.

٢- ضعف التعويل على القرينة، وذلك إذا ذكر المسند إليه فى الكلام وطال عهد السامع به، أو ذكر معه كلام فى شأن غيره مما يوقع فى اللبس إن لم يذكر.

٣- التنبيه على غباوة السامع حتى أنّه لا يفهم إلّا بالتصريح.

٤- زيادة الإيضاح والتقرير: كقوله تعالى: «أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»[2]، ففي تكرير اسم الاشارة زيادة إيضاح وتقرير لتميزهم على غيرهم.

٥- إظهار التعظيم بالذكر: مثل: «القهار يصون عباده» لعظم هذا الاسم. أو إظهار الإهانة: مثل: «اللعين إبليس».

٦- التبرك باسمه: مثل: «مُحَمَّد رسول الله خير الخلق».

٧- الاستلذاذ بذكره: مثل: «الله خالق كل شئ ورازق كل حى».

---

١ مفتاح العلوم ص ٨٥.

٢ سورة البقرة الآية (٥)

٨- بسط الكلام حيث يقصد الإصغاء: كقوله تعالى حكاية عن موسى- عليه السلام-: «هِيَ عَصايَ»[١]، ولذلك زاد على الجواب بقوله: «أتوكأ عليها».

ذكرُ المسنَدِ[٢]:

١- كونُه الأصليَّ ولا داعيَ للعدولِ عنه،قال تعالى: {.. آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ}.

٢- إذا ضعفَ الاعتمادُ على القرينةِ ، كقوله: (خير مال المرء ما أنفقه...).

٣ - الردُّ على المخاطَبِ، فيكونُ الذكرُ أحسنَ، قال تعالى حكايةً عن منكرِ البعثِ: (قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ) ، فردَّه اللهُ تعالى: (قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ).

٤- زيادةُ التقريرِ والإيضاحِ مثلُ: نبيلٌ هو الذي فعلَ تلك الفعلةَ القبيحةَ ، هذا الجوابُ ردٌّ على سؤالِ السائلِ مَنْ فعلَ تلكَ الفعلةَ القبيحةَ ؟

٥- ضعفُ تنبهِ السامعِ، نحو: (زيدٌ قائمٌ وعمروٌ قائمٌ).

٦- إفادةُ التجدُّدِ بإتيانِ الفعلِ، كقوله: (يَحمدُ اللهَ كلُّ عبدٍ فقيهٍ...).

٧- إفادةُ الثُّبوتِ والدوامِ بإتيانِ الاسمِ، قال تعالى: {عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ}.

---

١ سورة طه الآية (١٨)

٢ مفتاح العلوم ص ٨٧.

[الحذفُ]

الحذف- لغة- الإسقاط، واصطلاحا إسقاط بعض الكلام أو كله لدليل[1]، والحذف عند البديعيين غير ما نراه عند علماء المعانى، فهو «أن يحذف المتكلم من كلامه حرفا من حروف الهجاء أو جميع الحروف المهملة بشرط عدم التكلف والتعسف»[2]، وهذا لون من ألوان البديع.

واختلفوا فى الحذف هل هو مجاز؟ ويرى الزركشى أنّه «إن أريد بالمجاز استعمال اللفظ فى غير موضعه فالمحذوف ليس كذلك لعدم استعماله، وإن أريد بالمجاز إسناد الفعل إلى غيره- وهو المجاز العقلى- فالحذف كذلك»[3]. وكان عبد القاهر قد أبدع فى تحليل الجملة وإظهار ما فيها من حذف أو ذكر، وعقد فصلا فى الحذف قال فيه: «هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فانك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للافادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبن. وهذه جملة قد تنكرها حتى تخبر وتدفعها حتى تنظر»[4].

حذفُ المسنَدِ إليه: ولا يجوز حذف المسند إليه إلّا إذا دل عليه دليل من اللفظ أو الحال، ويترجح حذفه إذا كان مبتدأ لدواع منها:

---

١ البرهان فى علوم القرآن ج ٣ ص ١٠٢.

٢ خزانة الأدب للحموى ص ٤٣٩.

٣ البرهان فى علوم القرآن ج ٣ ص ١٠٤.

٤ دلائل الإعجاز ص ١١٢.

١- الاحتراز عن العبث بترك ما لا ضرورة لذكره، وذلك يكسب الكلام قوة وجمالا. ويكثر هذا الحذف فى جواب الاستفهام كقوله تعالى: «وَما أَدْراكَ ما هِيَهْ. نارٌ حامِيَةٌ»[1]، أي: هي نار حامية.

وبعد الفاء المقترنة بالجمل الاسمية الواقعة جوابا للشرط كقوله تعالى: «مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها»[2]، أي: فعمله لنفسه وإساءتها عليها. وبعد القول، كقوله تعالى: «وَقالُوا: أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَها فَهِيَ تُمْلى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا»[3]، أي: قالوا القرآن أساطير.

٢- ضيق المقام عن إطالة الكلام: وذلك للتوجع كقول الشاعر:

قال لى: كيف أنت؟ قلت عليل ... سهر دائم وحزن طويل

أي: أنا عليل.

٣- أو للخوف من فوات الفرصة، مثل: «حريق» أي: هذه حريق.

٤- تيسير الإنكار عند الحاجة: مثاله أن يذكر شخص فتقول «فاسق» ثم تخشى من غائلة ذلك فتنكره، فلو قلت: «زيد فاسق» لقامت البينة ولم تستطع الإنكار.

٥- تعجيل المسرة بالمسند: مثل: «أخى»، أى: هذا أخى.

---

١ سورة القارعة، الآيتان: ١٠- ١١.

٢ سورة فصلت، الآية: ٤٦.

٣ سورة الفرقان، الآية ٥.

٦- تكثير الفائدة: كقوله تعالى: «قالَ: بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ»[١]، أي، فأمري صبر جميل، أو فصبري صبر جميل.

وإذا كان المسند إليه فاعلا: فإنه يترجح حذفه:

حينما لا يحقق ذكره غرضا معينا فى الكلام، كقوله تعالى: «وَإِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ»[٢]، أي: بمثل ما عاقبكم المعتدى به.

أو للمحافظة على السجع في النثر، وعلى الوزن في الشعر، أو أنّ الفاعل معلوم، كقوله تعالى: «وَخُلِقَ الْإِنْسانُ ضَعِيفاً»[٣]، أي خلق الله الإنسان.

ويحذف للجهل به، أو للتحقير، أو الخوف منه، أو عليه، وغير ذلك من الدواعي والأسباب التي يقتضيها المقام[٤].

حذفُ المسنَدِ:

ولا يجوز حذف المسند إلّا إذا دل عليه دليل، ويترجح حذفه إذا كان خبرا لدواع منها:

١- الاحتراز عن العبث بعدم ذكر ما لا ضرورة لذكره، إمّا مع ضيق المقام من وزن أو غيره، كقول الشاعر:

ومن يك أمسى بالمدينة رحله ... فإني وقيّار بها لغريب[١]

---

١ سورة يوسف، الآية: ١٨.

٢ سورة النحل، الآية ١٢٦.

٣ سورة النساء، الآية: ٢٨.

٤ ينظر مفتاح العلوم ص ٨٤، والإيضاح ص ٣١، وشروح التلخيص ج ١ ص ٢٧٣.

أي: وقيار كذلك. وقول قيس بن الخطيم:

نحن بما عندنا وأنت بما عنـ ... ـدك راض والرأى مختلف

أي: نحن بما عندنا راضون. وإما بدون التضييق كقوله تعالى: «وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ»[٢]، أي: والله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك.

٢- ويكثر حذف المسند لهذا السبب إذا كانت الجملة جوابا عن استفهام علم منه الخبر، مثل: «أبى» جوابا لمن سألك: «من فى الدار؟» أو إذا كانت الجملة بعد «إذا» الفجائية مثل: «خرجت فاذا مُحَمَّد» ويحتمل أن يكون الخبر «بالباب» أو «حاضر». أو كانت الجملة معطوفة على جملة اسمية والمبتدآن مشتركان فى الحكم مثل: «أنت مسافر وأخوك» أى: وأخوك مسافر أيضا. ومنه قوله تعالى: «أُكُلُها دائِمٌ وَظِلُّها»[٣]، أى: وظلها دائم كذلك.

٣- تكثير الفائدة: ومنه قوله تعالى: «بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ»[٤]، فقوله: «فصبر جميل» يحتمل أن يكون من حذف المسند إليه أو المسند، فاذا حذف المسند إليه كان التقدير: «فأمرى صبر جميل» وإذا حذف المسند كان التقدير: «فصبر جميل أجمل».

---

١ قيار: اسم فرس الشاعر أو جمله.

٢ سورة التوبة، الآية: ٢.

٣ الرعد ٣٥.

٤ يوسف ١٨.

ويترجح حذف المسند إذا كان فعلا للدواعى التى تقدمت، ومن ذلك قوله تعالى: «وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ»[١]، أي: خلقهن الله[٢].

حذف المفعول:

ويحذف المفعول به فى الجملة وقد قال عبد القاهر الجرجانيُّ – رحمه الله تعالى-: إنّ الحاجة إلى حذفه أمسّ وإنّ اللطائف فيه أكثر[٣]، ويكون ذلك لأغراض بلاغية منها:

١- البيان بعد الإبهام: كما في فعل المشيئة إذا لم يكن في تعلقه بمحذوفه غرابة، مثل: «لو شئت جئت أو لم أجئ» أي: لو شئت المجيء أو عدم المجيء. فعند النطق بـ «لو شئت» علم السامع أنك علقت المشيئة بشيء فيقع في نفسه أنّ هنا شيئا تعلقت به مشيئتك بأن يكون أو لا يكون فإذا قلت: «جئت» أو «لم أجئ» عرف ذلك الشيء. ومنه قوله تعالى: «فَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ»[٤]، وقوله: «فَإِنْ يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلى قَلْبِكَ»[٥]، وقوله: «مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ»[٦].

---

١ لقمان ٢٥.

٢ ينظر مفتاح العلوم ص ٨٤ وص ١٠٨ والإيضاح ص ٨٠، وشروح التلخيص ج ٢ ص ٢ وما بعدها.

٣ دلائل الإعجاز ص ١١٧.

٤ الأنعام ١٤٩.

٥ الشورى ٢٤.

٦ الأنعام ٣٩.

٢- القصد إلى التعميم فى المفعول والامتناع أن يقصره السامع على ما يذكر معه دون غيره مع الاختصار: كقوله تعالى: «وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلى دارِ السَّلامِ»[١]، أي: يدعو كل أحد.

٣- رعاية الفاصلة: كقوله تعالى: «وَالضُّحى. وَاللَّيْلِ إِذا سَجى. ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَما قَلى»[٢]، أي: وما قلاك. وقد يكون هناك غرض آخر، وهو أنه بسبب حبه تعالى لرسوله - ﷺ- لم يشأ إسناد فعل الكراهية إليه، وبينما أسند قبله فعل الوداع الذي يكون بين الأحبة -والله أعلم-.

٤- استهجان ذكره: ومنه ما روي عن عائشة- رضي الله عنها- أنها قالت: «ما رأيت منه ولا رأى مني»، تعني العورة.

٥- الاختصار: كقوله تعالى: «أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ»[٣]، أي: أرني ذاتك[٤].

---

١ يونس ٢٥.

٢ الضحى ١- ٣.

٣ الأعراف ١٤٣.

٤ ينظر دلائل الإعجاز ص ١١٨، ونهاية الإيجاز ص ١٣٩، ومفتاح للعلوم ص ١٠٩، والإيضاح ص ١٠٥، وشروح التلخيص ج ص ١٣١.

ثانيًا– التقديم والتأخير

وهذا الباب تتبارى فيه الأساليب وتظهر المواهب والقدرات، وهو دلالة على التمكن في الفصاحة وحسن التصرف في الكلام، ووضعه الوضع الذي يقتضيه المعنى. يقول الزركشي: «هو أحد أساليب البلاغة، فانهم أتوا به دلالة على تمكنهم في الفصاحة وملكتهم في الكلام وانقياده لهم، وله في القلوب أحسن موقع وأعذب مذاق»[1]. واختلفوا في عده من المجاز، فمنهم من عده منه؛ لأن تقديم ما رتبته التأخير كالمفعول وتأخير ما رتبته التقديم كالفاعل، نقل كل واحد منهما عن رتبته وحقه. وقال الزركشي: «والصحيح أنه ليس منه، فان المجاز نقل ما وضع له إلى ما لم يوضع»[2].

تقديم المسند إليه:

وباب التقديم والتأخير واسع؛ لأنّه يشمل كثيرا من أجزاء الكلام، فالمسند إليه يقدم لأغراض بلاغية منها:

١- أنّه الأصل ولا مقتضى للعدول عنه كتقديم الفاعل على المفعول، والمبتدأ على الخبر، وصاحب الحال عليها.

---

١ البرهان في علوم القرآن ج ٣ ص ٢٣٣.

٢ البرهان ج ٣ ص ٢٣٣، وينظر الفوائد ص ٨٢.

٢- وقد يفيد تقديم المسند إليه التخصيص سواء وقع بعد حرف النفي أم لا، كقوله تعالى: (اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ)[١]، أي الله وحده هو الذي يبسط الرزق ويقدره دون غيره.

ومن تخصيص المسند إليه بالخبر الفعلى إن ولي حرف النفي: «ما أنا قلت هذا»، وقول المتنبى:

وما أنا أسقمت جسمى به ... ولا أنا أضرمت فى القلب نارا

٣- وقد يفيد تقديم المسند إليه تقوية الحكم وتقريره في ذهن السامع[٢]. كقوله تعالى: «وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ»[٣]، ومن أجل ذلك كان التعبير القرآني أبلغ من غيره؛ حيث قدم المسند إليه في قوله تعالى: (وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ)[٤]. وقوله: (وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ)[٥]، فإذا لم يقدم الضمير وقال "ويخلقون، وقد خرجوا به" لما رأيت التأكيد والتقوية التي أحدثها تقديم الضمير.

---

١ سورة الرعد الآية (٢٦)

٢ الدلائل ص ٩٩ وما بعدها .

٣ المؤمنون ٥٩.

٤ سورة الفرقان الآية (٣)

٥ سورة المائدة الآية (٦١)

ومما يدخل في هذا الحكم تقديم «مثل» و«غير»، وقد قال عبد القاهر: ومما يرى تقديم الاسم فيه كاللازم «مثل» و «غير» في نحو قوله:

مثلك يثنى المزن عن صوبه ... ويستردّ الدمع عن غربه

وكذلك حكم «غير» إذا سلك به هذا المسلك»[1]، ومنه قول المتنبى:

غيرى بأكثر هذا الناس ينخدع ... إن قاتلوا جبنوا أو حدثوا شجعوا

وقال القزويني: «واستعمال «مثل» و«غير» هكذا مركوز في الطباع، وإذا تصفحت الكلام وجدتهما يقدمان أبدا على الفعل إذا نحى بهما نحو ما ذكرناه، ولا يستقيم المعنى فيهما إذا لم يقدما. والسر فى ذلك أنّ تقديمهما يفيد تقوى الحكم»[2].

٤- ومن أغراض التقديم – الاهتمام بالمتقدم:

وتفسير هذا أن التقديم دليل على أن المتقدم هو الغرض المتعمد بالذكر، وأن الكلام قد سيق لأجله، وأوضح مثال يبين أثر التقديم في المعنى، ومدى الأهمية التي يعطيها للتعبير قوله تعالى في سورة النمل؛ حيث قدم اسم الإشارة فقال: (لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)[3].

---

١ دلائل الإعجاز، ص ١٠٦.

٢) الإيضاح، ص ٦٤.

٣ سورة النمل الآية (٨٣)

وفي آية أخرى في سورة المؤمنون، يؤخر اسم الإشارة كما في: (لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)[1]، فقدم "نحن وآباؤنا على هذا"، فإذا قدم اسم الإشارة الذي يريد به البعث كان ذلك دليلا على أهمية البعث، وأن الكلام قد سيق لأجله، أما الأية الأخرى حيث أخر اسم الإشارة، وقدم نحن وآباؤنا، كان ذلك دليلا على أهمية المبعوثين، وهم القصد من الحديث، وليس البعث.

٥- إفادة العموم: مثل: «كل إنسان لم يقم» فيقدم ليفيد نفى القيام عن كل واحد من الناس[2].

تقديم المسند: وتقديم المسند له مغزاه البلاغي أيضا:

١- فهو يفيد التخصيص أو القصر، أي قصر المسند إليه على المسند، وتخصيص المسند بالمسند إليه؛ بحيث لا يتجاوزه إلى غيره أصلا، ومن ذلك قوله تعالى: (لَا فِيهَا غَوْلٌ)[3] أي ليس في خمر الآخرة ما يغتال عقل الإنسان ويفسده؛ فقدم هنا الخبر وهو الجار والمجرور، فأفاد هذا التقديم الاختصاص، فيكون المعنى أنه نفى الغول عن خمر الآخرة دون أن يتعداها إلى خمر الدنيا، فإن فيها غولا.

---

١ سورة المؤمنون الآية (٨٣)

٢ ينظر مفتاح العلوم، ص ٩٣، والإيضاح ص ٥٢، وشروح التلخيص ج ١، ص ٣٨٩.

٣ سورة الصافات الآية (٤٨)

ومثله قوله تعالى: (وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ)[١]، أي لكم الاستقرار والمتاع دون غيركم.

وكذا القياس في قوله تعالى: (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ)[٢]، أي دينكم الكفر، وديني الإسلام، والمعنى الكفر مختص بكم، كما أن الإسلام مختص بي. فهذا التقديم يفيد القصر كما يفيده قوله تعالى: (إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي)[٣]، أي حسابهم مقصور على ربي، وليس على أحد سواه.

ومما يدخل في هذا النوع قوله: (وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)[٤]، أي هو مختص به ومتوليه، ولا يقدر على تصريفهما غيره. ومثله أيضا قوله تعالى: (لَهُ المُلْكُ، ولَهُ الحمْدُ)[٥]، فالتقديم يدل على اختصاص الملك والحمد بالله عز وجل. وكقوله تعالى: «وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ»[٦].

وقوله تعالى: (أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأنْثَى)[٧]، ينكر الله عليهم أن يخصوا أنفسهم بالبنين ويخصوا الله بالإناث.

---

١ سورة البقرة الآية (٣٦)

٢ سورة الكافرون الآية (٦)

٣ سورة الشعراء الآية (١١٣)

٤ سورة المؤمنون الآية (٨٠)

٥ سورة التغابن الآية (١)

٦ سورة آل عمران، الآية (١٨٩).

٧ سورة النجم الآية (٢١)

ولأجل أن التقديم يفيد التخصيص لم يلجأ إلى التقديم في قوله تعالى: (ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ)[١]؛ لأن التقديم يفسد المعنى، إذ لو أنه قال بدلا من الآية (لا فيه ريب) لأفاد التخصيص، أي نفي الريب عن القرآن وحده، وإثبات الريب لسائر كتب الله الأخرى، وهو فساد بين، وتشكيك في الكتب المقدسة كما نزلت من عند الله.

٢- وقد يفيد تقديم المسند الاهتمام بالمتقدم: كقوله تعالى : (أَفِي اللَّهِ شَكٌّ)[٢] يقول الزمخشري : (أدخلت همزة الإنكار على الظرف - أي الجار والمجرور-؛لأن الكلام ليس في الشك، وإنما هو في المشكوك فيه، وإنه لا يحتمل الشك لظهور الأدلة وشهادتها عليه)[٣].

تقديم المفعول:

١- القصرُ والاختصاص: كقوله تعالى: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ»[٤]، والأصل نعبدك، ونستعين بك، فقدم المفعول به هنا لأجل الاختصاص، والمعنى نخصك بالعبادة، ونخصك بطلب المعونة، دون سواك . ومنه قوله تعالى : (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ)[٥]؛ إذ خصهم بالهداية دون غيرهم.

---

١ سورة البقرة الآية (٢)

٢ سورة إبراهيم الآية (١٠)

٣ أنظر الكشاف ٤٢٢/٢

٤سورة الفاتحة : الآية (٤)

٥ سورة فصلت : الآية (١٧)

٢- الاهتمام بالمتقدم: كقوله تعالى: «قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ»[1]، وكقوله تعالى: (قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا)[2]؛ فقدم المفعول به على الفعل، وسلط عليه الإنكار بالهمزة، فالاهتمام هنا ليس في اتخاذ الولي، ولكن في اتخاذ غير الله وليا، فكان أولى بالتقديم. ومثله قوله تعالى: (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ)[3]، وأصل الكلام: وجعلوا لله الجنَّ شركاء؛ فقدم المفعول الثاني؛ لشدة الاهتمام به، واستعظام أن يكون له شريك سواء أكان جنة أو غير جن.

ومنه قوله تعالى: ((وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ)[4]، وقال سبحانه: (وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ)[5].

فقدم في الآية الأولى ضمير المخاطبين؛ لأنهم فقراء معدمون واهتمامهم بإزالة الفقر عن أنفسهم أشد من اهتمامهم بإزالة الفقر عن غيرهم حتى ولو كانوا أبناءهم فقدم ضمير المخاطبين لهذا الاهتمام.

---

١ سورة الأنعام، الآية: (١٦٤).

٢ سورة الأنعام الآية (١٤)

٣ سورة الأنعام الآية (١٠٠)

٤ سورة الأنعام الآية (١٥١)

٥ الإسراء الآية (٣١)

وفي الآية الثانية قدم ضمير الغائبين؛ لأن الآباء هنا ليسوا في إملاق، وإنما يخشون أن يقع الإملاق بأبنائهم في المستقبل فقدم الضمير الذي يعود على الآبناء لتدل على الاهتمام بهم فقال نحن نرزقهم وإياكم.

٣- التبرك: مثل «قرآنا قرأت».

٤- ضرورة الشعر، وهو كثير لا يحصره حدّ.

٥- رعاية الفاصلة: كقوله تعالى: «فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ. وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ»[١].

وهذه الأغراض كثيرة، وقد ذكر الزمخشرى أنّ تقديم هذه الأنواع للاختصاص، غير أن ابن الأثير يرجع ذلك إلى وجهين:

الأول: الاختصاص، كقوله تعالى: «قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ. وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ. بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ»[٢]، فإنه إنما قيل «بل الله فاعبد» ولم يقل «بل اعبد الله» لأنه إذا تقدم وجب اختصاص العبادة به دون غيره، ولو قال «بل اعبد» لجاز إيقاع الفعل على أى مفعول شاء.

الثانى: يختص بنظم الكلام، كقوله تعالى: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» وقد ذكر الزمخشرى فى تفسيره أنّ التقديم فى هذا الموضع قصد به الاختصاص وليس

---

١ الضحى ٩ – ١٠.

٢ الزمر ٦٤ – ٦٦.

كذلك فانّه لم يقدم المفعول فيه على الفعل للاختصاص، وإنّما قدّم لمكان نظم الكلام، لأنه لو قال: نعبدك ونستعينك لم يكن له من الحسن ما لقوله: إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ. ألا ترى أنّه تقدّم قوله تعالى: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ. الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ. مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ»[1]، فجاء بعد ذلك قوله: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ»؛ وذاك لمراعاة حسن النظام السجعى الذى هو على حرف النون، ولو قال «نعبدك ونستعينك» لذهبت تلك الطلاوة وزال ذلك الحسن، وهذا غير خاف على أحد من الناس فضلا عن أرباب علم البيان»[2].

وهناك أنواع كثيرة من التقديم لا ترجع إلى المسند إليه والمسند ولا إلى متعلقات الفعل عليه وإنما ترجع إلى أمور كثيرة، بحثها الزركشي[3] في أنواع التقديم والتأخير، وقسمها إلى ما قدم والمعنى عليه، وما قدم والنية به التأخير، والقسم الأول واسع فسيح ومقتضياته كثيرة ذكر منها خمسة وعشرين لونا.

---

١ الفاتحة ٢ – ٤.

٢ المثل السائر ج ٢ ص ٣٩، وينظر الطراز ج ٢ ص ٦٦.

٣ البرهان فى علوم القرآن ج ٣ ص ٢٣٩.

رابعًا– التنكيرُ

للتنكير دلالة غير ما نراه فى التعريف، «وقد يظن ظان أنّ المعرفة أجلى فهى من النكرة أولى، ويخفى عليه أنّ الإبهام فى مواطن خليق وأنّ سلوك الايضاح ليس بسلوك للطريق خصوصا فى موارد الوعد والوعيد والمدح والذم اللذين من شأنهما التشييد. وعلة ذلك أن مطامح الفكر متعددة المصادر بتعدد الموارد، والنكرة متكثرة الأشخاص يتقاذف الذهن من مطالعها إلى مغاربها وينظرها بالبصيرة من منسمها إلى غاربها فيحصل فى النفس لها فخامة وتكتسى منها وسامة. وهذا فيما ليس لمفرده مقدار محصور بخلاف المعرفة فانّه لواحد بعينه يثبت الذهن عنده ويسكن إليه»[1]، فالتنكير يجيءُ لفائدة يقصر عن إفادتها العلم. ومن أغراض التنكير:

١– الإفراد: كقوله تعالى: (وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى)[2]، أي: فرد من أشخاص الرجال.

٢– النوعية: كقوله تعالى: (وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ)[3]، أي: نوعِ من الأغطية، وهو غطاء التعامي عن آيات الله.

٣– التعظيم: كقوله تعالى: (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ)[4]، أي: حياة عظيمة.

---

١ البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن ص ١٣٦.

٢ القصص ٢٠.

٣ البقرة ٧.

٤ البقرة ١٧٩.

٤- **التقليل: كقوله تعالى: (وَرِضْوانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ)[1]، أي: رضوان قليل أكبر.**

٥- **وقد يكون لقصد النكارة والجهل بالمسمى، كقوله تعالى: (أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً)[2]، أي: منكورة مجهولة.**

١التوبة ٧٢.

٢ يوسف ٩.

المبحث الرابع– الفصل والوصل

قيل للفارسي: ما البلاغة؟ قال: معرفة الفصل من الوصل. وذهب كثير من بلاغيي العرب إلى ما ذهب إليه الفارسي، وعدّوا الفصل والوصل فنًا عظيما، صعب المسلك، دقيق المأخذ لا يحيط علما بكنهه إلا من أوتى في فهم كلام العرب طبعا سليما، ورزق في إدراك أسراره ذوقا صحيحا. ولذلك قصر بعضهم البلاغة على معرفته، ولكن آخرين كالقزوينى قال: «وما قصرها عليه لأن الأمر كذلك، وإنما حاول بذلك التنبيه على مزيد غموضه وأنّ أحدا لا يكمل فيه إلّا كمل فى سائر فنونها، فوجب الاعتناء بتحقيقه على أبلغ وجه فى البيان»[1].

والوصل عطف بعض الجمل على البعض والفصل تركه، قال العلويُّ: «ولسنا نريد بتلك الأسرار واللطائف ما يكون متعلقا بعلوم الإعراب من كون الأحرف العاطفة تلحق المعطوف فى الإعراب، ... بل نريد أمرا أخص من ذلك وأغوص على تحصيل الأسرار الغريبة واللطائف العجيبة»[2].

---

١ الإيضاح ص ١٤٧.

٢ الطراز ج ٢ ص ٣٣.

أولًا– مواضع الفصل:

١– كمال الاتصال

وصورته تتمثل في أن تتحد الجملتان اتحادًا تامًا، بأن تكون الثانية منهما متصلة اتصالًا وثيقا بالتي قبلها، بحيث تنزل منها منزلة نفسها، وأن تتحدا خبرًا أو إنشاء وفي هذه الحالة لا تجيء الواو العاطفة؛ لما بينهما من ربط معنوي.

وكمال الاتصال يتحقق بالصورة الآتية :

١– التوكيد: ومن ذلك ما نراه في قوله تعالى: (ذَلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ)[١]؛ فإن مفهوم جملة " ذلك الكتاب " غير مفهوم جملة " لا ريب فيه"؛ لأن معنى الأولى كما قال العلماء: إنه هو الكتاب الذي بلغ الدرجة القصوى في الكمال، ومعنى لا ريب فيه : أنه لا يتطرق إليه شك ولا ريب رغم ارتياب المشركين فيه، فالمعنيان مختلفان، لكنهما متلازمان فإنه يلزم من بلوغ القرآن درجة الكمال ألا يكون محلا للريب فجاءت جملة "لا ريب فيه" مقررة لهذا المعنى، دافعة لتوهم السامع تجوزا في الجملة أو مبالغة ومجازفة وتوسعا في الكلام، فأشبه التوكيد المعنوي الذي عرفته في المفردات في قولنا: جاء مُحَمَّد عينه. ومنه قوله أيضا قوله تعالى: (مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ)[٢]،

---

١ سورة البقرة الآية (٢)

٢ سورة يوسف الآية (٣١)

فالجملة الثانية مقررة لما تستلزمه الجملة الأولى، ذلك أنه إذا لم يكن بشرا، كان ملكا يقضي بذلك العرف.

٢- البدل: وقد يكون في الجملة الأولى قصور في وفائها بالمعنى المراد؛ فيحتاج الأمر إلى التعبير بجملة ثانية أوفى منها في أداء المعنى على طريق البدل؛ حيث يقتضي المقام مزيدا من الاهتمام. ترى ذلك في قوله سبحانه وتعالى: (وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)[١]. فالغرض هنا التذكير بنعم الله سبحانه، وهذا أمر حسن في نفسه، ووسيلة لغيره، يؤدي إلى الإقبال على الخير والبعد عن الشر، وفي ذلك النجاة والفوز.

وقوله: (أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ)[٢]، مؤدٍّ لهذا الغرض بما فيه من علم وما فيه من إلزام؛ حيث أحال إلى عملهم، فكأنه قال: أمدكم بتلك النعم التي تعلمونها ولا تستطيعون لها جحدا. ثم جاء قوله: (أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)[٣]؛ لتأدية الغرض نفسه، وليس فيه أكثر من تفصيل النعم، إلَّا أن لهذا التفصيل مدخلا في زيادة التذكير والتأثير، وفيه يتذكر العاقل ويرتدع المعاند الجاحد، ومن ثم يتحقق بالجملة الثانية من الغرض ما لم يتحقق بالأولى فكانت

---

١ سورة الشعراء الآيات (١٣٤:١٣٢)

٢ سورة الشعراء الآية (١٣٢)

٣ سورة الشعراء الآيات (١٣٤:١٣٢)

بدلًا منها بمنزلة بدل البعض من الكل في المفردات؛ إذ ما ذكر من النعم بمعنى " ما تعملون ".

وتراه أيضًا في قوله: (يُدَبِّرُ الأمر يُفَصِّلُ الآيات لَعَلَّكُمْ بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ)[١]. فالمراد ههنا حمل المخاطبين على النظر في عجائب قدرة الله عسى أن تزول استرابتهم في قدرة الله على بعثهم، وتدبر الأمر يؤدي بالنظر فيه إلى الاقتناع بباهر قدرته سبحانه، وتفصيل الآيات وتنوعها مما ينشط العقل ويدعو إلى التفكير بخلاف اطراد الآيات على نسق واحد، ولذلك كانت الجملة الثانية أوفى بأداء هذا الغرض.

وتستطيع أن تعده في قوله تعالى: (وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ)[٢]؛ فالجملة الثانية بمنزلة بدل الاشتمال من الأولى وهي أوفى بتأدية المراد، وهو حمل المخاطبين على اتباع الرسل؛ لأن المعنى: أنكم لا تخسرون باتباعكم شيئًا من دنياكم،بل تربحون صحة دينكم، وبذلك تنالون خيري الدنيا والآخرة.

٣- عطف البيان: قد يكون في الجملة خفاء وإبهام، فتأتي بعدها جملة أخرى تكشف هذا الخفاء وتزيل ذلك الإبهام، والمقام يقتضي ذلك.

---

١ سورة الرعد الآية (٢)

٢ سورة يس الآيتان (٢٠ ، ٢١)

ترى هذا في قوله تعالى: (فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ)[1]. فأنت واجد في جملة " فوسوس إليه الشيطان " إضلالا خفيا، وهذا أمر مبهم لا يظهر معه ما أوحى به الشيطان لآدم، فلما جاء قوله سبحانه وتعالى: (قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ)[2]، استبان ما أبهم في الجملة الأولى؛ ففي الثانية بيان وتوضيح للأولى، فكانت منها بمنزلة عطف البيان الذي في (أقسم بالله أبو حفص عمر)، وعطف البيان لا يعطف على متبوعه.

٢- شبه كمال الاتصال

من دواعي الفصل بين الجملتين أن تتكون الجملة الثانية قوية الارتباط بالأولى، وهذا يتحقق إذا اتحدت الجملتان خبرا وإنشاء، وكانت الجملة الأولى مثيرة لسؤال تصلح الثانية أن تكون جوابا عنه بمعونة القرائن، وحينئذ يفصل بينهما بترك العطف، كما يفصل الجواب عن السؤال؛ فأشبهت الحال هنا -من بعض الوجوه- حال كمال الاتصال التي تقدمت.

---

١ سورة طه الآية (١٢٠)

٢ سورة طه الآية (١٢٠)

ومن ذلك قوله سبحانه: (قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ۖ)[١]؛ فقد جاءت الجملة الأولى "إنه ليس من أهلك" مثيرة لسؤال بما تضمنته من حكم عجيب: كيف لا يكون من أهلي، وهو ابني من صلبي؟.

ألأنه لم يؤمن، أم لسبب آخر؟ فجاء الجواب عن ذلك: إنَّ أهلك هم المؤمنون الذين صلح عملهم، وهذا ليس منهم، إنه عمل غير صالح ففصل بين الجملتين؛ لما بينهما من شبه كمال الاتصال.

٣- كمال الانقطاع بلا إيهام:

وهو أن تختلف الجملتان خبرا وإنشاء، وحينذاك يجب الفصل بينهما بترك العطف؛ لأن العطف يقتضي التآلف والتناسب بينهما، وهما متباينان تمامًا؛ لأن الجملة الخبرية إنما تكون في أمر وقع، أو سيقع إيجابًا أو سلبًا، والإنشائية في أمر يطلب أو يبدأ؛ فالقصة بينهما متقطعة تماما، فلا يصح العطف، وهذا هو ما يسمى بكمال الانقطاع، بيد أن الفصل هنا مشروط بألا يوهم خلاف المراد، من ذلك قوله سبحانه: (وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)[٢]، فالأولى خبرية لفظا ومعنى، والثانية إنشائية لفظا ومعنى.

---

١ سورة هود الآية (٤٦)

٢ سورة فصلت الآية (٣٤)

٤- التوسط بين الكمالين:

التوسط بين الكمالين (كمال الاتصال وكمال الانقطاع) مع قيام المانع من الوصل: كأن يكون الجملة الأولى حكم لم يقصد إعطاؤه للثانية، كقوله تعالى: (وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)[١]، فالجملة "الله يستهزئ بهم" لا يصلح عطفها على جملة "قالوا ..."؛ لئلا يلزم من ذلك اختصاص استهزاء الله بهم بوقت خلودهم إلى شياطينهم، والواقع أن استهزاء الله بهم غير مقيد بوقت، ولا يصح أن تعطف جملة "الله يستهزئ بهم" على جملة "إنا معكم"؛ لئلا يلزم أن تكون من مقول المنافقين، وهي من مقول الله -عز وجل-.

---

١ سورة البقرة الآيتان (١٣ ، ١٤)

ثانيًا– مواضع الوصل

١–   التوسط بين الكمالين مع عدم المانع:

وهذا يتحقق إذا اتحدت الجملتان في الخبرية أو الإنشائية، ولم يكن هناك سبب يقتصي الفصل، ووجدت مناسبة، ورابطة قوية تجمع بينهما في المعنى. والجملتان المتحدتان على صور، منها:

الصورة الأولى:

أن تكون الجملتان متفقتين في الخبرية لفظًا ومعنى، ومن ذلك قول الله –سبحانه وتعالى–: (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ)[1]، وقول الله –سبحانه وتعالى–: (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ)[2].

الصورة الثانية:

أن تتفق الجملتان في الإنشائية لفظا ومعنى، ومنه قوله جل شأنه: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ)[3]، وقولهُ تعالى: (فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ)، وقوله تعالى: (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا)؛ حيث وصلَ جملةَ «ولا تشركوا» بجملةِ «واعبدوا»؛ لاتحادِهما في الإنشاءِ، ولأنَّ

---

١ سورة الروم الآيه (١٩)

٢ سورة الانفطار الآيتان (١٣ ، ١٤)

٣ سورة لقمان الآية (٣٣)

المطلوبَ بهما مما يجبُ على الإنسانِ أن يؤدِّيَهُ لخالقهِ، ويختصَّهُ به، وقول الرسول ﷺ: (احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا كان كذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان).

الصورة الثالثة:

أن يكون بين الجملتين تخالف في اللفظ مع اتفاق في المعنى فإن العبرة بالتوافق في المعنى، خبريًّا كان أم إنشائيًّا، ولا عبرة بالصورة اللفظية؛ ففي قوله سبحانه: (قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ)[1]. وفي هذا القول الكريم عطف بين الجملتين؛ لأنهما خبريتان في المعنى، وإن اختلفتا في لفظيهما خبرا أم إنشاء.

---

١ سورة هود الآية (٥٤)

المبحث الخامس- الإيجاز والإطناب والمساواة

ينقسم الكلام إلى: إيجاز، وإطناب، ومساواة؛ فكلُّ ما يجُولُ في الصَّدرِ منَ المعاني، ويَخطُر ببالكَ من معنًى منها، لا يعدُو التعبيرُ عنهُ طريقًا من طرقٍ ثلاثٍ:

أولًا- إذا جاء التعبيرُ على قدرِ المعنَى، بحيثُ يكونُ اللفظُ مساويًا لأصلِ ذلك المعنَى - فهذه هي «المساواةُ» ، وهي الأصلُ الذي يكونُ أكثرَ الكلامِ على صورتهِ، والدستورُ الذي يقاسُ عليه.

ثانيًا- إذا زادَ التعبيرُ على قدرِ المعنَى لفائدةٍ، فذاكَ هو «الإطنابُ»، فإنْ لم تكنِ الزيادةُ لفائدةٍ فهيَ حشوٌ أو تطويلٌ.

ثالثًا- إذا نقصَ التعبيرُ على قدرِ المعنَى الكثيرِ، فذلكَ هو «الإيجازُ».

فكلُّ ما يخطرُ ببال المتكلمِ من المعاني فلهُ في التعبيرِ عنه بإحدى هذه الطرقِ الثلاث، فتارةً (يوجزُ) وتارةً (يُسهبُ)، وتارةً يأتي بالعبارةِ (بينَ بينَ)، ولا يُعدُّ الكلامُ في صورةٍ من هذه الصورِ بليغًا إلَّا إذا كانَ مطابقًا لمُقتضَى حالِ المخاطَبِ، وتدعو إليه مواطنُ الخطابِ، فإذا كان المقامُ للإطنابِ مثلا، وعدلتَ عنه إلى: الإيجازِ، أو المساواةِ لم يكنْ كلامُك بليغًا- وفي هذا الباب ثلاثةُ مباحثَ.

أولًا– المساواة:

أن يكون اللَّفظُ مساويًا للمعنى، لا يزيد عليه، ولا ينقص عنه، وهو من أعظم أبواب البلاغة، بل هو بعينه عين البلاغة فأنت حين تصف البليغ تقول: كانت ألفاظه قوالبَ لمعانيه. وقد وصفوا كلام الرسول –ﷺ– بقولهم: "كان كلامه قولًا فصلًا، لا فضل فيه ولا تقصير". وقالت أم معبد في وصف كلامه –ﷺ– قالت عنه: "رَأَيْتُ رَجُلًا ظَاهِرَ الْوَضَاءَةِ أَبْلَجَ الْوَجْهِ، حَسَنَ الْخَلْقِ، لَمْ تَعِبْهُ نُحْلَةٌ، وَلَمْ يُزْرِهِ صُقْلَةٌ، وَسِيمًا قَسِيمًا، فِي عَيْنَيْهِ دَعَجٌ، وَفِي أَشْفَارِهِ غَطَفٌ، وَفِي صَوْتِهِ صَحَلٌ، وَفِي عُنُقِهِ سَطَعٌ، وَفِي لِحْيَتِهِ كَثَاثَةٌ، أَزَجُّ أَقْرَنُ، إِنْ صَمَتَ فَعَلَيْهِ الْوَقَارُ، وَإِنْ تَكَلَّمَ سَمَا وَعَلَاهُ الْبَهَاءُ، أَجْمَلُ النَّاسِ مِنْ بَعِيدٍ، وَأَحْلَاهُ وَأَحْسَنُهُ مِنْ قَرِيبٍ، حُلْوُ الْمَنْطِقِ، فَصْلٌ، لَا نَزْرٌ وَلَا هَذَرٌ، كَأَنَّ مَنْطِقَهُ خَرَزَاتُ نَظْمٍ يَنْحَدِرْنَ، رَبْعَةً، لَا بَايِسَ مِنْ طُولٍ، وَلَا تَقْتَحِمْهُ عَيْنٌ مِنْ قِصَرٍ، غُصْنٌ بَيْنَ غُصْنَيْنِ..."[1]. وكثيرٌ من آيات القرآن الكريم موصوفة بأن ألفاظها طبقًا لمعانيها.

ومما جاء في باب المساواة قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)[2]؛ فالله سبحانه أراد أن يأمر بجميع المحاسن الممدوحات، وينهى عن

---

١ الشريعة،أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجُرّيُّ البغدادي (المتوفى: ٣٦٠هـ)، تحق: الدكتور عبد الله بن عمر بن سليمان الدميجي، دار الوطن – الرياض / السعودية، ط٢، ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩م، ج٣، ص٥٣٣.

٢ سورة النحل الآية (١٠)

جميع القبائح المذمومات؛ فأخرج الألفاظ في صورة مساوية للمعاني لا تزيد عليها ولا تنقص عنها، ولو أنك حذفت لفظة من ألفاظ الآية، لاختل شيء من المعنى بسبب هذا الحذف اختلالًا ظاهرًا، ونقص نقصًا واضحًا، وكذلك إذا زدت على ألفاظها لفظة لحصل من الاختلال بالزيادة ما حصل منه بالنقص، وليس ثمة معنى للمساواة غير هذا.

فالله عز وجل أمر في صدر الآية بكل معروف: أمر بالعدل وهو معاملة المرء نفسه وغيره بالإنصاف، لا يظلم نفسه، ولا يظلم غيره، ثم أمر بالإحسان وأخره عن العدل؛ لأن العدل واجب، والإحسان مندوب يزيد على الواجب، ثم حضَّ ذوي القربى بالعطاء؛ لبيان أهميتهم وفضل الثواب عليهم، والإحسان إليهم.

ونهى عن الفحشاء، والمنكر والبغي؛ ليشمل كل ما يجب أن ينهى عنه، كما شمل صدر الآية كل ما يجب أن يؤمر به. فألفاظ الآية الكريمة تطابق معانيها كل المطابقة، لا تفضل عنها ولا تقصر دونها.

---

١ العسكري اعتبر الآية من الإطناب ، الصناعتين ص ١٩٥ ، وابن ابي الاصبع اعتبرها من المساواة ، بديع القرآن ص ٧٩

ومن المساواة قوله تعالى: (قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ)[١].

بدأ الآيات بأبلغ دعاء على الإنسان وهو القتل؛ لما فيه من إذهاب الروح بسرعة وفجأة، وهو أعظم في الفجيعة، ويجعلنا نعجب لأمر هذا الإنسان الذي يفرط في كفره بنعم الله، ويفرط في غروره وكبريائه، ولو تأمل في نفسه ونظر في خلقه، لوجد أنه خلق من نطفة هي من البشاعة ونتن الرائحة بمكان، ومن هذه النطفة أحكم خلقته، ويسر له طريق الخير والشر، ثم أماته ونزع منه الروح، وجعله في قبره بعيدا عن افتراس الحيوانات الضارية، ثم بعثه في الآخرة؛ لينال جزاء أعماله في الدنيا، ولكنه رغم ما حباه به من نعم لم يقض ما يجب عليه في حق الله سبحانه، وإنما انساق في إصرار يخالف أوامر الله مما يستحق عليه الزجر والتعنيف؛ فقد حصلت هذه الآيات على نهاية المطابقة لمعانيها والمقصود منها، ولو رمت زيادة عليها لكانت فضلًا وعبثًا، ولو أردت نقصانًا منها لكانت إخلالًا وضعفًا.

ومن المساواة أيضًا قوله تعالى: (لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ)[١].

١ سورة عبس الآيات (١٧ : ٢٣)

أي: لا تبعة عليكم من مهر إذا طلقتم النساء ولم تكونوا دخلتم بهن، ولم تفرضوا لهن مهرًا، بل عليكم لهنَّ متعة من مال وكسوة، بقدر وسعكم وطاقتكم تقدر باجتهاد القاضي، كالنفقة، فالغني الموسر عليه من الالتزامات ودفع المال أكثر من الفقير الذي يقل دخله؛ فالمساواة بين الغني والفقير في الإنقاق عبء يثقل كاهل الفقير، ولا يوجبه الشرع، وفي قوله: "على الموسع قدره على المقتر قدره" أسلوب أدت ألفاظُه معانيَه من غير زياده ولا نقصان وهو ما نسميه بالمساواة.

---

١ سورة البقرة الآية (٢٣٦)

ثانيًا– الإيجازُ

أن يشتمل الكلام على المعاني الكثيرة التي يعبر عنها بألفاظ قليلة؛ فتختصر الألفاظ ليأتي الكلام موجا، وقد قيل: "الإعجاز في الإيجاز نهاية إعجاز".

والإيجاز قد يكون بحذف بعض الألفاظ، وقد يكون دون حذف، فمثال ما حذفت منه بعض الألفاظ، قوله تعالى: (أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ)[١]، أي: فأفطر فعليه عدة من أيام أخر. وقوله: (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۚ)[٢]، أي: لو شاء لذهب بسمعهم وأبصارهم لذهب. وقوله تعالى: (لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ)[٣]، أي: ومن أنفق بعده وقاتل؛ بدليل أنه قال بعده: «أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا»[٤].

وقوله تعالى: (وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ)[٥]، أي مواشيهم، ولم يذكرها؛ لأنها ليست مقصودة، بل المقصود بيان الفعل الذي صادفهم موسى عليه وهو السقي.

---

١ سورة البقرة الآية (١٨٤)

٢ سورة البقرة الآية (٢٠)

٣ سورة الحديد الآية (١٠)

٤ سورة الحديد الآية (١٠)

٥ سورة القصص الآية (٣٦)

وقوله تعالى: (فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا)[1]، أي: فذهبا إليهم فكذبوهما فاستحقوا التدمير، فدمرناهم تدميرا. وقوله تعالى: (لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ۚ)[2]، أي: من قبل الغلبة ومن بعدها، أو من قبل كل شيء وبعده.

وقوله تعالى: (وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ)[3]، أي: على سفينة ذات ألواح.

وقوله تعالى: (قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ)[4]، أي: لدفعتكم عن ضيفي، أو عما أنتم عليه مطلقا.

وقوله تعالى: (فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ)[5]، أي: كشفنا عنهما البلاء وشعرا بكشفه على فرح واستبشار عظيم؛ بدليل قوله تعالى: (إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)[6].

والإيجاز بغير حذف يسمى إيجاز قصر«ويسمَّى إيجازَ البلاغةِ»: وهو تكثير المعنى بتقليل اللفظ، وهو أعلى طبقات الفصاحة مكانًا، وأسماها

---

١ سور الفرقان الآية (٣٦)

٢ سورة الروم الآية (٤)

٣ سورة القمر الآية (١٣)

٤ سورة هود الآية (٨٠)

٥ سورة الصافات الآية (١٠٣)

٦ سورة الصافات الآية (١٠٥)

منزلة، ومنه قوله تعالى: (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ)[1]، فهاتان الكلمتان قد جمعتا معاني الرسالة كلها، واشتملت على النبوة في عمومها وخصوصها، واستوعبت كلياتها وجزئياتها.

وقوله تعالى: (وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ)[2]، نجد في الآية كل ما تشتهيه النفوس، وتميل إليه القلوب، وتلتذ به العيون مما تشاهده وتبصره من ألوان الجمال والحسن، فهذا اللفظ الموجز غاية الإيجاز يدل على معان لا تنحصر عدًّا.

وقوله تعالى: (وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ)[3]، أي: قاتلهم بنبذ العهد وقطعه، كما نبذوا عهدك وقطعوه.

ومنه قوله تعالى:(وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ)[4]؛ فكلمة (الأمر) وحدها يندرج تحتها معانٍ عديدة من ابتداء نبوة موسى عليه السلام مخاطبة الله تعالى له، وإعطائه دلائل النبوة وعلاماتها: من إلقاء العصا لتصير ثعبانا، وإخراج يده بيضاء، وبعثه إلى فرعون، وسؤاله أن يشد الله عضده بأخيه هارون، إلى غير ذلك مما جرى في هذا المقام.

---

١ سورة الحجر الآية (٩٤)

٢ سورة الزخرف الآية (٧١)

٣ سورة الأنفال الآية (٥٨)

٤ سورة القصص الآية (٤٤)

وكذا قوله تعالى: (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ)[1]، فهذه الكلمات على قصرها احتوت جميع مكارم الأخلاق وشريف الخصال؛ لأن في العفو الصفح عمن أساء والمسامحة والإغضاء.

وفي قوله تعالى: "وأمر بالعرف": صلة الأرحام، ومنع اللسان عن الكذب والغيبة، وغض الطرف عن المحرمات.

وفي قوله تعالى: "وأعرض عن الجاهلين": الصبر والحلم وكظم الغيظ، فهذه الألفاظ قد وفت بالمعنى غاية الوفاء، ولم تقف عند حد أو نهاية.

وقوله تعالى: (أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا)[2]، محتوية على حاجات الحيوانات كافة من القوت والحب والثمر من الشجر، والملح من الماء، والنار من العيدان.

وقوله تعالى: (لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ)[3]؛ حيثُ جمع الله – عزَّ وجلَّ– في الآية عيوب خمر الدنيا من الصداع، وذهاب العقل، وضياع المال، ونفاذ الشراب، ونفاها عن خمر الآخرة.

وقوله تعالى: (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ)[4]، فهذه العبارة القصيرة يندرج تحتها معانٍ جمة لا يمكن حصرها، ولا يصل إليها ما أُثِرَ عن العرب من قولهم:

---

١ سورة الأعراف الآية (١٩٩)

٢ سورة النازعات الآية (٣١)

٣ سورة الواقعة الآية (٩١)

٤ سورة البقرة الآية (١٧٩)

القتل أنفي للقتل؛ فقد تميزت الآية الكريمة عن قول العرب من عدة وجوه منها:

١. فقوله: "القصاص حياة" جملة تتكون من لفظتين فقط، أما "القتل أنفى للقتل" فهي جملة مكونة من أربعة ألفاظ.

٢. إن حروف النص القرآني "في القصاص حياة" أقل من حروف القول المأثور؛ لأن الحروف الملفوظة من النص القرآني مع التنوين – أحد عشر حرفًا – والحروف الملفوظة في القول المأثور – أربعة عشر حرفًا–، وما كان أقل لفظا مع الوفاء بالمعنى فهو أبلغ.

٣. إن في النص القرآني تنكيرًا للحياة، وهو مفيد لتعظيمها، من حيث إن في تشريع القصاص حياة مَن هَمَّ بالقتل، وحياة المهموم بقتله، وحياة مَن تسول له نفسه قتل غيره، وحياة ذلك الآخر؛ – ففيه إذًا حياة الجميع – وأي حياة أعظم من تلك الحياة، أما القول المأثور فخلو من هذه المزية.

٤. النص القرآنى عام مطرد؛ إذ القصاص مطلقا في كل وقت، ولكل فرد سبب في الحياة، أما القول المأثور فليس في ظاهره[1] مطردا؛ إذ ليس كل قتل أنفى للقتل، بل تارة يكون أنفى له إذا كان قصاصًا، وأخرى يكون أدعى له، إذا كان القتل ظلمًا وعدوانًا.

١ إنما كان بالنظر إلى الظاهر ؛ لأن المراد بالقتل في قولهم هذا هو القتل قصاصاً لا مطلق القتل .

٥. إن في النص القرآني تصريحًا بالمطلوب، وهو "الحياة"، والتصريح بها أزجر عن القتل بغير حق، وأدعى إلى القصاص، أما القول المأثور فإنما يدل على الحياة لزوما لا نصًّا.

٦. إن النص القرآني خالٍ من التكرار اللفظي، أما القول المأثور ففيه تكرار، ولا يخفى أن الكلام الخالي من التكرار أفضل من الكلام المشتمل عليه.

٧. إن النص القرآني جعل فيه "القصاص" كالمنبع للحياة بإدخاله "في" عليه، فكان أحد الضدين، وهو "الفناء" صار محلًّا لضده الآخر، وهو "الحياة"، وفي ذلك ما لا يخفى من المبالغة، أما القول المأثور فخلو من هذا المعنى.

٨. إن النص القرآني محلى بحلية الطباق[١] بين "القصاص والحياة"، أما القول المأثور فخال منها.

٩. استغناء النص القرآني عن تقدير محذوف، بخلاف القول المأثور، فإن تقديره: "القتل أنفى للقتل من تركه".

١٠. إن النص القرآني يمتاز بحسن التأليف، وشدة التلاؤم المدركين بالحس، بخلاف القول المأثور فإنه خلو منهما.

وقد ذكر بعض العلماء في تفضيل هذه الآية على قول العرب المأثور عشرين وجهًا أو أكثر[٢].

---

١ الطباق : الجمع بين معنيين متقابلين في الجملة.

٢ المعترل ١/ ٣٠٠.

وللسنة النبوية أيضًا من هذا الإيجاز الحظّ الأوفر، يرشد إلى ذلك قوله -ﷺ-: "أوتيت جوامع الكلم".

فمن ذلك قوله -ﷺ-: " الطمع فقر واليأس غنى"، وقوله-ﷺ-: " المعدة بيت الداء، والحمية رأس الدواء".

وقوله -ﷺ-: "الضعيف أمير الركب"، فقد جمع من آداب السفر والعطف على العطف ما لا يسهل على البليغ أن يعبر عنه إلا بالقول المسهب الطويل.

ثالثًا– الإطناب:

هو "زيادة اللفظ على المعنى لفائدة جديدة"، أو هو "تأدية المعنى المراد بعبارة زائدة عنه لفائدة". أو هو "تأديةُ المعنَى بعبارةٍ زائدةٍ عن متعارفِ أوساطِ البلغاءِ؛ لفائدةِ تقويتِه وتوكيدِه"، نحو قوله تعالى: (قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا، أي: كبرتُ، فإذا لم تكنْ في الزيادةِ فائدةٌ، يسمَّى « تطويلًا» إنْ كانتِ الزيادةُ في الكلامِ متعيِّنةً. كقولِ عديِّ العباديِّ في جذيمةَ الأبرش:

وقَدَّمَتِ الأَدِيمَ لِرَاهَشْيه ... وأَلْفَى قوْلَها كَذِباً ومَيْنَا

فالمينُ والكذبُ بمعنى واحدٍ. ولم يتعينِ الزائدُ منهما؛ لأنَّ العطفَ بالواو لا يفيدُ ترتيبًا ولا تعقيبًا ولا معيةُ، فلا يتغيرُ المعنى بإسقاطِ أيهما شئتَ.

ويسمَّى «حشوًا» إنْ كانتِ الزيادةُ في الكلامِ غيرَ متعينةٍ لا يفسدُ بها المعنَى، كقول زهير بن أبي سلمَى:

وَأَعْلَمُ عِلْمَ الْيَوْمِ وَالْأَمْسِ قَبْلَهُ وَلَكِنَّنِي عَنْ عِلْمِ مَا فِي غَدٍ عَمِي

فإنَّ كلمةَ (قبلَه) زائدةٌ لوضوحِ أنَّ الأمسِ قبلَ اليومِ ، وكلٌّ منَ الحشوِ والتطويلِ معيبٌ في البيانِ، وكلاهُما بمعزلٍ عن مراتبِ البلاغةِ.

والإيجاز له موضع فيخاطب به الخواص. والإطناب له موضع فيخاطب به العوام والخواص. والإطناب يفيد المبالغة في الكلام، وزيادة التصور للمعنى

المقصود. ويفهم ذلك من المعنى اللُّغوي للكلمة: يقال للريح أطنبت: إذا اشتد هبوبها.

أنواع الإطناب: وللإطناب عند البلاغيين أنواع مختلفة، منها:

١- الإيضاح بعد الإبهام؛ ويأتى فيه المعنى في صورتين مختلفتين:

إحداهما مبهمة والأخرى موضحة؛ فيزيده ذلك تقريرًا وتملكًا في ذهنِ السامعِ ونفسه، بذكرهِ مرتين، مرةً على سبيل الإبهامِ والإجمالِ، ومرّةً على سبيلِ التفصيلِ والإيضاحِ، فيزيدُه ذلك نبلًا وشرفًا، ومنه قوله سبحانه وتعالى: (وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى)[١]، ثم جاء قوله: (أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ)[٢]، فقوله : "ما يوحى" مبهم فسر بقوله: "أنِ اقذفيه في التابوت".

ومنه قوله تعالى: (وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ)[٣]، فإن قوله "أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين" إيضاح للإبهام الذي تضمنه لفظ الأمر في قوله: "وقضينا إليه ذلك الأمر".

---

١ سورة طه الآيتان (٣٧ ، ٣٨)

٢ سورة طه الآية (٣٩)

٣ سورة الحجر الآية (٦٦)

ومنه قوله تعالى: (فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَىٰ)[١]، فقوله تعالى: " فوسوس إليه الشيطان – كلام مجمل فصل بالكلام الذي جاء بعده.

ومن الإيضاح بعد الإبهام – التوشيع: وهو في اللغة: لف القطن المندوف، وفي الاصطلاح: أن يؤتى في عجز الكلام غالبًا بمثنى مفسر باسمين ثانيهما معطوف على الأول، ليُرى المعنى في صورتينِ،يخرجُ فيهما من الخفاءِ المستوحِشِ إلى الظهورِ المأنوسِ، نحو قوله –صلى الله عليه وسلم–: (الخمر من هاتين الشجرتين: النخلة والعنب). نحو: العلمُ علمانِ: علمُ الأبدانِ، وعلمُ الأديانِ.

وقد يأتي المثنى في أول الكلام، نحو قوله:–ﷺ–: "منهومان لا يشبعان: طالب علم وطالب مال". وقوله:–ﷺ–: "خصلتان لا تجتمعان في مؤمن: البخل وسوء الخلق".

٢– ذِكْرُ الخَاصِّ بَعْدَ العام؛ لِلتَّنبيهِ عَلَى فَضْلِ الْخَاصِّ، نحو قوله تعالى: (حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ)[٢]، وفائدتُه: التنبيهُ على مزيةٍ وفضلٍ في الخاصِّ ،حتى كأنَّه لفضلهِ ورفعتهِ جزءٌ آخرُ، مغايرٌ لما قبلهُ، ولهذا خصَّ الصلاةَ الوسطى (وهي العصرُ على الصحيحِ) بالذكرِ لزيادةِ

---

١ سورة طه الآية (١٢٠)

٢ سورة البقرة الآية (٢٣٨)

فضلِها. ونحو قوله تعالى: (تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا)[1]؛ فقد خص الله سبحانه وتعالى الروح وهو جبريل – عليه السلام– بالذكر مع أنه داخل في عموم الملائكة؛ تكريمًا له وتعظيمًا لشأنه، حتى كأنه جنس آخر.

٣- ذكر العام بعد الخاص؛ لإفادة العموم مع العناية بشأن الخاص، كما في قوله تعالى: (رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ)[2]، وفائدتُه شمولُ بقيةِ الأفراد، والاهتمامُ بالخاصِّ لذكرِهِ ثانياً في عنوان عامٍّ، بعد ذكرِهِ أولاً في عنوانٍ خاصٍّ؛ فقد ذكر الله سبحانه وتعالى المؤمنين والمؤمنات، وهما لفظان عامان يدخل فيهما مَن ذُكر قبل ذلك؛ لإفادة العموم مع العناية بالخاص لذكره مرتين، مرة وحده ومرة مندرجا تحت العام.

---

١ سورة البقرة الآية (٤)

٢ سورة نوح الآية (٢٨)

علم البيان

البيان لغة الكشف والإيضاح، يقال: فلان أبين من فلان، أي: أوضح منه كلاما. واصطلاحا: علم يستطاع بمعرفته إبراز المعنى الواحد في صور مختلفة، وتراكيب متفاوتة في وضوح الدلالة، مع مطابقة كل منها مقتضى الحال.

وتقييد الاختلاف بالوضوح؛ لتخرج الألفاظ المترادفة كليث وأسد وغضنفر، فإنها وإن كانت طرقا مختلفة لإيراد المعنى الواحد، فاختلافهما إنما هو في اللفظ والعبارة، لا في الوضوح والخفاء.

واللام في المعنى الواحد للاستغراق العرفي، أي: كل معنى يدخل تحت قصد المتكلم وإرادته، فلو عرف أحد إيراد معنى واحد، كقولنا: علي جواد، بطرق مختلفة لم يكن بذاك عارفا بالبيان.

توضيح لمعناه الأدبي والعملي:

لقد عرفه علماء البلاغة بأنه: علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطريق مختلفة في وضوح الدلالة عليه. فإن الضليع بهذا الفن، إذا حاول التعبير عما يختلج في صدره من المعاني وجد السبيل ممهدا، فيختار ما هو أليق بمقصده وأشبه بمطلبه من فنون القول وأساليب الكلام:

١- مثال إيراد في التشبيه أن يقال: (زيد كالبحر في السخاء) و(زيد بحر في السخاء) و(زيد بحر). وأظهرها ما صرح فيه بالوجه، وأخفاها – وهو

أوكدها – ما حذف فيه الوجه والأداة معا، فيخاطب كل من هذه الأوجه في هذه الأبواب بما يناسب المقام من الخفاء والوضوح.

٢- ومثال إيراده بطرق مختلفة في باب الاستعارة أن يقال مثلا: في وصفه بالجود: رأيت بحرا في الدار، وفي الاستعارة التبعية: (مطر زيد بالإنعام جميع الأنام)، وفي الاستعارة المكنية (لجة زيد تتلاطم أمواجها)؛ لأن اللجة والتلاطم من لوازم البحر.

٣- والأمثلة التي مثلوا بها للطرق المختلفة في باب الكناية، أن يقال في وصف زيد بالجود مثلا: زيد مهزول الفصيل، وزيد كثيرُ الرماد، فوصفه بالجود عن طريق الكناية؛ لأن هزال الفصيل إنما يكون بإعطاء لبن أمه الأضياف، وجبن الكلب؛ لإلفه الإنسان الأجنبى بكثرة الواردين من الأضياف، فلا يعادي أحدًا ولا يتجاسر عليه، وهو معنى جبنه. وكذلك كثرة الرماد.

ومما تقدم نجدُ أنَّ البيان يطلق على معنيين:

١- معنى أدبي واسع:

يشمل الإفصاح عن كل ما يختلج في النفس من المعاني والأفكار والأحاسيس والمشاعر بأساليب لها حظها الممتاز من الدقة والإصابة، والوضوح والجمال وهو هذا يجمع فنونه البلاغية الثلاثة .

٢- معني علمي محدود:

وهو التعبير عن المعنى الواحد بطريق الحقيقة أو المجاز أو الكناية[1].

موضوعه: اللفظ العربي، من حيث التفاوت في وضوح الدلالة بعد رعاية مطابقته مقتضى الحال.

فائدته: ستعلم مما يلي أن مباحث البيان محصورة في المجاز على أنحائه، أي؛ إنه بمعنى أعم يشمل الكناية، وأن التشبيه إنما ذكر فيه لبناء الاستعارة عليه.

"واضعه": أول مَن دون مسائل هذا العلم: أبو عبيدة معمر بن المثنى في كتابه "مجاز القرآن"، وتبعه الجاحظ، وابن المعتز، وقدامة بن جعفر، وأبو هلال العسكري، وما زال يشدو شيئا فشيئا حتى جاء الإمام عبد القاهر فأحكم أساسه وشيد بناءه.

أبواب علم البيان:

اعلم أن اللفظ إن استعمل في معنه الموضوع له فحقيقة، وإن استعمل في غيره، لعلاقة مع قرينة، فإما مانعة من إرادة المعنى الأصلي فمجاز، وإما غير مانعة فكناية.

والمجاز إن كان لعلاقة المشابهة فاستعارة مفردا كان أم مركبا، وإن كان لعلاقة غير المشابهة فإن كان مفردا سمي مجازًا مرسلًا، وإن كان مركبًا قيل له: مجاز مركب مرسل.

---

١ انظر : علم البيان، د/ بدوي طبانة، ط٢، ص ٣١.

والاستعارة مبنية على التشبيه، فوجب التعرض له، فعلم من هذا وبما تقدم من أن الدلالة الوضعية لا تتفاوت وضوحا وخفاء على المشهور، أن أبواب هذا الفن أربعة: التشبيه المجاز بقسميه، الكناية؛ أما الحقيقة فإنما تذكر فيه ليتضح مقابلها، وهو المجاز أشد الوضوح "وبضدها تتميز الأشياء" وأيضا فهي أصل المجاز، وهو فرع لها تناسب ذكرها في الفن تبعا.

التشبيه

تمهيدٌ: للتّشبيهِ روعةٌ وجمالٌ، وموقعٌ حسنٌ في البلاغةِ، وذلكَ لإخراجهِ الخفيَّ إلى الجليّ، وإدنائهِ البعيدَ منَ القريبِ، يزيدُ المعاني رفعةً ووضوحاً، ويكسبُها جمالاً وفضلاً، ويكسوها شرفاً ونُبلاً، فهو فنٌّ واسعُ النطاقِ، فسيحُ الخطوِ، ممتدُ الحواشي، مُتَشعبُ الأطرافِ ، مُتوعرُ المسلكِ، غامضُ المدركِ، دقيقُ المجرَى ،غزيرُ الجدَوى. ومنْ أساليبِ البيانِ أنكَ إذا أردتَ إثباتَ صفةٍ لموصوفٍ، مع التوضيحِ، أو وجهٍ من المبالغةِ، عمدتَ إلى شيءٍ آخرَ، تكونُ هذه الصفةُ واضحةً فيه، وعقدتَ بين الاثنينِ مماثلةً، تجعلُها وسيلةً لتوضيحِ الصفةِ، أو المبالغةِ في إثباها ، لهذا كان التشبيهُ أولَ طريقةٍ تدلُّ عليهِ الطبيعةُ لبيانِ المعنَى.

تعريفُ التشبيهِ:

في اللغة: الشبه – بكسر الشين وسكون الباء – والشبه – بفتح الشين والباء – والشبيه: المثل والمثل والمثيل وزنا ومعنى، ويجمع على: أشباه، وشابهه وأشبهه: ماثله، وشبهه إياه وبه تشبيها: مثله.

وعند علماء البيان: هو إلحاق أمر بأمر في معنى بأداة[1]، ففي قول الشاعر :

كأنما الماء في صفاه   وقد جرى ذائب اللجين

---

[1] أسرار البيان ص ٢٣ بتصرف

نجد الماء ألحق بذائب اللجين، وهو الفضة الذائبة، في صفة هي الصفاء، والأداة التي استعملت هي (كأن) فنرى أن التشبيه تم بأربعة أمور: (الماء) وهو المشبه و(ذائب اللجين) وهو المشبه به و(الصفاء)، وهو المعنى الذي ألحق فيه المشبه بالمشبه به، ويسمى وجه الشبه، و(كأن) وهي أداة التشبيه.

وفي قوله تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ)[1]، شبهت الجواري – وهي السفن – بالأعلام – وهي الجبال– في معنى هو الضخامة – ولكنها لم تذكر – بأداة وهي الكاف.

أدوات التشبيه

لابد للتشبيه من أداة مذكورة أو مقدرة، وأدوات التشبيه كثيرة منها:

حروف، وهي:

١- الكاف: والأصل فيها أن تدخل على المشبه به، كقوله تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ)[2]، وقوله سبحانه وتعالى: (وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ،)[3]، وكقوله –ﷺ–: "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا".

١ سور الشورة الآية (٣٢)

٢ سور الشورة الآية (٣٢)

٣ سورة الواقعة الآيتان (٢٢ ، ٢٣)

وقد تدخل الكاف على كلمة داخلة في المشبه به، كقوله تعالى: (وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا)[١]، أي بين لهم صفة الحياة الدنيا، وليس المراد تشبيه حال الحياة بماء موصوف بما ذكر، ولا بمفرد آخر يحتمل تقديره؛ لأن تكلف التقدير: إنما الموجب، وقد أغنت – هنا – الحال المفهومة، من مجموع اللفظ عن التقدير، وهي كون النبات بعد نزول المطر من السماء شديد الاخضرار والنضارة، ثم بأثر ذلك الاخضرار ييبس فتطيره الرياح، كأن لم يكن، وهذه الحال هي التي شبهت بها حال الدنيا في بهجتها، وإمالة القلوب لها، ثم يعقب ذلك الهلاك، ووجه الشبه هو هيئة وجود التلف بأثر الإعجاب والانتفاع، فالكاف غير داخلة على المشبه به.

وربما دخلت على شيء لا دخل له في التشبيه، وإنما هو قيد في المشبه به، كقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ۖ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ۖ)[٢]، فالمراد: كونوا أنصار الله مثل كون الحواريين أنصار الله وقت قول عيسى –عليه السلام– : "مَن أنصاري"، وعلى ظاهر التعبير المشبه به (قول عيسى –عليه السلام–) وهو –كما ترى – ظرف للمشبه به.

---

١ سورة الكهف الآية (٤٥)

٢ سورة الصف الآية (١٤)

٢- كأن: وقد قيل: إنها - دائما - للتشبيه، وقيل: إذا كان خبرها جامدًا كانت للتشبيه، وإذا كان مشتقا كانت للشك، على معنى تشك في قيام الخبر المبتدأ في نحو قولك: كأنَّ أخاك قادمٌ.

تنبيه: يفرق بين الكاف وكأنَّ بأمور:

١- الكاف يليها - في الغالب - المشبه به، وكأنَّ يليها - في الغالب - المشبه.

٢- كأنَّ أقوى وأبلغ في الدلالة على إلحاق المشبه بالمشبه به، فهي إنما تستعمل حيث يقوى الشبه حتى يخيل للرائي أن المشبه هو المشبه به، ولذلك قالت بلقيس - كما حكاه القرآن-: (قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (٤١) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ)[١]، وقد كان هو فعلا؛ فلشدة الشبه في نظرها استعملت (كأن).

٣- الكاف تجيء للتشبيه، كما سبق. وللتعليل، مثل قوله تعالى: (وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ)[٢]، أي لهدايته إياكم، وكأن تجيء للتشبيه، وللشك، وللتقريب.

---

١ سورة النمل الآيتان (٤١ ، ٤٢)

٢ سورة البقرة الآية (١٩٨)

أغراض التشبيه

أغراض التشبيه: هي البواعث التي تحمل المتكلم على أن يعقد شبها بين شيئين، وهي على ضربين: أغراضٌ عامَّة، وأعراضٌ خاصَّة، والأغراض الخاصة أيضًا على وهي على ضربين:

١- ما يعود على المشبه، وهو الأكثر.

٢- ما يعود على المشبه به.

أوَّلًا- أغراض التشبيه العامة

من طبيعة اللغة العربية الإيجاز، وهو سر من أسرار البلاغة؛ حتى قيل: البلاغة: الإيجاز.

والتشبيه في كل صورة من صوره نوع من الإيجاز؛ فإنك تستغنى به عن كلام كثير في وصف المشبه، ومن الاختصار العجيب والإيجاز البليغ: قوله تعالى: (وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا)[1]، فقد وصفت الدنيا -بواسطة التشبيه- أبلغ وصف، ولو أردت أن تفصل أوصافها التي تضمنها التشبيه لاحتجت إلى كلام كثير.

---

١ سورة الكهف الآية (٤٥)

ومن الأغراض الأصلية في التشبيه قصد البيان والإيضاح؛ فإنه يخرج المبهم إلى الموضح، والملتبس إلى المبين، ويكسو كلًّا منهما حلة الظهور بعد الخفاء، والأصل في حسن التشبيه أن يمثل الغائب الخفي الذي لا يعتاد بالظاهر المحسوس المعتاد، ومما ورد في القرآن من ذلك، قوله تعالى: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا)[١]، وقوله تعالى: (مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ)[٢].

فقد شبهت أعمال الكافرين التي يرجون من ورائها الخير في الآية الأولى بالسراب الذي يبدو للظامئ الشديد الحاجة إليه، يحسبه ماء يروى به غلته ، فإذا وصل عنده لم يجد شيئا، فيخيب ظنه، ويقتله ظمؤه. وفي الآية الثانية شبهت برماد فرقته ريح شديدة في يوم عاصف، فلا يتصور أن يبقى منه شيء فكذلك أعمالهم تذهب هباء –والعياذ بالله–.

ومن ذلك قوله –ﷺ–: "كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل"، يريد–ﷺ–: اقطع علاقتك بالدنيا، وأقلل أملك فيها، وتخفف من أثقالها؛ فإن الغريب لا يقوي صلته بالبلد الغريب، وابن السبيل لا لبث له إلا بمقدار العبور،

---

١ سورة النورالآية (٣٩)

٢ سورة إبراهيم الآية (١٨)

وقطع المسافة، فالتشبيه – كما ترى – أظهر هذا المعنى (علاقة الإنسان بالدنيا) أتم ظهور.

ثانيًا– أغراض التشبيه الخاصة

١– ما يعود على المشبه، وهو الأكثر: الأغراض التي تعود على المشبه، وهي سبعة:

وهذه الأغراض هي: بيان حال، وبيان مقدار حال، وبيان إمكان حال، وزيادة تقرير حال، وتزيين، وتقبيح واستطراف.

٢– ما يعود على المشبه به: وتكون في الغالب إيهام أن المشبه به أتم من المشبه في وجه الشبه، وذلك في التشبيه المقلوب، وهو أن يكون الأمر بالعكس.

المجاز العقلي

ينقسم الإسناد إلى قسمين:

١- أن يسند الفعل أو ما في معناه – كالمصدر واسم الفاعل واسم المفعول إلى غير ذلك مما هو في معنى الفعل– إلى ما هو له في الحقيقة، كقولك: نصر الله الجند. فإسناد النصر إلى الله حقيقة، وهذا يسمى حقيقة عقلية، وقس على ذلك: أنزل الله الغيث، ورزق اللهُ الخلق.

٢- أن يسند الفعل أو ما في معناه –أحيانًا– إلى غير ما هو له في الحقيقة، كقولك: "أنبت الربيع العشب" فإسناد الإنبات للربيع إسناد لغير ما هو له في الحقيقة، أي إسناد مجازيٌّ، ويسمى ها الضرب من التعبير "مجازًا عقليًّا"، وقس علي ذلك قوله تعالى: (فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ)[1]؛ فأسند الربح للتجارة، والتجارة لا تربح، وإنما الي يربح هو التاجر، فإسناد الربح إلى التجارة مجاز، ويسمى كالمثال السابق مجازاً عقليًّا، وإن شئت فسمه (مجازًا حكميًّا).

ويسمى مجازًا عقليًا؛ لأن العقل هو الذي يتصرف في هذا الإسناد[2]، أو مجازًا حكميًّا؛ لأن المجاز ليس في ذات الكلمة، ولا في نفس اللفظ، انظر إلى

---

١ سورة البقرة الآية (١٦)

٢ مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ١\٢٣١

قوله تعالى: (فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ) ترى المجاز ليس في لفظة ربح نفسها، ولكن في الحكم الذي جرى عليها وإسنادها للتجارة[1].

وللمجاز العقلي علاقات مختلفة نذكر أشهرها:

١- الإسناد إلى السبب:

مثل قوله تعالى: (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ)[2]؛ فقد أسند الذبح إلى فرعون، وهو ليس الفاعل الحقيقي ، وإنما هو مجرد آمرٍ بالذبح، وجنود فرعون هم الفاعل الحقيقي، فهذا مجاز عقلي علاقته السببية.

ومنه قوله تعالى: (أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ)[3]؛ حيثُ أسند الربح للتجارة والتجارة لا تربح، وإنما هي سبب الربح، فهنا مجاز عقلي علاقته السببية.

ومنه قوله تعالى: (فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا)[4]؛ حيثُ أسند زيادة النفور إلى النذير، وهو إسناد مجازي علاقته السببية.

ومنه قوله تعالى: (وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا)[1]. ومنه قوله: (وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ)[2]، فموسى –

---

١ الدلائل ص ٢٨٨ ، والأسرار ص ٤٥٠

٢ سورة القصص الآية (٤)

٣ سورة البقرة الآية (١٦)

٤ سورة فاطر الآية (٤٢)

عليه السلام– يريد من قومه أن يصدقوه، ويكون أخوه سببًا في هذا التصديق، فإسناد يصدقني إلى هارون إسناد مجازي أو مجاز عقلي علاقته السببية.

ومن هذا النوع قول الرسول محمد –صلي الله عليه وسلم–: "وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم"؛ فحصائد الألسن ليست هي الفاعل الحقيقي في كبهم في النار، وإنما هي سبب هذا العقاب.

٢– الإسناد إلى الزمان:

مثل قوله تعالى: (بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)[٣]؛ فأضاف أو أسند المكر إلى الليل والنهار، وكلاهما لا يصح أن يقع منه المكر، ولكن المكر يقع في الليل والنهار؛ فهو مجاز علاقته الزمانية.

وقوله تعالى: (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا)[٤]، والنهار لا يبصر، وإنما يبصر القوم في النهار فالعلاقة الزمانية.

وقوله تعالى: (مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ)[٥]، واليوم لا يوصف بأنه عاصف وإنما الريحُ هي التي تعصف خلال اليوم.

---

١ سورة الأنفال الآية (٢)

٢ سور القصص الآية (٣٤)

٣ سورة سبأ الآية (٣٤)

٤ سورة يونس الآية (٦٧)

٥ سور إبراهيم الآية (١٨)

ومثله قوله تعالى: (إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)[١]، فوصف اليوم بأنه عظيم؛ وذلك لوقوع ما هو عظيم فيه، فهو مجاز عقلي علاقته الزمانية.

كما يوصف اليوم بالعبوس في قوله تعالى : (إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا) فوصفه بصفة أهله من الأشقياء[٢].

وكذلك قوله تعالى: (فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا)[٣]، فأسند فعل المشيب إلي اليوم إسنادًا مجازيًّا؛ لأن المشيب يقع في ذلك اليوم.

٣- الإسناد إلى المكان:

قال اللهُ تعالى: (وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ)[٤]، فالنهر اسم للوادي الذي تجري فيه الأمواه، وهو لا يجري، وإنما الذي يجري هو الماء والأنهار مكان له، فالإسناد هنا مجاز عقلي علاقته المكانية.

قال اللهُ تعالى: (اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ)[٥]؛ فالأرحام لا تغيض ولا تزداد، وإنما الذي يطلق عليه هذا الوصف هو الجنين الذي بداخل الرحم، وجعل الرحم مكانًا له.

---

١ سورة الإنسان الآية (١٠)

٢ الكشاف ٤/ ١٩٦، الدهر ص ١٠، والنظم القرآني ص ١٨٨

٣ سورة المزمل الآية (١٧)

٤ سورة الأنعام الآية (٦)

٥ سورة الرعد الآية (٨)

قال تعالى: (وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا)[1]، أسند الإخراج إلى الأرض مجازًا؛ لأن المخرج هو الله سبحانه وتعالى، والأرض مكان الإخراج.

٤- الإسناد إلى المصدر:

قال تعالى: (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ)[2]؛ فأسند الفعل إلى المصدر إسنادًا مجازيًّا، ولم يسنده إلى الفاعل الحقيقي، وهو النافخ فهو مجاز عقلي علاقته المصدرية.

٥- الإسناد إلى المفعول: (أي إسناد ما بني للفاعل إلى المفعول):

قال اللهُ تعالى: (لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلا مَنْ رَحِمَ)[3]، فعاصم بمعنى معصوم، فاسم الفاعل بمعنى اسم المفعول، فكأنه أسند أسم الفاعل المذكور إلى ضمير اسم المفعول، وهو المعنى المقصود، وما كان كذلك فهو مجاز عقلي علاقته المفعولية.

قال اللهُ تعالى: (أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا)[4]، فهذا إسناد مجازي؛ لأنه أسند الأمن إلى الحرم، وكان حقه أن يسند إلى أهل الحرم، فأمن هنا بمعنى مأمون، واسم الفاعل بمعنى اسم مفعول، فكأنه أسند الفاعل إلى ضمير اسم المفعول، فهو مجاز عقلي، وعلاقته المفعولية.

---

١ سورة الزلزلة الآية (٢)

٢ سورة الحاقة الآية (١٣)

٣ سورة هود الآية (٤٣)

٤ سورة القصص الآية (٥٧)

ومن الإسناد العقلي قول الله تعالى: (فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ)[١]، أي في عيشة مرضية؛ لأن الذي يرضى هو صاحب العيشة وليست العيشة نفسها، فاسم الفاعل، بمعنى اسم المفعول، فهو مجاز عقلي علاقته المفعولية.

ومن ذلك قوله تعالى: (نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ)[٢]، فالناصية لا توصف بأنها كاذبة ولا خاطئة، وإنما الذي يوصف بالكذب والخطأ في الواقع هو صاحب الناصية؛ فهو مجاز عقلي علاقته المفعولية.

٦- الإسناد إلى الفاعل:

هو أن يسند الفعل المبني للمفعول إلى الفاعل، نحو قوله تعالى: (وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا)[٣]، فمستور هنا بمعنى ساتر؛ لأن الحجاب ساتر، وليس مستورا، فاسم المفعول هنا مسند إلى ضمير اسم الفاعل الذي هو بمعناه، وهذا من المجاز العقلي وعلاقته الفاعلية.

---

١ سورة القارعة الآيتان (٦، ٧)

٢ سورة العلق الآية (١٦)

٣ سورة الإسراء الآية (٤٥)

ومن ذلك قوله تعالى: (إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا)[١]، أي آتيًا؛ فأسند اسم المفعول وهو "مأتيا" إلى ضمير اسم الفاعل الذي جاء بمعناه وهو آت، وعلاقته الفاعلية.

وربما أتى المجاز العقلي وقصد به التهكم والسخرية، كما فى قوله تعالى: (قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا)[٢]، فالصلاة لم تأمر شعيبا – عليه السلام– بترك عبادة الأثان، وإنما الذي أمره هو الله سبحانه وتعالى، ولكنهم جعلوا الصلاة آمرة على سبيل التهكم بصلاته التي يداوم– عليها ليله ونهاره، والعلاقة هنا هي السببية.

ومن ذلك قوله تعالى: (بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ)[٣]؛ فأسند الأمر إلى الإيمان متهكما، كما فعل في الآية السابقة[٤].

ومما يدخل في المجاز العقلي، وإن لم يقصد به الهزء والسخرية، قوله تعالى: (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ)[٥].

---

١ سورة مريم الآية (٦١)

٢ سورة هود الآية (٧٨)

٣ سورة البقرة الآية (٩٣)

٤ الكشاف ٢\٢٨٦ ، ١\٢٩٧

٥ سورة العنكبوت الآية (٤٥)

والمجاز العقلى ليس مختصا بالخبر ،وإنما يجرى فى الانشاء أيضًا، كقوله تعالى: (يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا)[1]، حكاية عن فرعون، فهامان لا يبني بنفسه، وإنما العمال هم الذين يقومون بالبناء.

ومن الأمثلة التي ذكرناها في المجاز العقلي تبين أنه يجرى بكثرة في القرآن الكريم الذي يتبع في تعبيره أساليب العرب المألوفة، ولاشك أنَّ التعبير به حسن مألوف، وضرب من البلاغة، وما به من قرينة تمنع توهم الكذب، "وفي هذا رد على الظاهرية الذين ينكرون وجود المجاز في القرآن لما فيه من توهم الكذب"[2].

---

١ سورة غافر الآية (٣٦)

٢ القزويني وشروح التلخيص ص ٣٦٧

الحقيقة والمجاز اللغويان

نعلم أن مقاصد علم البيان ثلاثة، التشبيه والمجاز والكناية، والمجاز هو عمود الأمر كله؛ ذلك أنه المجلي في ميدان تفاوت المراتب في وضوح الدلالة، وما ذهبنا إلى التشبيه نجلي عن مفاتنه إلا لنمهد لروعة الاستعارة وسحرها، وما نتحدث بعد عن الكناية إلا ونحن بسبب من المجاز وثيق، كما ستدرك كل ذلك إذا وقفت على أسرار هذا الفن، وتتبعت أساليبه، وذقت لطائفه.

والمجاز بالنظر إلى العلاقة قسمان:

مرسل: أي مطلق عن التقيد بعلاقة معينة، وهو ما كانت علاقته غير المشابهة.

واستعارة: وهو ما كانت علاقته المشابهة[١].

---

١ انظر : محاضرات في البيان العربي (المجاز اللغوي) ص ٧

المجاز المرسل

هو اللفظ[1] المستعمل في غير ما وضع له في اصطلاح التخاطب لملابسة غير التشبيه، مع قرينة مانعة من إرادة الموضوع، والمراد من الملابسة المذكورة العلاقة المصححة للانتقال وعلاقاته كثيرة، ومنها:

١- السببية:

مثل قوله تعالى: (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا)[2]؛ حيث تجوز بلفظ السيئة عن القصاص؛ لأنها سبب فيه.

وكذلك قوله تعالى: (فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ)[3]، فقوله: (فاعتدوا عليه) معناه فجازوه على اعتدائه، فعبر عن الجزاء بالاعتداء؛ لأن الاعتداء سبب الجزاء.

وقالوا مثل ذلك في: قول عمرو بن كلثوم:

ألا يجهلن أحد علينا		فنجهل فوق جهل الجاهلينا

حيث عبر بقوله (فنجهل) عن نجازي ونقتص؛ لأن الجهل سبب القصاص، والصواب أنه أراد حقيقة الجهل متوعدا، ويؤيد ذلك وصفه الجهل الذي يتوعد به بأنه جهل فوق جهل الجاهلين، الزيادة على جهلهم تنافي

---

١ المراد اللفظ المفرد؛ لأن حديثنا عن المجاز المفرد.

٢ سورة الشوري الآية (٤٠)

٣ سورة البقرة الآية (١٩٤)

القصاص فهو ليس مثل قوله: (فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ) ولا مثل قوله(جَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا)؛ حيث قيد كل منهما بالمثلية فكان قصاصا.

هذا ولا ينافي اعتبار المجاز في الآيتين: (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه ...)، و(وجزاء سيئة سيئة مثلها) اعتبار المشاكلة البديعية فيهما؛ فالمشاكلة أعم؛ إذ المعنيان في المشاكلة تارة يكون بينهما علاقة من العلاقات كما هنا، وتارة لا يكون ذلك.

٢- المسببة:

ومن التعبير البليغ بالمسبب عن السبب: قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا)[١] [٢].

٣- الكلية:

وقد يستعمل الكل في جزئه لعلاقة الكلية ، ومنه استعمال الأصابع في الأنامل في مثل قوله تعالى: (يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصواعق حَذَرَ الموت)[٣]، والقرينة استحالة دخول الأصابع بتمامها في الآذان وفي هذا مزيد

---

١ سورة النساء الآية (١٠)

٢ حيث عبر الول عن النهب بالأكل؛ لأنه مسبب عن النهب والأخذ، وعبر ثانيا عن هذا الأكل بأنه ليس أكل مال، وإنما أكل نار، وهي يصلى بها ولا تؤكل فهي مسببة عن أكل أموال اليتامي والسر في المجاز هنا هو التنفيز من مس مال اليتيم.

٣ سورة البقرة، الآية (١٩).

مبالغة في تصوير خوفهم من الصواعق؛ حيث يحاولون أن يسدوا آذانهم بالأصابع بتمامها.

٤- اعتبار ما يؤول إليه:

كذلك أطلقوا الخمر على العنب باعتبار مآله في: (إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ)[١] أي عنبًا، بقرينة أعصر؛ لأن الخمر الحقيقية لا تعصر، ومنه (هدى للمتقين) أي الضالين، الذين يهتدون فيصيرون متقين سماهم متقين باعتبار ما يؤول إليه أمرهم، ومنه ما جاء في سورة النحل: (يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ)[٢]، فالعسل ليس بشراب وإنما يحول بالماء شرابا.

٥- المحلية:

ومن المجاز المرسل لفظ المحل يستعمل في الحال لعلاقة المحلية، كما في قوله تعالى: (فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ)[٣]، أي أهل ناديه الحالين فيه، ويرى بعضهم أن هذا من المجاز الحكمي كما في قوله تعالى: (وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ)[٤]، فهو من حذف المضاف، وإعطاء إعرابه للمضاف إليه، والأصل: فليدع أهل ناديه، واسأل أهل القرية هذا ومن استعمال المحل في الحال قوله تعالى: (يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي

---

١ سورة يوسف الآية (٣٦)

٢ سورة النحل الآية (٦٩)

٣ سورة العلق الآية (٧) ، والنادي اسم مكان الاجتماع، ومجلس القوم، والقرينه (فليدع) لأن المكان لا يدعى ومن استعمالاتها لهذا النوع قولنا : اجتمع مجلس الكلية ودعى مجلس الأمة ..

٤ سورة يوسف الآية (٨٢)

قُلُوبِهِمْۗ)[1]، وقوله سبحانه وتعالى: (وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ)[2]، عبر بالأفواه عن الألسنة وبالصدور عن القلوب.

٦- الحالية:

وعكسوا فاستعملوا الحال في المحل لعلاقة الحالية، نحو: (وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ)[3]، أي جنته فقد أطلق الرحمة وهي حالة، وأراد محلها وهو الجنة، ومثل ذلك قوله تعالى: (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ)[4]، فالمراد بالنعيم مكانه، وهو الجنة.

٧- الآلية:

ومنه التعبير عن الشيء باسم آلته كإطلاق اللسان وإرادة اللغة، في قوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ)[5]، أي لغة قومه، وإطلاقه وإرادة الذكر الحسن في قوله تعالى: (وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ)[6]، أي ذكرًا حسنًا؛ فقد أطلق اللسان الذي هو آلة للكلام أي آلة للغة، وللذكر الحسن وأراد اللغة في الأول، والذكر الحسن في الثاني لعلاقة الآلية.

---

١ سورة آل عمران الآية (١٦٧)

٢ سورة آل عمران الآية (١١٨)

٣ سورة آل عمران الآية (١٠٧)

٤ سورة الإنفطار الآية (٤)

٥ سورة إبراهيم الآية (٤)

٦ سورة الشعراء الآية (٨٤)

الاستعارة:

الاستعارة فنٌّ من فنون البلاغة العربية، تعدد تناوله بتعدد الدارسين من البلاغيين والنقاد العرب – قدامى ومحدثين – وإذا ما تجاوزنا التراث العربي وجدنا أنّه فنٌّ بلاغي إنساني، وجد في تراث الأمم القديمة؛ لأنّه مبني على التشبيه، الذي هو من أقدم الوسائل البلاغية الإنسانية وجودًا في تراث كلّ الأمم.

الاستعارة في اللّغة: طلبُ شيءٍ ما للانتفاع به زمنًا ما دون مقابل، على أن يَرُدَّه المستعير إلى الْمُعِير عند انتهاء المدّة الممنوحة له، أو عند الطلب. وهي مصدر: استعار الشيءَ أي: طلب من صاحبه أن يعيره إياه، فالاستعارة: مأخوذة من العارية، واستعار طلبي العارية أي نقل الشيء من شخص إلى آخر؛ حتى تصبح العارية من خصائص المعار منه. قال العباس بن الأحنف[1]:

يا أَيُّها الرَجُلُ المُعَذِّبُ قَلبَهُ *** أَقصِر فَإِنَّ شِفاءَكَ الإِقصارُ

نَزَفَ البُكاءُ دُموعَ عَينِكَ فَاِستَعِر *** عَيناً لِغَيرِكَ دَمعُها مِدرارُ

مَن ذا يُعيرُكَ عَينَهُ تَبكي بِها *** أَرَأَيتَ عَيناً لِلبُكاءِ تُعارُ

---

١ العباس بن الأحنف، إمام العاشقين، هو العباس بن الأحنف بن الأسود الحنفي المكنى أبو الفضل هو شاعر رقيق الغزل. قال عنه البحتري: إنه أغزل الناس. أبو الفضل عربي شريف النسب، أصله من بني حنيفة، ولكن أهله يقيمون بالبصرة. نشأ في بغداد وفيها اشتهر. اتصل بهارون الرشيد ونال عنده حظوة. خالف الشعراء في طريقتهم فلم يتكسب بالشعر، وكان أكثر شعره بالغزل والنسيب والوصف، ولم يتجاوزه إلى المديح والهجاء، وفي ذلك يقول الجاحظ. ولولا أن العباس بن الأحنف أحذق الناس وأشعرهم وأوسعهم كلاما وخاطرا، ما قدر أن يكثر شعره في مذهب واحد لا يجاوزه، لأنه لا يهجو ولا يمدح لا يتكسب ولا يتصرف، وما نعلم شاعرا لزم فنا واحدا فأحسن فيه وأكثر.

(فاستعر عينًا): أي فاطلبها عارية تبكي بها، ثم تردها إلى صاحبها، لكن الشاعر رجع فاستبعدَ أن يحصل هذا المستعير على طلبته؛ لأنَّ أحدًا لا يعير عينا ليبكي بها غيره.

فالاستعارة – إذن– مصدر، ولكن علماء البلاغة يطلقونها على الشيء المستعار، وعلى ذلك عرفوا الاستعارة بمعنيين:

١- المعنى المصدري: وهي استعمال اللفظ في غير ما وضع له، لعلاقة المشابهة بين ما وضع له، وما استعمل فيه، مع وجود قرينة مانعة من إرادة المعنى الأول؛ فيكون اللفظ مستعارًا، والمشبه به مستعارًا منه، والمشبه مستعارًا له. (وهذه أركان الاستعارة الثلاثة).

٢- المعنى الاسمي: وهي اللفظ المستعمل في غير ما وضع له ... إلخ التعريف السابق. فمثلا في قول المتنبي[1]:

تعرض لي السَّحاب وقد قفلنا ... فقلت: إليكِ إن معي السحاب

ففي لفظ "السحاب" الثانية استعارة، والمراد به الرجل الكريم؛ لأنه يجود بالمال كما يجود السحاب بالغيث، والقرينة قوله: "معي" وهي قرينة ظاهرة واضحة؛ لأن السحاب الذي في السماء لا يكون معه، وإنما معه الممدوح[2]، ولذلك قال بعده:

---

١ قفلنا: رجعنا، إليك: اسم بمعنى: تنح.

٢ هو الحسن بن طفج.

فشم في القبة الملك المُرجى ... فأمسَك بعدما عزَم انسكابا

شم: معناه انظر. يقول: إنه أمر السحاب أن ينظر إلى الملك الذي عناه فلما نظر السحاب أمسك عن إنزال الغيث بعدما عزم على الانسكاب حياء من جوده.

فالشاعر نقل كلمة السحاب من معناها الأول، وهو الغمام الذي يظهر في السماء إلى الممدوح، وهذا النقل يسمى استعارة. واللفظة نفسها تسمى أيضا استعارة. وعلى التعريف بالمعنى المصدرى يكون للاستعارة أركان هي:

(١) المستعار منه: وهو المعنى الأول.

(٢) المستعار له: وهو المعنى المراد.

(٣) المستعار: وهو اللفظ المنقول.

إذن الاستعارة في اصطلاح البيانيين: استعمال لفظٍ ما في غير ما وُضِع له في اصطلاحٍ به التخاطب، لعلاقة المشابهة، مع قرينة صارفةٍ عن إرادة المعنى الموضوع له في اصطلاحٍ به التخاطب.

وهي من قبيل المجاز في الاستعمال اللّغوي للكلام، وأصلُها تشبيهٌ حُذِفَ منه المشَبّه وأداةُ التشبه ووجْهُ الشَّبَه، ولم يبق منه إلاَّ ما يدلُّ على المشبّه به، بأسلوب استعارة اللفظ الدالّ على المشبَّه به، أو استعارة بعض مشتقّاته، أوْ بعض لوازمه، واستعمالها في الكلام بدلاً عن ذكر لفظ المشبَّه، مُلاَحَظاً في هذا

الاستعمال ادّعاءُ أنَّ المشبَّه داخل في جنس أو نوع أو صِنْف المشبّه به، بسبب مشاركته له في الصفة الّتي هي وجه الشَّبَهِ بينهما، في رؤية صاحب التعبير.

وورود المشابهة في تعريف الاستعارة يخرج المجاز المرسل؛ لأن علاقته غير المشابهة، ومعناه أن الاستعارة مبنية على التشبيه، فكل تشبيه يمكن غالبا تحويله إلى استعارة، وكل استعارة يمكن ردها إلى التشبيه، والفرق بينهما أن التشبيه يذكر فيه الطرفان، والاستعارة فيها يكتفى فيها بطرف واحد، ويبنى عليه الكلام، مثال: (الغضب جمرة في جوف ابن آدم). هذا تشبيه شبه الغضب فى قوة لذعه، وإيلامه للنفس بالجمرة، ويمكن أن نقول: في (في جوف فلان جوف جمرة تتقد) فيكون الكلام استعارة، والمحذوف هنا المشبه به، وهو الجمرة أن القائل هنا أرشد إلى المشبه به بذكر لازم له، وهو الحرارة.

وحيث حذف المشبه تسمى الاستعارة تصريحية، وحيث حذف المشبه به تسمى الاستعارة مكنية.

ومن أمثلة الاستعارة: قوله تعالى: (كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور)[1]. ففيه تعبير عن الضلال بالظلمات. وعن الهدى بالنور، لأن النبي -ﷺ- حين تزل عليه القرآن لم يخرج من الظلام حقيقي إلى نور حقيقي، ولا هذه مهمة القرأن والرسول، وإنما شبه الضلال بالظلام؛ لأن كلًّا منهما يخبط فيه صاحبه على غير معرفة، وتكون عاقبته الهلاك والبوار، وشبه

١ سورة إبراهيم، الآية: (١).

الهدى بالنور في أنَّ كلًّا منهما يعين صاحبه على الوصول إلى الغاية المرجوة ، ثم حذف الضلال والهدى، واستعير لهما كلمتا الظلام والنور؛ فالاستعارة فيهما تصريحية، وقد سبق أن قلنا: إنه حيث حذف المشبه فالاستعارة تصريحية.

ومثل هذا قول النبي -ﷺ-: "حبك الشيء يعمي ويصم"؛ فحب الشيء على الحقيقة لا يعمي ولا يصم، وإنما المراد أن الإنسان إذا أحب الشيء أغضى عن موضع عيوبه، كأنه لا ينظرها، وأعرض عمن يعاتبه فيه؛ فكأنه لا يسمع، ثمَّ حذف المشبه فى كل منهما، وأبقى المشبه به.

وكذلك على سبيل الاستعارة التصريحية: قول الله تعالى: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}[1]، أي: دينا قويمًا. وقول الله تعالى:{وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ... }[2]. أي في اضطرابهم واختلاطهم؛ حيثُ جاء في هذه الآية استعارة فعل "يَمُوجُ" من حركة أمواج البحار، التي يختلط فيها الماء بعضُه ببعض، وهو أمْرٌ مُدْرَكٌ بالحسّ الظاهر، للدّلالة به على حركة جماهير "يأجوج ومأجوج" وراء السّدّ في أحداث متجدّدة متكرِّرة كتكرّر حركة أمواج البحار، وهذا أمْرٌ مُدْرَكٌ بالحسّ الظاهر أيضا، فكثرةُ القوم تُشْبه البحر إذا اجتمعوا، وحركتُهم إذا اتَّجَهُوا إلى مصالحهم المختلفة تُشْبه حركة أمواج البحر في مرأى الأبْصار.

---

١ سورة الفاتحة، الآية: (٦).

٢ سورة الكهف، الآية: ٩٩.

وعلى سبيل الاستعارة المكنية قول الله تعالى: «فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ»[1]، فإنّ المستعار منه "كسر الزجاجة"، والمستعار له "التبليغ"، والجامع قوة التأثير. والمعنى: أبن الأمر إبانة لا تُمحى، كما لا يلتئم صدع الزجاجة؛ فحذف المشبه "التبليغ، أو الإبانة"، وأبقى المشبه به "الصدع" في قوله تعالى: "فاصدع".

من روائع الاستعارة في القرآن الكريم

قال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ سورة يس.

استعير في الآية الكريمة:(السلخ) وهو كشط الجلد عن الشاة ونحوها لإزالة ضوء النهار عن الكون قليلاً قليلاً، بجامع ما يترتب على كل منهما من ظهور شيء كان خافيًا، فبكشط الجلد يظهر لحم الشاة، وبغروب الشمس تظهر الظلمة التي هي الأصل والنور طارئ عليها، يسترها بضوئه. وهذا التعبير الفني يسميه علماء البلاغة "الاستعارة التصريحية التبعية". استعارة رائعة و جملية، إنها بنظمها الفريد وبإيحائها وظلها وجرسها قد رسمت منظرًا بديعًا للضوء وهو ينحسر عن الكون قليلًا قليلًا، وللظلام وهو يدب إليه في بطء. إنها قد خلعت على الضوء والظلام الحياة؛ حتى صارا كأنهما جيشان يقتتلان، قد أنهزم

---

[1] سورة الحجر: ٩٤. أي شق جماعاتهم بالتوحيد أو اجهر بالقرآن أو اظهر أو احكم بالحق وافصل بالأمر أو اقصد بما تؤمر أو افرق به بين الحق والباطل.

أحدهما فولى هاربًا، وترك مكانه للآخر. تأمل اللفظة المستعارة وهي (نسلخ) إن هذه الكلمة هي التي قد استقلت بالتصوير والتعبير داخل نظم الآية المعجز فهل يصلح مكانها غيرها؟

قال تعالى:﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ استعير في الآية الكريمة خروج النفس شيئاً فشيئاً لخروج النور من المشرق عند انشقاق الفجر قليلًا قليلًا بمعنى النفس، تنفس بمعنى خرج النور من المشرق عند انشقاق الفجر. استعارة قد بلغت من الحسن أقصاه، وتربعت على عرش الجمال بنظمها الفريد، إنها قد خلعت على الصبح الحياة حتى لقد صار كائنا حيا يتنفس، بل إنسانًا ذا عواطف وخلجات نفسية، تشرق الحياة بإشراق من ثغره المنفرج عن ابتسامة وديعة، وهو يتنفس بهدوء، فتتنفس معه الحياة، ويدب النشاط في الأحياء على وجه الأرض والسماء، أرأيت أعجب من هذا التصوير، ولا أمتع من هذا التعبير؟ ثم تأمل اللفظة المستعارة وهي (تنفس) أنها بصوتها الجميل وظلها الظليل، وجرسها الساحر قد رسمت هذه الصورة البديعة في إطار نظم الآية المعجزة، فهل من ألفاظ اللغة العربية على كثرتها ما يؤدي ما أدته، ويصور ما صورته؟

قال تعالى:﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ سورة الحاقة. استعير في الآية الكريمة (الطغيان) للأكثر الماء بجامع الخروج عن حد الاعتدال والاستعارة المفرط في كل منها. ثم اشتق من الطغيان (طغى) بمعنى كثر. استعارة

فريدة لا توجد في غير القرآن إنها تصور لك الماء إذا كثر وفار واضطرب بالطاغية الذي جاوز حده، وأفرط في استعلائه. أرأيت أعجب من هذا التصوير الذي يخلع على الماء صفات الإنسان الآدمي؟ ثم تأمل اللفظة المستعارة "طغى" إنها بصوتها وظلها وجرسها إيحائها قد استقلت برسم هذه الصورة الساحرة في إطار نظم الآية المعجز.

قال تعالى:﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾. استعير في الآية الكريمة :(الصدع) وهو كسر الزجاج للتبليغ بجامع التأثير في كل منهما أما في التبليغ فلأن المبلغ قد أثر في الأمور المبلغة ببيانها بحيث لا تعود إلى حالتها الأولى من الخفاء، وأما في الكسر فلأن فيه تأثيرًا لا يعود المكسور معه إلى الإلتئامه. ثم اشتق من الصدع معنى التبليغ اصدع بمعنى بلغ، استعارة رائعة وجميلة؛ إنها تبرز لك ما أمر به الرسول -ﷺ- في صورة مادة يشق بها و يصدع. إنها تبرز لك المعنى المعقول في صورة حسية متحركة كأنها كأنك تراها بعينك وتلمسها بيدك. تأمل اللفظة المستعارة (اصدع) إنها بصورتها وجرسها وإيحائها قد استقلت برسم هذه الصورة الفردية المؤثرة؛ إذ أن من يقرأها يخيل إليها أنه يسمع حركة هذه المادة المصدوعة تخيل لو استبدلت كلمة (اصدع) بكلمة (بلغ)، ألا تحس أن عنصر التأثير قد تضاءل وأن الصورة الحية المتحركة قد اختفت، وأن المعنى قد أصبح شاحبًا باهتًا؟ إن اللفظة المستعارة هي التي رسمت هذه الصورة في إطار نظم الآية المعجزة.

قال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً﴾. استعير في الآية الكريمة الموج (حركة الماء) للدفع الشديد بجامع سرعة الاضطراب وتتابعه في الكثرة ثم اشتق من الموج بمعنى الدفع الشديد (يموج) بمعنى يدفع بشدة.

إن هذه الاستعارة القرآنية الرائعة تصور للخيال هذا الجمع الحاشد من الناس احتشادًا لا تدرك العين مداه حتى صار هذا الحشد الزاخر كبحر ترى العين منه ما تراه من البحر الزاخر من حركة وتموج و اضطراب. تأمل اللفظة المستعارة أنها في إطار نظم الآية المعجزة قد استقلت برسم هذا المشهد الفريد بصوتها وجرسها وإيحائها.

قال تعالى:﴿ الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾. استعير في الآية الكريمة الظلمات للضلال بجامع عدم الاهتداء في كل منها ... واستعير النور بجامع الاهتداء في كل منها. وهذا المسلك الأدبي يسميه علماء البلاغة "الاستعارة التصريحية الأصلية". هذه الاستعارة الفردية تجعل الهدى والضلال يستحيلان نورًا وظلمة. إنها تبرز المعاني المعقولة الخفية في صورة محسوسة، حية متحركة كأن العين تراها واليد تلمسها. تأمل كلمة (الظلمات) إنها تصور لك بظلامها الضلال ليلًا دامسًا يطمس معالم الطريق أمام الضلال فلا يهتدي إلى الحق، ثم تأمل الدقة القرآنية في جمع (الظلمات) أنه يصور لك إلى أي مدى ينبهم الطريق أمام الضلال فلا يهتدون إلى الحق وسط هذا الظلام

المتراكم. ثم تأمل كلمة (النور) أنها بنورها تصور لك الهداية مصباحًا منيرًا ينير جوانب العقل والقلب ويوضح معالم الطريق أمام المهتدي فيصل في سهولة ويسر إلى الحق فينتفع به فيطمئن قلبه، وتسكن نفسه، ويحظى بالسعادة في دنياه وأخراه.

الكناية

الكناية لغة: ما يتكلمُ به الإنسانُ، ويريد به غيره، وهي: مصدر كنيت، أو كنوت بكذا، عن كذا، إذا تركت التصريح به. وسميت كناية؛ لأنها مشتقة من الستر، يقال: كنيت الشيء إذا سترته، فالكلام المعبر به يشتمل على أمر ظاهر، وهو (المكنى به)، وأمر خفي مستور وهو (المكنى عنه).

الكناية عند علماء البيان: لفظ أطلق وأريد به "لازم" معناه، مع جواز إرادةِ المعنى الأصليّ؛ لعدم وجود قرينةٍ مانعة من إرادته، نحو: «زيدٌ طويلُ النجادُ» تريد بهذا التركيب أنه شجاعٌ عظيم، فعدلت عن التصريح بهذه الصفة، إلى الإشارة إليها بشيءٍ تترتب عليه وتلزمه؛ لأنه يلزم من طول حمالةِ السيف طولُ صاحبه، ويلزم من طول الجسمِ الشجاعةُ عادةً، فإذًا: المراد طولُ قامته، وإنْ لم يكن له نجادٌ، ومع ذلك يصحُّ أن يراد المعنى الحقيقيَّ.

ومن هنا يُعلَمُ أنَّ الفرقَ بين الكناية والمجاز صحةُ إرادةِ المعنى الأصليِّ في الكناية، دون المجازِ، فإنه ينافي ذلك.

وقد عرفها الإمام عبدالقاهر الجرجاني: "بأن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، لكن يجيءُ إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيؤمئُ به إليه، ويجعله دليلا عليه، كقوله: طويل النجاد، يريدون: طويل القامة.

<u>أقسام الكناية:</u> للكناية أقسامٌ عدَّة عند البلاغيين، كالتالي:

أوَّلًا– أقسام الكناية بحسبِ المعنى الذي تُشيرُ إليه: تنقسمُ الكنايةُ بحسبِ المعنى الذي تُشيرُ إليه إلى ثلاثةِ أقسامٍ:

١– **كنايةٌ عن صفةٍ:** وهي أن يصرح بالموصوف وبالنسبة، ولا يصرح بالصفة المرادة، بل يذكر مكانها صفة تومض إليها، وتدل عليها، ومن روائع هذا النوع قوله تعالى: {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا}[١]، فقد ذكر الموصوف صراحة وهو الظالم، وذكرت النسبة كذلك، وهي نسبة العض إليه، ولكن الصفة المقصودة لم تذكر صراحةً بل نراها في إيماءة العض على اليدين، ونتأمل صورة رجل أو امرأة أخذ يعض أو أخذت تعض على يديها، ولتحاول معي أن تدرك الحالة التي عليها أي منهما، عندئذٍ ستدرك أن الندم هو المسيطر، والعض على اليدين يومض بالطبع بالندم إيماضًا يوشك أن يكون ضوءًا قريبًا قويًّا كاشفًا عنه. كما تقول: (فلانٌ نظيفُ اليدِ) تكني عن العفةِ والأمانةِ، وتعرف كنايةُ الصفة بذكر الموصوفِ: ملفوظًا أو ملحوظًا من سياق الكلام. ومنها قولهم: (هو فتىً رياضيٌّ) يكنونَ عن القوَّة – وهلمَّ جرّا، وكقول المتنبيِّ:

١ سورة الفرقان، الآية: ٢٧.

فَمَسّاهُمْ وَبُسْطُهُمُ حَرِيرٌ وَصَبّحَهُمْ وَبُسْطُهُمُ تُرَابُ

ومن روائع الكناية عن هذا المعنى: قوله تعالى عن قوم موسى بعد أن عبدوا العجل: {وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ}[1]، وتطالعنا الكناية في قوله: {سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ} فقد أُطلق السقوط في اليد وأريد منه الندم، وهذا النسق التعبيري الذي حمل تلك الكناية، لم تجرِ به ألسنة العرب قبل أن يلج القرآن مسامعهم. قال الزجاج: {سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ} أي: ندموا، وهذه اللفظة لم تسمع قبل القرآن ولم تعرفها العرب. وكأنما لمح الزمخشري من عدم ورودها على ألسنة العرب شيئًا، فلم يرها كناية عن مجرد الندم، وإنما رآها كناية عن شدته. وقد أبان عن ذلك بقوله: {وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ} أي: ولما اشتد ندمهم؛ لأن من شأن مَن اشتد ندمه وحزنه أن يعض يده غمًّا فتصير يده مسقوطًا فيها؛ لأن فاه قد وقع فيها.

وقيل: إنَّ من عادة النادم أن يطأطئ رأسه ويضع ذقنه على يده معتمدًا عليها، ويصير على هيئة لو نزعت يده لسقط على وجهه فكأن اليد مسقوط فيها، وهو قول ينم عن ذوق بصير باللغة وإيماءاتها، خبير بما تجري به عاداتهم في مواقفهم المختلفة، فهو يلحظ مواءمة الألفاظ للأحداث كما يربط بين الأحداث وسلوكيات الناس في مواجهتها.

---

١ سورة الأعراف، الآية: ١٤٩.

٢- كنايةٌ عن موصوفٍ: فهي التي يصرح فيها بالصفة وبالنسبة ولا يصرح بالموصوف، كما يقال: (الصِّديقُ) تعني أبا بكر رضي الله عنه، وكذلك (الفاروق) تعني عمر -رضي الله عنه-، وأمين هذه الأمة، تعني أبا عبيد بن الجراح رضي الله عنه، وسيف الله المسلول، تعني خالد بن الوليد -رضي الله عنه-، وكما ورد في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا (٤٦)}[1]، فهذه كلها صفات للنبي -صلى الله عليه وسلم-، وكما تقولُ: (الناطقينَ بالضادِ) تكني عن العربِ، و(دارُ السَّلام) تكني عن بغدادَ، و(طيبةُ) كنايةٌ عن المدينةِ المنورةِ، وتعرفُ بذكر الصفةِ مباشرةً، أو ملازمة، ومنها قولهم: (هو حارسٌ على مالهِ) كنوا به عن البخيلِ الذي يجمعُ ماله، ولا ينتفعُ به، وكقوله تعالى: {وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ(١٣)}[2]، كناية عن السفينةِ، والدسر المسامير.

٣- كنايةٌ عن نسبةٍ: وهي ما صرح فيها بالموصوف وبالصفة ولم يصرح بنسبة الصفة إلى الموصوف، بل يذكر مكانها نسبة أخرى تستلزم نسبتها إليه، فهي الكنايةُ التي يراد بها نسبةُ أمرٍ لآخرَ، إثباتًا أو نفيًا فيكون المكنَّى عنه نسبةً، أسنِدتْ إلى ماله اتصالٌ به، نحو قولنا عن شخص:

---

١ سورة الأحزاب، الآيتان: ٤٥- ٤٦.

٢ سورة القمر، الآية: ١٣.

(العزُّ في بيتهِ) فإن العزَّ ينسبُ للشخصِ وليس للبيت، والجود بين يديه، والذكاء بين عينيه، و... إلخ.

ثانيًا– أقسام الكناية بالنظر إلى لفظها: تنقسم الكناية باعتبار لفظها إلى:

١– كناية المجاورة: وهي أن تريد الإشارة إلى معنى، فتكني عنه بلفظ ما جاوره، ويكتفى بذكره عن ذكر لفظ المكنى عنه؛ لدلالته على الغرض المقصود، وذلك مثل قول عنترة:

فشككت بالرمح الأصم ثيابه ...... ليس الكريم على القنا بمحرم

فالمكنى عنه في البيت هو: الذات، والمكنى به لفظ ما جاورها وهو: الثياب، فإن الذي يشك بالرمح هو الذات، والذي يوصف بالكرم أيضًا هو الذات. وذهب بعض المفسرين في قوله تعالى: "فثيابك فطهر"، أنه أراد بالثياب: القلب أو الجسد، أي: قلبك فطهر أو جسدك فطهر.

٢– الكناية عن طريق التمثيل: هي أن تريد الإشارة إلى معنى فتعمد إلى معان مماثلة للمكنى عنه ومشابهة له، ومن بديع التمثيل قول الحق تبارك وتعالى: "أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ"[١]، كيف نفر عن الغيبة بالكناية من طريق التمثيل، فكنى عن حال المغتابين بصورة تظهر قبح حالهم، وتنفر الناس عنهم؛ حيث ذكر أولا في صدر

---

١ سورة الحجرات، الآية (١٢).

الآية المحبة؛ لأن النفوس قد تميل إلى الغيبة فتصغي إلى المغتاب، والنفرة من أكل لحم الأخ حال كونه ميتا؛ لأن النفوس تعافه وتنفر منه وتكرهه.

وهذه المناسبة التامة والرباط الوثيق بين الغيبة والنميمة التي هي ذكر مثالب الشخص وتتبع معايبه، وفي ذلك أعظم تمزيق لعرضه، وأكل اللحم فيه هذا المعنى، وبين المعنى المكنى به والمكنى عنه مماثلة أخرى، من ناحية أن أكل اللحم مرغوب فيه، تميل إليه النفوس، والغيبة ولع الناس بها معروف لا ينكره أحد، وإضافة اللحم للأخ زاد الفعل بشاعة، ولفظ ميتًا المماثلة بينه وبين الذي اغتيب وبعده عن مكان المغتاب فلا يشعر بما أصابه من التنقيص والتحقير حتى يستطيع الدفاع عن نفسه فهو في هذا بمنزلة الميت.

وذكر المحبة أول الآية والكراهة آخرها، إشارة إلى أن الغيبة بين طرفين متضادين، إقبال الناس عليها وولوعها أولا وكراهيتهم لها عند العقوبة.

ومنه قوله تعالى: "وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ"[1]. مثلت البخل بأحسن تمثيل؛ لأن البخيل لا يمد يده بالعطية، كالمغلول الذي لا يستطيع أن يمد يده، فقال: "وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ"، ولم يقل: (ولا تجعل يدك مغلولة كل الغل، ولا تبسطها كل البسط)؛ فناب ذكر العنق عن قوله: (كل الغل)؛ لأن غل اليد إلى العنق هو أقصى الغايات التي جرت العادة يغل اليد إليها.

---

١ سورة الإسراء، الآية: (٢٩).

من روائع الكناية في القرآن الكريم

قال الله تعالى:﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ ﴾ لقد كنى القرآن الكريم في هذه الآية بكلمة (الحرث) عن المعاشرة الزوجية .

إن هذه الكناية الفردية مما انفرد به القرآن الكريم فهي لطيفة دقيقة راسمة مصورة، مؤدية مهذبة، فيها من روعة التعبير وجمال التصوير، وألوان الأدب و التهذيب ما لا يستقل به بيان، ولا يدركه إلا من تذوق حلاوة القرآن. إنها عبرت عن العاشرة الزوجية التي من شأنها أن تتم في السر والخفاء بالحرث وهذا نوع من الأدب رفيع وثيق الصلة بالمعاشرة الزوجية، وتنطوي تحته معاني كثيرة تحتاج في التعبير عنها إلى آلاف الكلمات انظر إلى ذلك التشابه بين صلة الزراع بحرثه وصلة الزوجة في هذا المجال الخاص، ويبن ذلك النبت الذي يخرجه الحرث، وذلك النبت الذي تخرجه الزوج، وما في كليهما من تكثير وعمران وفلاح كل هذه الصور والمعاني تنطوي تحت كلمة (الحرث) أليست هذه الكلمة معجزة بنظمها وتصورها؟هل في مفردات اللغة العربية ـ على كثرتها ـ ما يقوم مقامها و يؤدي ما أدته و يصور ما صورته. إن المعنى لا يتحقق إلا بها. وعن التصوير لا يوجد بسواها.

قال تعالى:﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ الناس و الحجارة . هذه الآية كناية عن عدم العناية عند ظهور المعجزة. أي لا تعاندوا عند ظهور المعجزة فتمسكم هذه النار العظيمة تأمل هذه الكناية و مدى ما فيها من جمال

التعبير ، وروعة التصوير ، و لطافة الإيجاز. إنها عبرت عن العناد عند ظهور المعجزة بالنار العظيمة ، و هذا التعبير فيه ما فيه من شدة التنفيذ و قوة التأثير، ثم أن هذا التعبير قد أبرز لك هذا المعنى الفكري المجرد في صورة محسوسة ملموسة و لم يقف عند هذا الحد من التجسيم والتشخيص بل تعداه إلى التصيير و التحويل . فحوله على نار ملتهبة متأججة متوهجة بل تعداه إلى أعجب من هذا التصوير ، و لا أروع و ألذ من هذا التعبير؟ إنه الإعجاز يلبس ثوب الكناية فتنحني له هامات البلغاء، ويثير في النفس أسمى آيات الإعجاب.

قال تعالى:﴿ وَلَكِنْ لا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرّاً ﴾ سورة البقرة ٢٣٥. في هذه الآية كنى القرآن الكريم عن الجماع بالسر. تأمل هذه الكناية و مدى ما فيها من اللطائف و الأنوار و الأسرار . إن في الكناية بالسر عن الجماع من ألوان الأدب و التهذيب ما يعجز عن وصفه أساطير البيان ، و فيها من جمال التعبير ما يسترق الأسماع و يهز العواطف و يحرك الأحاسيس و المشاعر . لقد ألبست الجماع الذي يتم في السر ثوب السر فذهبت بسر الفصاحة و البيان . أبعد هذا يقال أن الكناية في القرآن يستطيع أن يحاكيها بنو الإنسان ؟ أبداً و الله إن بني الإنسان من المعجز بحيث لا يمكنهم فهم ما تنطوي عليه الكناية في القرآن من الأسرار .

قال تعالى:﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ ﴾ سورة آل عمران. كنى القرآن الكريم في هذه الآية بنفي التوبة عن الموت على

الكفر. تأمل هذه الكناية ومدى ما فيها من الجمال والروعة. ألا تحس أن التعبير الذي كنى به القرآن أجمل من أي تعبير آخر ؟ ألا تحس أن في هذا التعبير إيجاز لطيف ؟ إن التعبير بجماله و إيجازه و بديع نظمه فوق مقدور البشر.

قال تعالى:﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ سورة الفيل. كنى القرآن الكريم (بالعصف المأكول) عن مصيرهم إلى العذر فإن الورق إذا أكل انتهى حاله إلى ذلك. تأمل هذه الكناية إن فيها من ألوان الأدب و الجمال ما لا يستقل به بيان ، و فيها من الإعجاز اللطيف ما يعجز عن وصفه مهرة صناع الكلام . أما الأدب و الجمال ففي التعبير عن العذرة بالعصف المأكول و هذا التعبير مما أنفرد به القرآن فلا يوجد في غيره ، و أما الإيجاز اللطيف ففي اختصار مقدمات لا أهمية لها بالتنبيه على النتيجة الحاسمة التي يتقرر فيها المصير . و فيها زيادة على ذلك التلازم الوثيق بين اللفظ و المعنى الكنائي الذي لا يتخلف أبدا فإن العصف المأكول لابد من صيرورته إلى العذرة.فالمعنى لا يؤدي إلا بهذا اللفظ لا يصلح لهذا المعنى حتى لتكاد تصعب التفرقة بينهمافلايدري أيهماالتابع؟وأيهماالمتبوع؟ومن هنايأتي الإعجاز.

قال تعالى:﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً﴾ سورة الإسراء . كنى القرآن الكريم في هذه الآية بغل اليد إلى العنق عن البخل، وببسطها كل البسط عن الإسراف. تأمل الكنايتين تجد

فيهما من روائع البيان ما لا يحيط به فكر إنسان فيهما جمال في التعبير، وروعة في التصوير، وإيجاز وتأثير، وتنفير. حدثني بربك ألا ترى أن التعبير عن البخل باليد المغلولة إلى العنق فيه تصوير محسوس لهذه الخلة المذمومة في صورة بغيضة منفرة ؟ فهذه اليد التي غلت إلى العنق لا تستطيع أن تمتد ، و هو بذلك يرسم صورة البخيل الذي لا تستطيع يده أن تمتد ، وهو بذلك يرسم صورة البخيل الذي لا تستطيع يده أن تمتد بإنفاق و لا عطية. والتعبير ببسطها لك البسط يصور هذا المبذر لا يبقى من ماله على شيء كهذا الذي يبسط يده فلا يبقى بها شيء. وهكذا استطاعت الكناية أن تنقل المعنى الذي يبسط يده فلا يبقى بها شيء. وهكذا استطاعت الكناية أن تنقل المعنى قوياً مؤثراً ثم تأمل التلازم الوثيق الذي لا يتخلف أبداً بين التعبير و المعنى الكنائي.إن هذا التلائم يدلك على أن المعنى الكنائي لا يمكن تأديته و تصويره إلا بهذا التعبير، وأن هذا التعبير لا يصلح إلا لهذا المعنى. هل في مقدور البشر أن يحاكوا هذا الأسلوب ؟

البديع لغة واصطلاحا

البديع لغة: يقال: أبدع الشيء وابتدعه اخترعه، وابتدع فلان هذه الركية نشأها وسقاء لبديع جديد، ويقال: أبدعت الركاب إذا كلت وحقيقة أنها جاءت بأمر حادث بديع[١].

والبديع: من أسماء الله تعالى؛ لإبداعه الأشياء وإحداثه إياها، وهو البديع الأول من كل شيء. فالبديعُ هو الشيء المنشأ على غير مثال سابق، ولذلك قال الله -عز وجل- عن ذاته: "بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ"[٢]؛ لأنه خالق السموات والأرض على غير مثال سابق.

فالبديع إذا الخلق والإبداع، وقد يعني البراعة التي يدل عليها الشيء العجيب، ومن هنا يجب التركيز على التميز والفرادة لا على المشاكلة والمماثلة في ضروب البديع وأفانينه.

وقد وردت المادة في القرآن الكريم على النحو التالي: جاء في القرآن الكريم:"بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ"[٣]، أي: خالقهما ومبدعهما. (بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ)[٤]، ومثله قوله ـ عز وجل ـ حكاية عن النبي(ﷺ):{قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ

---

١ انظر : أسرار البلاغة للزمخشري مادة بدع والركية هي البئر والجمع ركايا وركي.

٢ سورة البقرة الآية (١١٧).

٣ سورة البقرة الآية (١١٧).

٤ سورة الأنعام الآية (١٠١).

وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠)}[١]، أي ما كنت أول من أرسل فقبلي أنبياء ورسل مرسلون. وكقوله تعالى: (وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ)[٢].

كما وردت كلمة "البديع" في السنة النبوية المطهرة: ففي الحديث الشريف: "إنما بدء وقوع الفتنة أهواء تتبع وأحكام تبتدع يخالف فيها كتاب الله". يقول الرسول ﷺ في وصف تهامة: "إن تهامة كبديع العسل: حلو أوله، حلو آخره".

وقد وردت المادة في الشعر العربي؛ فقد ورد لفظ البديع ومشتقاته في الشعر الجاهلي، وشعر المخضرمين كما في قول الشاعر الجاهلي عدي بن زيد[٣]:

فلا أنا بدع من حوادث تعتري ... رجالًا غدت من بعد بؤس بأسعد

وقد جاء لفظ البديع أيضًا بمعنى الجديد والمخترع في قول الشاعر المخضرم حسان بن ثابت –رضي الله عنه– مادحًا صحابة رسول الله (ﷺ)–رضي الله عنهم–:

قَومٌ إِذا حارَبوا ضَروا عَدُوَّهُمُ ... أَو حاوَلوا النَفعَ في أَشياعِهِم نَفَعوا

سَجِيَّةٌ تِلكَ مِنهُم غَيرُ مُحدَثَةٍ ... إِنَّ الخَلائِقَ حَقّاً شَرُّها البِدَعِ

١ سورة الأحقاف الآيتان (٩–١٠).

٢ سورة الحديد الآية (٢٧)

٣ علم البديع نشأته وتطوره .د.عبد الرازق أبو زيد زايد .مكتبة الشباب .١٩٨٠م .ص :١٣.

وظل استعمال الكلمة لغويًّا يدور حول معنيين:

- المحدث والجديد الذي أُنشئَ على غير مثال سابق.
- العجيب والغريب الذي يكون فيه حسن وطرافة.

وظل هذا الاستعمال اللغوي فيما تلا ذلك من عصور الأدب من عصر صدر الإسلام، ومرورا بالعصر الأموي، والعصر العباسي؛ ففي العصر الإسلامي وردت المادة في شعر عمر بن أبي ربيعة بنفس المعنى؛ حيث قال:

فَأَتَيْتُهَا فَأَخْبَرَتْهَا بِعُذْري ثمّ قالتْ: أتيتِ أمراً بديعا

ولو حاولنا تتبع النصوص الأدبيَّة لانتهينا إلى أنَّ كلمة قد استخدمت في المعنى السابق، وسنجد هذا المعنى متفقًا مع المعاني الأدبية والفنية التي أطلقت فيما بعد على بعض العبارات والصور الواردة في الشعر والنثر؛ لجدتها وطرافتها؛ فالخطيب القزويني: "هو علمٌ يُعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية مطابقته لمقتضى الحال، ووضوح دلالته لخلوها من التعقيد اللفظي، والمعنوي"[1].

[1] الإيضاح في علـــــوم البلاغة . ص : ٢٥٥ .

البديعُ اصطلاحًا:

جاء في معجم "المصطلحات": البديع تزيينُ الألفاظ أو المعاني بألوان بديعة من الجمال اللفظي أو المعنوي، ويسمى العلم الجامع لطرق التزيين".

ويعرفه الخطيب القزويني بأنه: "هو علمٌ يُعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية مطابقته لمقتضى الحال، ووضوح دلالته؛ لخلوها من التعقيد اللفظي، والمعنوي"[1]. فهو علمٌ يُعْرفُ به الوجوه والمزايا التي تزيد الكلام حسْنًا وطلاوةً، وتكسوه بهاءً ورونقًا، بعدَ مُطابقته لمقتضى الحال، مع وُضوح دلالته على المراد لفظًا ومعنى.

وعلم البديع هو _ بلا شك _ تابعٌ للفصاحة والبلاغة؛ فإذًا هو صفو وخلاصة لما سبقه، وبيان ذلك هو أن العلوم الأدبية بالإضافة إلى حاجتها إليه وترتبها عليه؛ إذ هي خمس مراتب كلُ واحدةٍ منها أخص من الأخرى، وهو الغاية التي تنتهي إليها كلها، وهي على التوالي:

المرتبة الأولى: علم اللغة.

المرتبة الثانية: علم التصريف.

المرتبة الثالثة: علم الإعراب.

المرتبة الرابعة: علم المعاني.

---

١ الإيضاح في علـــــــوم البلاغة . ص : ٢٥٥ .

المرتبة الخامسة: علم البيان[١].

وقد استعمل الشعراء والكتاب البديع وألوانه؛ لما فيه من طرافة وجمال، دون أن يلتزموا بشيء من القيود التي وضعها العلماء المتأخرون لمفهوم البديع كعلم له مصطلحاته وألوانه الخاصة التي تقتصر عليه، وحدوده التي يعرف بها دون أن يسمحوا لغيرها أن تدخل منطقته. فكل ما هو طريف وجميل ينطوي تحت كلمة البديع سواء كان جناسا أو طباقا، أو استعارة أو تشبيها أو إيجازا أو إطنابا وله أثر في تكوين العبارة وتصويرها وتزيينها.

وتنبه الشعراء بصفة خاصة إلى الأثر الذي يتركه هذا البديع فأولعوا به واستخدموه في أشعارهم باعتباره وسيلة للوصول إلى هذه الغاية: استعمله بشار بن برد، ومسلم بن الوليد، وابن الرومي، والبحتري، حتى أصبح البديع غاية في ذاته على يد أبي تمام.

ويقال: إن مسلم بن الوليد هو أول من أطلق كلمة البديع على هذا الفن وليس ابن المعتز، فقد جاء مسلم بهذا الذي سماه الناس البديع وشاعت هذه الكلمة حتى صارت في العصر العباسي تعني كل صورة غريبة أو طريفة أو جديدة حتى طغت على الأساليب الشعرية أو النثرية.

---

١ علم البديع (رؤية جديدة) . د. أحمد أحمد فشل .دار المعارف .١٩٩٦م .ص : ٤٠

ثمَّ جاء ابن المعتز (ت ٢٩٦هـ) وأراد أن يجمع شتات هذه الألوان البديعية المتفرقة في سلك واحد ، فوضع اللبنة الأولى في بناء صرح البديع: جمع منه سبعة عشر لونا، وتباهي بعمله فقال وما جمع فنون البديع أحد قبلي ولا سبقني إليه مؤلف.

وعاصره قدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ) فجمع من ألوان البديع عشرين نوعا، منها سبعة أنواع ذكرها ابن المعتز من قبل، فكان ما زاده قدامة ثلاثة عشر نوعا فتكامل لهما ثلاثون.

ثم تبعهما العلماء في رفع قواعد البناء، فجمع أبو هلال العسكري (ت ٣٩٥هـ) سبعة وثلاثين نوعا مضيفا إلى قدامة سبعة أنواع أخرى. وأتى ابن رشيق (ت٤٦٣هـ) فأضاف إلى البديع ما أضاف، حتى بلغ به خمسة وستين بابا كما يقول السبكي.

إلى أن جاء ابن سنان الخفاجي (ت ٤٦٦هـ) فنظر في هذا الحشد من ألوان البديع فرأى بعضها ينشأ من وضع الألفاظ في مواضعها، وبعضها يأتي من مناسبة الألفاظ للمعاني، فجعلها نوعين: قسم يتعلق بالألفاظ وآخر يتعلق بالمعاني. فكانت هذه النظرة المتأملة الفاحصة مدخلا للعلماء المتأخرين أن يقسموا البديع إلى: محسنات معنوية، ومحسنات لفظية.

ثمَّ جاء السكاكي (٦٢٦هـ) وحاول أن يرسم الحدود بين هذه العلوم الثلاثة ويضع كلا منها موضعه الذي يراه فلا تختلط الحدود، ولا تتداخل الأمور. فوضع أنواع البديع تحت اسم المحسنات وقسمها مهتديا بالخفاجي إلى محسنات معنوية، ومحسنات لفظية، وفصلها عن علم المعاني وعلم البيان.

بقيت خطوة أخيرة قام بها الخطيب القزويني (ت ٧٣٩هـ) وهي أنه ضم هذه المحسنات التي ذكرها السكاكي تحت اسم البديع، وانتهت إلى ذلك علوم البلاغة بأقسامها الثلاثة: معان، وبيان، وبديع.

وذكر الخطيب القزويني من البديع المعنوي ثلاثين نوعا . ومن اللفظي سبعة أنواع ، وذكر أثناءها أمورا ملحقة بها تصلح أن تعد أنواع أخرى.

وما جاء به الخطيب هو المعتمد حتى الآن في دراستنا للبديع، دون نظر إلى هذا السيل الجحاف الذي أتى به من قبله من ألوان البديع، ومن جاء بعده من أصحاب البديعيات، حتى وصلت على أيدي أصحابها إلى أكثر من مائتي نوع.

فنون البديع

١– الجناس

من العلماء من يسمي هذا الفن من البديع اللفظي تجنيسًا، ومن يسميه مجانسًا، ومن يسميه جناسًا، أسماء مختلفة والمسمى واحد. وسبب هذه التسمية راجع إلى أن حروف ألفاظه يكون تركيبها من جنس واحد.

وحقيقة الجناس عند ابن الأثير أن يكون اللفظ واحدا والمعنى مختلفا، وذلك يعني أنه هو اللفظ المشترك، وما عداه فليس من التجنيس الحقيقي في شيء.

وعلى هذا فالجناس هو: تشابه اللفظين في النطق واختلافهما في المعنى. وهذان اللفظان المتشابهان نطقا المختلفان معنى يسميان "ركني الجناس". ولا يشترط في الجناس تشابه جميع الحروف، بل يكفي في التشابه ما نعرف به المجانسة.

أقسام الجناس: والجناس ينقسم قسمين: تام وغير تام .

أولًا– الجناس التام:

هو ما اتفق فيه اللفظان في أربعة أمور، هي: أنواع الحروف، وأعدادها، وهيئاتها الحاصلة من الحركات والسكنات، وترتيبها. وهذا هو أكمل أنواع

الجناس إبداعا وأسماها رتبة[1]. ومن ذلك قوله تعالى: (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ)[2]، فالجناس هنا بين اسمين متماثلين في كل شيء هما السَّاعَةُ وساعَةٍ الأول بمعنى القيامة، والثاني بمعنى مطلق الوقت.

ومثله قوله تعالى: (يَكادُ سَنا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصارِ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصارِ)[3] فالجناس بين الْأَبْصارِ الأولى جمع " بصر" وهي حاسة الرؤية، والْأَبْصارِ الثانية جمع "بصر" وهي العلم، فأولو الأبصار: أصحاب العلم.

الجناس غير التام:

وهو ما اختلف فيه اللفظان في واحد من الأمور الأربعة السابقة التي يجب توافرها في الجناس التام، وهي: أنواع الحروف، وأعدادها، وهيئاتها الحاصلة من الحركات والسكنات، وترتيبها.

ومن أمثلته في القرآن الكريم قوله تعالى: "وَلَقَدْ أَرْسَلْنا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ"[4]. ولا يقال هنا إن اللفظين متحدان في المعنى؛ لأنهما من «الإنذار» فلا يكون بينهما جناس، فاختلاف المعنى ظاهر، إذ المراد

---

١ علم البديع ص ١٩٧.

٢ سورة الروم الآية (٥٥).

٣ سورة النور الآيتان (٤٣ ، ٤٤).

٤ سورة الصافات الآيتان (٧٢- ٧٣).

باللفظ الأول مُنْذِرِينَ الفاعلون وهم الرسل، وبالثاني الْمُنْذَرِينَ المفعولون، وهم الذين وقع عليهم الإنذار.

ومنه قول الرسول صلوات الله عليه: «اللهم كما حسنت خلقي فحسن خلقي». ومنه قولهم: «جبة البرد جنة البرد»؛ حيثُ وقع الاختلاف بين البرد والبُرد؛ لأن الباء في الأول مضمومة ويراد بها الثوب وفي الثاني مفتوحة وهو ضد الحر. والجُنة بضم الجيم: الوقاية. وكذلك قولهم:«الجاهل إما مفرط أو مفرّط» الأول اسم فاعل من الإفراط وهو تجاوز الحد، والثاني اسم فاعل من التفريط وهو التقصير، وقولهم: «البدعة شرك الشرك».

وإن اختلف الحرفان في أنواع الحروف، فيشترط ألّا يقع الاختلافُ بأكثر من حرف: ثمّ الحرفان: إن كانا متقاربين سُمّي مضارعًا، وهو إمّا في الأوّل؛ نحو: «بيني وبين كنّي[1] ليل دامس وطريق طامس». أو في الوسط؛ نحو قوله تعالى: «وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ»[2]، وقوله تعالى: (ذلِكُمْ بِما كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِ وَبِما كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ)[3] وقوله تعالى: (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢)

١ الكن: المنزل. وهذا من كلام الحريرى، والدامس: الشديد الظلمة.

٢ سورة الأنعام الآية (٢٦).

٣ سورة غافر الآية (٧٥)

إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)[١]. أو في الآخر؛ نحو قول النبي –صلّى الله عليه وسلّم–: «الخيل معقود بنواصيها الخير»[٢].

وإلَّا سُمِّي لاحقا، وهو– أيضا– إمّا في الأوّل؛ (وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ)[٣]. أو في الوسط؛ كقوله تعالى: (وَإِنَّهُ عَلى ذلِكَ لَشَهِيدٌ* وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ)[٤]. أو في الآخر؛ نحو: (وَإِذا جاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذاعُوا بِهِ)[٥]، وقول وقال بعضهم: "لا تنال المكارم إلا بالمكاره".

وإذا اختلف الركنان في أعداد الحروف سمي ناقصًا ، كقوله تعالى : " وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (٢٩) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ"[٦].

وإذا ولي أحد المتجانسين الآخر، سُمِّيَ "مزدوجًا، ومكررًا، ومردَّدًا"؛ لازدواج اللفظين بتواليهما وتكرير أحدهما بالآخر وترداده به، كقوله تعالى: "وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ"[٧].فسبأ ونبأ متواليان وتجنيسهما لاحق، وذلك لاختلافهما بحرفين متباعدين فى المخرج، فالباء فى: بنبأ لا دخل لها فى التجنيس.

---

١ سورة القيامة الآيات (٢٣،٢٢)

٢ الحديث متفق عليه رواه البخارى فى «الجهاد»، ومسلم فى «الإمارة».

٣ سورة الهمزة الآية (١)

٤ سورة العاديات الآيتان (٧– ٨).

٥ سورة النساء الآية ٨٣.

٦ سورة القيامة الآيتان (٢٩ ، ٣٠)

٧ سورة النمل، الآية (٢٢).

٢- الطباق

ويطلق عليه أسماء عديدة منها: التطبيق، والتضاد، والمطابقة.

والطباق في اللغة:

"أن يضع البعير رجله موضع يده، فإذا فعل ذلك قيل: طابق البعير.

قال الشاعر:

حتى ترى البازل منها الأكبدا مطابقًا يرفع عن رجلٍ يدا

وقال الخليل بن أحمد: طابقت بين الشيئين، إذا جمعت بينهما على حذو واحد وألصقتهما، وتطابق الشيئان: تساويا، والمطابقة: الموافقة، والتطابق: الاتفاق. وقال الأصمعيّ: المطابقة أصلها وضع الرجل موضع اليد في مشي ذوات الأربع. وفي لسان العرب: تطابق الشيئان بمعنى تساويا، وقد طابقه مطابقة وطباقًا إذا ساواه، والمطابقة الموافقة، والتطابق الاتفاق، وطابقت بين الشيئين إذا جعلتهما على حذو واحد وألزقتهما، ومنه قوله تعالى: ﴿ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقًا؟﴾[1]. وقال الزجاج: معنى (طباقًا) مطبق بعضها فوق بعض. والمطابقة: المشي في القيد، والمطابقة: أن يضع الفرس رجله في موضع يده، ومطابقة الفرس في جريه: وضع رجليه مواضع قدميه.

---

١ سورة نوح الآيه : (١٥)

والطباق اصطلاحًا:

أمّا في كتب البلاغة فالأمر مختلف إذ ليس بين التسمية اللغويّة والتسمية الاصطلاحيّة أدنى مناسبة؛ ذلك لأن الطباق في اصطلاح رجال البديع هو: الجمع بين الضدين أو بين الشيء وضده في النثر أو الشعر. أو هو الجمعُ بين لفظين متقابلينِ في المعنى، أو الجمع بين الضدين.

ومن ذلك قول الله تعالى: (وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقاظاً وَهُمْ رُقُودٌ)[1]، وقول الله تعالى: (هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ)[2]، وقول الله تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الخَيْرُ إنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[3]. وقوله تعالى: (وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا)[4]، وكقوله تعالى: (ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى)[5]. ونحو قوله تعالى: (وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ)[6]، وقوله تعالى: (لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)[7]، وقوله تعالى: (وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)[1]. وكقوله تعالى: (أَوَ

---

١ سورة الكهف الآية : (١٨)

٢ سورة الحديد الآية (٣)

٣ سورة آل عمران الآية (٢٦).

٤ سورة النجم الآيتان (٤٣– ٤٤).

٥ سورة الأعلى الآية (١٣)

٦ سورة البقرة الآية (٢٢٨)

٧ سورة لبقرة الآية (٢٨٦)

مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ)[٢]، وقوله تعالى: (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ)[٣]، وكقوله تعالى: (وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ)[٤]. وقوله تعالى: (باطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذابُ)[٥].

ومِمَّا أثر من الحديث الشريف قوله –ﷺ–: "فَلْيَأْخُذِ الْعَبْدُ مِنْ نَفْسِهِ لِنَفْسِهِ، وَمِنْ دُنْيَاهُ لآخِرَتِهِ، وَمِنَ الشَّبِيبَةِ قَبْلَ الْكِبَرِ، وَمِنَ الْحَيَاةِ قَبْلَ الْمَمَاتِ، فَوَ الَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا بَعْدَ الْمَوْتِ مِنْ مُسْتَعْتَبٍ، وَمَا بَعْدَ الدُّنْيَا مِنْ دَارٍ، إِلَّا الْجَنَّةَ وَالنَّارَ".

ومن أحاديث الرسول –ﷺ–: "أَفْضَلُ الْفَضَائِلِ أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ، وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ، وَتَصْفَحَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ"، وقال –ﷺ–: "أَهْلُ الْمَعْرُوفِ فِي الدُّنْيَا هُمْ أَهْلُ الْمَعْرُوفِ فِي الْآخِرَةِ، وَأَهْلُ الْمُنْكَرِ فِي الدُّنْيَا هُمْ أَهْلُ الْمُنْكَرِ فِي الْآخِرَةِ"، وقال –ﷺ– للأنصار: "إِنَّكُمْ لَتَكْثُرُونَ عِنْدَ الْفَزَعِ، وَتَقِلُّونَ عِنْدَ الطَّمَعِ".

---

١ سورة الزمر الآية (٣٨).

٢ سورة الأنعام الآية (١٢٢).

٣ سورة الزمر الآية (٩).

٤ سورة الرعد الآية (١٦).

٥ سورة الحديد الآية (١٣).

المقابلة

في اللغة: المعارضة والمواجهة. أما في اصطلاح البلاغيين: فمعناها أن يؤتَى بمعنيين متوافقين أو معانٍ متوافقة، ثم يؤتى بما يقابلها على الترتيب[1]، فترى هذا المعنى في قوله الله تعالى: {فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا}[2].

الفرقُ بينَ المقابلةِ والطباقِ:

- الطباقُ: حصولُ التوافقِ بعد التنافي ، كالجمعِ بينَ أضحكَ وأبكَى بعد تنافيهما في قوله تعالى : (وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى)[3]، والطباق لا يكون إلا في الأضداد، ولا يكون إلا بين ضدّين فقط.

- المقابلةُ: حصولُ التنافي بعد التوافقِ، كالجمع بين الضحكِ والقِلَّة، ثم إحداثُ التنافي حيثُ تقابلَ الأولُ بالأولِ والثاني بالثاني في قوله تعالى: (فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا)[4]، وتكون بين الأضداد وبين غير الأضداد، وقد تكون بين أكثر من ضدين. فتكون غالبا بالجمع بين أربعة أضداد: ضدان في صدر الكلام وضدان في عجزه. وقد تصل المقابلة إلى الجمع بين عشرة أضداد: خمسة في الصدر وخمسة في العجز. على النحو التالي:

---

١ الخطيب القزويني : الإيضاح ص ٤٨٥ دار الكتاب اللبناني ، بيروت .

٢ سورة التوبة الآية : (٨٢)

٣ سورة النجم الآية (٤٣)

٤ سورة التوبة الآية : (٨٢)

١- مقابلة اثنين باثنين: نحو قوله تعالى: (فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرا)، ونحو قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: (إن لله عبادا جعلهم مفاتيح الخير مغاليق الشر)، وقوله أيضا للأنصار: (إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع). وكقول رجل يصف آخر: "ليس له صديق في السر ولا عدو في العلانية".

٢- مقابلة ثلاثة بثلاثة: نحو قوله تعالى: (يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ)[١] وقول علي بن أبي طالب لعثمان بن عفان-رضي الله عنهما-: "إن الحق ثقيل وبيّ، والباطل خفيف مريّ".

٣ - مقابلة أربعة بأربعة: نحو قوله تعالى: (فَأَمَّا مَنْ أَعْطى وَاتَّقى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرى، وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرى)[٢]، وقوله: اسْتَغْنى مقابل لقوله: اتَّقى لأن معناه زهد فيما عنده واستغنى بشهوات الدنيا عن نعيم الآخرة، وذلك يتضمن عدم التقوى. وقول أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- في وصيته عند الموت: «هذا ما أوصى به أبو بكر عند آخر عهده بالدنيا خارجا منها، وأول عهده بالآخرة داخلا فيها»، فقابل: أوّلا بآخر، والدنيا بالآخرة، وخارجا بداخل، ومنها بفيها.

---

١ سورة الأعراف الآية (١٥٧)

٢ سورة الليل الآيات (٥ : ١٠)

٤- ومن مقابلة خمسة بخمسة: قول الشاعر:

بواطئ فوق خد الصبح مشتهر ... وطائر تحت ذيل الليل مكتتم

فالمقابلة هنا بين «واطئ وطائر»؛ لأن الواطئ هو الماشي على الأرض، والطائر هو السائر في الفضاء، وبين «فوق وتحت» و «خد وذيل» لما بينهما من معنى العلو والسفل، و «الصبح والليل» و «مشتهر ومكتتم». ومنه قول صفي الدين الحلي:

كان الرضا بدنوي من خواطرهم ... فصار سخطي لبعدي عن جوارهمو

فالمقابلة بين «كان وصار» و «الرضا والسخط» و «الدنو والبعد» و «من وعن» و «خواطرهم وجوارهم» على مذهب من يرى أن المقابلة تجوز بالأضداد وغيرها.ومنه أيضا قول أبي الطيب المتنبي:

أزورهم وسواد الليل يشفع لي ... وأنثني وبياض الصبح يغري بي

ومقابلة «الليل بالصبح» لا تحسب إلا على المذهب القائل بجواز المقابلة بين الأضداد وغيرها. أما على المذهب القائل بقصر المقابلة على الأضداد فقط فإن المقابلة بين «الليل والصبح» تكون غير تامة؛ لأن ضد الليل المحض النهار لا الصبح.

٥- ومن مقابلة ستة بستة: قول الصاحب شرف الدين الأربلي:

على رأس عبد تاج عز يزينه ... وفي رجل حر قيد ذل يشينه

فالمقابلة هنا بين «على وفي» و«رأس ورجل» و«عبد وحر» و«تاج وقيد» و«عز وذل» و«يزينه ويشينه».

ويرى علماء البديع أن أعلى رتب المقابلة وأبلغها هو ما كثر فيه عدد المقابلات شريطة ألا تؤدي هذه الكثرة إلى التكلف أو توحي به.

كذلك يرون أن المقابلة بالأضداد أفضل وأتم، وهذا هو مذهب السكاكي؛ فالمقابلة عنده: أن تجمع بين شيئين فأكثر ثم تقابل ذلك بالأضداد، وإذا شرطت في أحد الشيئين أو الأشياء شرطا شرطت فيما يقابله ضده.

الاقتباس

الأمثلة:

(١) قال عبد المؤمن الأصفهانيُّ[1]: "لا تغرّنّك من الظّلمة كثرة الجيوش والأنصار «إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ[2] فِيهِ الْأَبْصَارُ».

(٢) وقال ابن سناء الملك[3]:

رحلوا فلست مسائلا عن دارهم ... أنا «باخع نفسى على آثارهم»[4]

(٣) وقال أبو جعفر الأندلسيُّ[5]:

لا تعاد الناس فى أوطانهم ... قلّما يرعى غريب الوطن»[6]

وإذا ما شئت عيشا بينهم ... «خالق الناس بخلق حسن»

القاعدة: الاقتباس تضمين النّثر أو الشّعر شيئا من القرآن الكريم أو الحديث الشريف من غير دلالة على أنّه منهما، ويجوز أن يغيّر فى الأثر المقتبس قليلا.

---

١ أديب مشهور متصوف وله كتاب يدعى أطباق الذهب رتبه على مائة مقالة عارض بها الزمخشرى.

٢ يقال شخص بصره إذا فتح عينيه وجعل لا يطرف.

٣ هو القاضى السعيد هبة الله ، كان من الرؤساء النبلاء ، وكان واسطة العقد فى مجالس الشعراء بمصر وهو أول من استكثر من الموشحات وأجاد فيها من المشارقة ، وله ديوان شعر ، وتوفى بالقاهرة سنة ٦٠٨ هـ.

٤ بخع نفسه : قتلها غما.

٥ أديب قوى الإدراك ، أجاد فى فنى النظم والنثر ، وجرت له مع لسان الدين بن الخطيب مباحثات ومراسلات ، وله ديوان شعر ، وتوفى نحو سنة ٧٧٢ هـ.

٦ يرعى غريب الوطن: أى يلحظ بالإحسان.

السجع

تعريفُه:

السجع في اللغة: من قولهم سجعت الناقة إذا مدّت حنينها على جهة واحدة . وسجعت الحمامة: هدرت ورددت صوتها . جاء في الصحاح ولسان العرب في مادة : السجع:سجَع يسجَع سجْعًا: استوى واستقام وأشبه بعضه بعضًا. والسجع الكلام المقفى. والجمع أسجاع وأساجيع. وكلام مسجّع، وصاحبه: سجّاعة .

السجع في علم البلاغة : هو توافقُ الفاصلتينِ في الحرفِ الأخيرِ منَ (النثرِ). وهذا معنى قول السكاكي: (السجع في النثر كالقافية في الشعر)

أقسامُهُ: السجعُ ثلاثة أقسام:

أولها: (السجع المطرف) وهو ما اختلفت فاصلتاه في الوزن، واتفقتا في التقفية، أو هو ما اتفقت أعجاز فواصله في نوع الحروف فقط، واختلفت في عددها ووزنها. نحو قوله تعالى (مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا)[١]. ونحو قوله تعالى: (أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا)[٢].

ثانيها- (السجع المُرصَّع): وهو ما اتفقت فيه ألفاظ إحدى الفقرتين أو أكثرها في الوزن والتّقفية، مثل قول الحريري: هو يبع الأسجاع بجواهر لفظه، ويقرع

---

١ سورة نوح الآيتان (١٣ ، ١٤)

٢ سورة النبأ الآيتان (٦ ، ٧)

الأسماع بزواجر واعظه[1]، ومثل قول الهمداني: إنَّ بعد الكدر صفوًا، وبعد المطر صحوًا.

ثالثها- (السجع المتوازي): وهو ما اتفقت فيه الفقرتان في الوزن والتقفية، أو هو ما اتفقت أعجاز فواصله في عدد الحروف، والوزن، والروي. نحو قوله تعالى:(فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ)[2]؛لاختلاف سُرر، وأكواب، وزناً وتقفية، ونحو قوله تعالى: (وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (١) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا)[3]؛ لاختلاف المرسلات، والعاصفات وزنًا فقط. ونحو: حسدَ الناطق والصامت، وهلك الحاسد والشامت؛ لاختلاف ما عدا الصَّامت، والشامت تقفية فقط.

السجعُ من حيثُ الطولُ والقصرُ:

أوعر السجع السجع القصير، وهو ما تكون فيه كلّ واحدة من السجعتين مؤلفة من ألفاظ قليلة. وكلّما قلت الألفاظ كان أحسن لقرب الفواصل أو الفقرات المُسجّعة (القرينة) من سمع السامع، وهذا الضرب أوعر السجع مذهبًا وأبعده متناولًا، ولا يكاد استعماله يقع إلا نادرًا.

أما الضرب الثاني، ونعني به السجع الطويل؛ فهو أسهل تناولًا، وإنّما كان القصير من السجع أوعر مسلكًا من الطويل؛ لأنّ المعنى إذا صيغ بألفاظ

---

١ ولو أبدلت الاسماع بالآذان كان مثالا للأكثر : وسمى السجع سجعا تشبيها له بسجع الحمام ، وفواصل الأسجاع موضوعة على أن تكون ساكنة الاعجاز ، موقوفا عليها ، لأن الغرض أن يزاوج بينها ، ولا يتم ذلك إلا بالوقف

٢ سورة الغاشية الآيتان (١٣ ، ١٤)

٣ سورة المرسلات الآيتان (١ ، ٢)

قصيرة كثرت سجعاته، فعزّ لذلك تحقيق السجع فيه، وضاق المجال في استجلابه.

وأمّا الطويل فإنّ الألفاظ تطول، وتقلّ نتيجة ذلك عدد السجعات، فيستجلب له السجع بسهولة.

الأسجاعُ مبنيَّةٌ على سُكون أواخرها:

أي بناء السجع على سكون العجز أي الحرف الآخر من الفاصلة؛ إذ الغرض من السجع وهو الازدواج لا يحصل إلا بالبناء على السكون، وذلك السكون أعم من أن يكون في الفاصلة من أصل وضعها، كما في دعا تثنية أمر، ودعا فعلا ماضيا، أو يحصل بالوقف، ولذا قال مبنية على السكون ولم يقل مبنية على الوقف، ومما لا ينبغي أن يذهب عليك أنه لو لم يوقف على الفاصلتين المختلفتين الإعراب لا يخرج الكلام به عن السجع لصدق تعريف السجع عليه، وهو تواطؤ الفاصلتين على حرف، وإنما يفوت الغرض منه، فما وقع في عبارة الشارح من أنه لو اعتبر الحركة لفات السجع مسامحة، وواضحة ما في عبارة الإيضاح أنه يفوت غرض السجع. (كقولهم: ما أبعد ما فات وما أقرب ما هو آت) لأن ما فات وإن كان عن قريب فلا يمكن أن يدرك، وما هو آت يدرك وإن بعد، ولذا قال: خير الثقلين: (أنا والساعة كهاتين، وأشار إلى

إصبعيه المباركتين، السبابة، والوسطى)[١]، هذه وقد خالف فات وآت في الحركة، لكن يحصل غرض السجع بالوقف، لا يقال يمنع عن السكون التقاء الساكنين على غير حده لأنا نقول هو مغتفر في الوقف كما عرف في موضعه.

(ولا يقال في القرآن أسجاع) أي لا يحكم هذا الحكم أو لا يستعمل في شأن القرآن الأسجاع (بل) يقال (فواصل) فيه بحث، إذ لا يفيد الفواصل فائدة الأسجاع لأنها أعم من الأسجاع، والأعم لا يفيد معنى الأخص إلا أن يتكلف، ويقال: أراد أنه يقال فواصل متوافقة في الأعجاز.

وأفضلهُ:

وأحسن السجع ما تساوتْ فِقرهُ، نحو قوله تعالى: (فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَمْدُودٍ)[٢]. ونحو قوله – ﷺ–: «مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلاَّ مَلَكَانِ يَنْزِلاَنِ فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الآخَرُ اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا». ثم ما طالت فقرته الثانية، نحو قوله تعالى: (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى)[٣]، ثم ما طالت ثالثته، نحو قوله تعالى: (النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ

---

١ صحيح: أخرجه البخاري ومسلم عن أنس وسهل بن سعد، بلفظ: «بعثت أنا والساعة كهاتين».

٢ سورة الواقعة الآيات (٢٨ : ٣٠)

٣ سورة النجم الآيتان (١ ،٢)

عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ)[1] ولا يحسن عكسه؛ لأن السامع ينتظر إلى مقدار الأول، فاذا انقطع دونهن أشبه العثار[2]، ولا يحسن السجع إلا إذا كانت المفردات رشيقة، والألفاظ خدم المعاني.

ولا يستحسن السجع أيضًا إالا إذا جاء عفوًا، خاليًا من التكلف والتصنح، ومن ثم لا تجد لبليغ كلامًا يخلو منه، كما لا تخلو منه سورة وإن قصرت.

---

١ سورة البروج الآيات (٥ : ٧)

٢ يعني أنه لا يحسن أن يؤتى في السجع بفقرة أقصر مما قبلها كثيراً ، لأن السجع إذا استوفى امده من الأولى لطولها ، ثم جاءت الثانية أقصر منها ، يكون كالشيء المبتور.

الازدواج

تعريفُه: هو تجانسُ اللفظينِ المجاورينِ، نحو: مَنْ جَدَّ وَجَدَ، ومن لَجَّ وَلِج. ومنه قوله تعالى: {.. فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ...}[1].

أو: هو أنْ يأتيَ الشاعرُ في بيتهِ من أولهِ إلى آخره بجملٍ: كلُّ جملةٍ فيها كلمتانِ مزدوجتانِ، كلُّ كلمةٍ إمَّا مفردةٌ أو جملةٌ، وأكثرُ ما يقع هذا النوعُ في أسماءَ مثناةٍ مضافةٍ كقول أبي تمام[2]:

وَكَانَا جَمِيعًا شَرِيكَيْ عِنَانٍ رَضِيعَيْ لَبَانٍ خَلِيلَيْ صَفَاءِ

ونحو[3]:

خُودًا إِذَا أَقْبَلَتْ لِلوَصْلِ وَابْتَسَمَتْ وَلَّى الظَّلَامُ وأَبْكَتْنِي مِنَ الفَرَحِ

فالمزواجة بيْن أقبلت وابتسمت، وولَّى وأبكت. ومن الازْدواج نوع يُؤْتَى فيه بكلمتين اتَّحدتا لفظًا ومعنى، نحو[4]:

أَبْدَانُهُنَّ وَمَا لَبِسْ نَ مِنَ الحَرِيرِ مَعًا حَرِيرْ

أَرْدَانُهُنَّ وَمَا مَسِسْ نَ مِنَ العَبِيرِ مَعًا عَبِيرْ

---

١ سورة البقرة الآية (١٩٤).

٢ من المتقارب، وهو لأبي تمَّام من قصيدة يَرْثِي بها خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني، انظر: "ديوان أبي تمَّام" ١٠/٤، وانظر: "تَحرير التَّحبير" ٤٥٢، و"أنوار الرَّبيع" ٢٣٢/٣.

٣ من البسيط، هو لابْنِ قِرْقماس، انظر: "زهر الربيع" ٢٢ب.

٤ البيتان من مجزوء الكامل، وهُما لابْنِ الرُّومي، والرواية في ديوانه ٦/٣.

وقد ورد البيتان في الديوان برواية مختلفة ؛ إذ ورد في الدِّيوان:

أَبْشَارُهُنَّ وَمَا ادَّرَعْ نَ مِنَ الحَرِيرِ مَعًا حَرِيرْ

وَجَمَالُهُنَّ وَمَا لَبِسْ نَ مِنَ الحَبِيرِ مَعًا حَبِيرْ

وَنَسِيمُهُنَّ وَمَا مَسِسْ نَ مِنَ العَبِيرِ مَعًا عَبِيرْ

وليس بجناس لاتِّفاق المعنى خلافًا للرماني[1]؛ حيث عدَّ الازدواج تَجْنيسًا، وذكر منه قوله تعالى: {فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ}[2].

---

١ ذكر الرمَّاني الازدِواج في باب التجنيس، وذكر منه الآيةَ الَّتي أوْردها المؤلف، انظر: النُّكت في إعْجاز القُرآن (ثلاث رسائل ص٩٩) ولعلَّ الرمَّاني حين فعل ذلك انطلق من المفهوم العامّ للتَّجانُس بمعنى التَّشابُه والتَّشاكُل، وكان هذا المفهوم قبل مرحلة استِقْرار المصطلحات.

٢ سورة البقرة الآية (١٩٤).

التورية

تعريفُها لغةً: مصدرٌ، ورّيتُ الخبرَ توريةً: إذا سترتُه، وأظهرتُ غيره، والتورية: الستر.

واصطلاحًا: هي أن يذكُرَ المتكلمُ لفظاً مفرداً له معنيان؛ أحدهُما قريبٌ ظاهرٌ غيرُ مقصودٍ ودلالةُ اللفظِ عليه ظاهرةُ، والآخرُ بعيدٌ خفيٌّ هو المرادُ والمقصودُ، ودلالةُ اللفظِ عليه خَفِيَّةٌ، فيتوهَّمُ السَّامعُ: أنه يُريدُ المعنَى القريبَ، وهو إنَّما يُريدُ المعنى البعيدَ بقرينةٍ تشيرُ إليه ولا تُظهرُه، وتسترُه عن غير المتيقظِ الفطِنِ، كقوله تعالى: (وَهُوَ الذي يَتَوَفَّاكُم بالليْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بالنَّهَارِ)، أراد بقوله جرحتم معناهُ البعيدُ، وهو ارتكابُ الذنوبِ، ولأجلِ هذا سُمِّيتِ التَّوريةُ إيهاماً وتخييلا.

ورد في السيرة العطرة أنّ رجلاً لقي النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأبا بكر الصديق رضي الله عنه وهما مهاجران في طريقهما من مكّة إلى المدينة، وعرف الرجل أبا بكر الصديق ولم يعرف رسول الله عليه وسلّم. فسأل الرجل أبا بكر من هذا ؟ فأجاب الصديق مورّياً وصادقًا: (هادٍ يهديني السبيل). وفهم الرجل أنّ هذا دليل يدلّ أبا بكر في الصحراء على قصده المنشود، بينما قصد الصديق رضي الله بكلمة (هاد) الذي يهديني إلى النور والإيمان ويدلّني على السبيل القويم في العقيدة والسلوك. وبين ابن سعد في رواية له سبب قول أبي بكر الصديق- رضي الله عنه-: (يهديني السبيل): (إنّ النبي- صلى الله عليه وسلّم- قال لأبي بكر

الصديق- ﷺ-: ألهُ الناس عني)؛ فكان إذا سئل من أنت قال: باغي حاجة، فإذا قيل من هذا معك؟ قال: (هاد يهديني).

وفي حديث أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنهما - عند الطبراني: (وكان أبو بكر الصديق- ﷺ- رجلاً معروفاً في الناس فإذا لقيه لاقٍ يقول لأبي بكر: من هذا معك؟ فيقول: (هادٍ يهديني) يريد الهداية في الدين ويحسبه الآخر دليلًا ...).

ورد في السيرة النبويّة: روي أن رسول الله- صلى الله عليه وسلّم- كان سائرًا بأصحابه يريد بدرًا، وكان يحرص على ألا يشيع خبر سيره، ولا مكانه، خشية أن تعلم قريش بذلك؛ فتستعد للحرب، أو خشية أن يعلم أبو سفيان وهو قائد الحملة التجاريّة القادمة من الشام إلى مكّة بالخبر، فيهرب إلى غير طريق ... فلقيهم أعرابيّ فسأل: ممّن القوم؟ فأجاب صلّى الله عليه وسلّم مورّيًا وصادقًا: نحن من ماء. فأخذ الرجل يفكّر ويقول من ماء، من ماء... ويردّد الكلمة ليتذكر أي قبائل العرب يقال له: ماء. وكان النّبي- صلّى الله عليه وسلّم- أراد أن يقول: إنّا مخلوقون من ماء، آخذًا من الآية القرآنيّة: ﴿وجعلنا من الماء كلّ شيء حيّ﴾[1]. ومن التورية قول الله تعالى: "الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبانٍ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدانِ"[2]. فـ"النجم" معناه الظاهر ذلك الجرم الذي يضيء

١ سورة الأنبياء، الآية (٣٠).

٢ سورة الرحمن، الآيتان: (٥- ٦).

ليلا، ومعناه الخفي البعيد هو ما ليس له ساق من النبات، والمعنى الثاني هو المراد. ومن التورية قول الذهبي:

يا عاذلي فيه قل لي إذ بد كيف أسلو

يمر بي كل وقت وكلما مر يحلو

فلكلمة (مر) في البيت الثاني معنيان، أحدهما قريب غير مراد وهو من المرارة بدليل مقابلتها بكلمة يحلو، والآخر بعيد وهو الذي يريده الشاعر وهو مأخوذ من المرور. ومن التورية قول الشاعر:

أصون أديم وجهي عن أناس لقاء الموت عندهم الأريب

وربُّ الشعر عندهمُ بغيض ولو وافي به لهمُ حبيب

* كلمة "حبيب" لها معنيان: أحدهما ظاهر "المحبوب" وهو المعنى القريب الذي يتبادر إلى الذهن بسبب وجود القرينة "بغيض" وهو غير مراد، والثاني معنى بعيد خفي هو اسم الشاعر أبو تمام "حبيب بن أوس" وهو ما أراده الشاعر. وقول الآخر:

لُجُيْنُ عيْنِي كم جرى لِطيبِ عيشٍ ذهبا

* كلمة "ذهبا" لها معنيان: أحدهما ظاهر "معدن الذهب" وهو المعنى القريب الذي يتبادر إلى الذهن بسبب وجود القرينة "لجين أي الفضة" وهو غير مراد، والثاني معنى بعيد خفي هو "مضى" وهو المراد. وقول الآخر:

أبيات شعرك كالقصو ر ولا قصور بها يعوق

ومن العجائب لفظهــا   حرٌّ ومعناها رقيـق

*لفظ رقيق يحمل معنيين، أولهما "العبد المأجور"، وهو المعنى الظاهر القريب لوجود قرينة "الحرّ" في مقابلها وهو غير مراد، والثاني بعيد وهو "اللطف السهل" المأخوذ من الرقة وهو الذي يريده الشاعر. وقول الشاعر:

يا عاذلي فيه قل لـي   إذا بدا كيف أسلو

يمر بي كل وقــت   وكلما مر يحلو

*لفظ "مر" لها معنيان معنى قريب ظاهر وهو "المرارة" لوجود قرينة "يحلو"، وهو غير مراد ومعنى بعيد خفي بمعنى"المرور" وهو الذي يريده الشاعر. وقول الآخر:

والنهر يشبه مبــردا   فلأجل ذا يجلو الصدي

*لفظ "الصدى" لها معنيان "معنى قريب ظاهر وهو " الطبقة التي تعلو الحديد وتذهب بلمعانه" بدليل وجود قرينة " يجلو" وهو معنى غير مراد ،ومعنى بعيد خفي وهو " الظمأ" وهو المعنى المراد.

الالتفات

الالتفات من المحسنات البديعية المعنوية، فهو لا يعتمد على التلوين الموسيقي، إنما يعتمد على التلوين النفسي، وهو: الانتقال بالأسلوب من صيغة

التكلم أو الخطاب أو الغيبة إلى صيغة أخرى من هذه الصيغ، بشرط أن يكون الضمير في المنتقل إليه عائدًا في نفس الأمر إلى الملتفت عنه، بمعنى أن يعود الضمير الثاني على نفس الشيء الذي عاد إليه الضمير الأول، فمثلا قولك: أكرم محمدًا وأرفق به، ليس من الالتفات، فالضمير الأول في أكرم للمخاطب، أي: أنت، والضمير الثاني للغائب، ومع ذلك لا يسمى التفاتا؛ لأن الضميرين ليسا لشخص واحد فالأول للمخاطب والثاني لمحمد.

ومثال ذلك من القرآن الكريم قوله تعالى: "فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا"[١].

فالضمير في الجملة الأولى للمخاطب وهو: أنت، وفي الجملة الأخيرة للمتكلم وهو: نحن، ففيه انتقال من الخطاب للتكلم ومع ذلك لا يسمى التفاتا؛ لأن المراد ليس واحدًا.

فالالتفات هو انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار، وعن الإخبار إلى المخاطبة وما يشبه ذلك. ومن الالتفات الانصراف عن معنى يكون فيه إلى معنى آخر[٢].

قال ابن الاثير في كنز البلاغة: الالتفات يسمى شجاعة العرب، وينقسم إلى أقسام[١]:

---

١ سورة طه، الآيتان (٧٢– ٧٣).

٢ كتاب البديع ص ٥٨.

الأول: التفات من التكلم إلى الخطاب، كقوله تعالى:" وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ"[٢]. الأصل: وإليه أرجع، فالتفت من التكلم إلى الخطاب.

الثاني: التفات من التكلم إلى الغيبة، كقوله تعالى:"إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ، فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ"[٣]، حيث لم يقل فصل لنا.

الثالث: التفات من الخطاب إلى التكلم كقوله تعالى:" قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ"[٤]. على أنه سبحانه نزل نفسه منزلة المخاطب فالضمير في قل للمخاطب، وفي رسلنا للمتكلم، (وقد زعم أحد الباحثين أنه لم يعثر له على شاهد)[٥].

الرابع: التفات من الخطاب إلى الغيبة، كقوله سبحانه وتعالى:" ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٧٠) يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ"[٦]؛ فانتقل من الخطاب إلى الغيبة، ولم يقل يطاف عليكم، ومثله قوله سبحانه وتعالى: " حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ"[٧].

---

١ فن البلاغة، ص ٢٨٠ (بتصرف).

٢ سورة يس، الآية (٢٢).

٣ سورة الكوثر، الآيتان: (١– ٢).

٤ سورة يونس، الآية: (٢١).

٥ الصور البديعة، د/حفني شرف، ج٢، ص١٢٦.

٦ سورة الزخرف، الآيتان: (٧٠– ٧١).

٧ سورة يونس، الآية: (٢٢).

الخامس: التفات من الغيبة إلى التكلم، كقوله سبحانه وتعالى:"وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا"[1]؛ فانتقل من الغيبة إلى التكلم، ولم يقل وزين، ومنه قوله سبحانه وتعالى: "وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ"[2].

السادس: التفات من الغيبة إلى الخطاب، كقوله تعالى: "الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ(٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ(٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ"[3]. وكقوله تعالى: "وَقالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا"[4]. وكقوله سبحانه وتعالى: "وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا.إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاء"[5].

غير أن من يجد في الالتفات فائدة، لا يخص تلك الفائدة بالتسرية عن النفس، ودفع السأم عنها، وتجديد نشاطها، كما ذهب معظم من عرض للالتفات وقيمته البلاغية، فتلك فائدة عامة، ولكنه يجد بالإضافة إلى هذه الفائدة العامة فوائد أخري جمة يحسن أن نراعيها ولا نهملها لأهميتها وإبراز قيمتها البلاغية.

---

١ سورة فصلت، الآية: (١٢).

٢ سورة فاطر، الآية: (٩).

٣ سورة الفاتحة، الآيات: (٢– ٥).

٤ سورة مريم، الآيتان: (٨٨– ٨٩).

٥ سورة الإنسان، الآيتان: (٢١– ٢٢).

من هذه الفوائد: التلطف والترفق مع المخاطب، ففي قوله تعالى: "وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ"[١] . أصل الكلام: ومالكم لا تعبدون الذي فطركم، ولكنه يريد أن ينصحهم فأبرز الكلام في صورة من ينصح نفسه تلطفًا، فهو لا يبغي لهم إلا ما يبغيه لنفسه، فإذا انقضى غرضه، كشف عن مراده، وبين أن القصد إليهم فقال: وإليه ترجعون.

من فوائد الالتفات: الاختصاص، ففي قوله سبحانه وتعالى: "وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ"[٢]. فعدل عن لفظ الغيبة إلى التكلم؛ لأن الغرض إيراز القدرة على إرسال الرياح، إثارة السحب، وإحياء الميت، وهذا لا يتأتى إلا من الله سبحانه وتعالى، فناسب ذلك العدول إلى ضمير المتكلم؛ لأنه أدل على إبراز العرض.

ومن فوائده أيضا: التوبيخ، ففي قوله سبحانه وتعالى: "وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا (٨٨) لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا"[٣]، عدل عن الغيبة في قالوا إلى الخطاب في جئتم؛ لأن من يزعم اتخاذ الرحمن ولدا لا شك أنه مفتون في دينه، ويستنكر منه هذا القول الآثم وينبغي أن يوبخ عليه، وتوبيخ الحاضر أشد نكاية وألما من توبيخ الغائب وهذا سر الالتفات في الآية الكريمة.

---

١ سورة يس، الآية: (٢٢).

٢ سورة فاطر، الآية: (٩).

٣ سورة مريم، الآيتان: (٨٨– ٨٩).

ومنه قوله سبحانه وتعالى: "وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ"[1]. فالتفت إلى ضمير المتكلم؛ لأنه أبلغ في الترهيب، إذ لا ينبغي أن تكون الرهبة الحقيقية من أحد سوي من الله سبحانه وتعالى.

ومن فوائد الالتفات أيضا: قصد المبالغة في التعجب من أحوال المخاطبين، كقوله سبحانه وتعالى:" هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم"[2]. فسياق الآيات يعني أن هذا وقع في مشقة، أو ألم به ضيق دعا الله النجاة، وأمن في نفسه الشكر إذا تحقق رجاؤه، فإذا تخلص من هذه المشقة نسي ما كان يدعو الله إليه، وعبث في الأرض بغير الحق، فعدل هنا عن الخطاب إلى الغيبة، وكان حقه أن يقول: وجرين بكم، ولكنه عبر بالغيبة، كأن القصة لأناس آخرين غير المخاطبين ليتعجبوا من أحوالهم، وينكروا عليهم– وهم في الواقع يتعجبون ويذكرون حال أنفسهم– البغي والفساد بعد النجاة.

وابن جني عندما يتناول الالتفات لا ينظر إليه تلك النظرة السطحيه التي تدلنا على سره البلاغي: وهو العمل على تجديد نشاط السامع، ونظرية له من أن يسير على ضرب واحد من الكلام، ووتيرة واحدة من الأسلوب، فيمل

---

١ سورة النحل، الآية: (٥١).

٢ سورة يونس، الآية: (٢٢).

سماعه ويزوي وجهه عن المتكلم، ولكن ابن جني لا يأخذ بهذا الرأي ولا يجد فيه ضربا من الاتساع لانتقاله من لفظ إلى لفظ فحسب، بل له غرض أهم، وأمر أعلى من مجرد السماع، يقول في قراءة الحسن: "وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ"[1]، بياء مضمومة، إنه ترك الخطاب إلى لفظ الغيبة. كقوله سبحانه وتعالى: "حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ"[2].

وكأنه ـ والله أعلم ـ إنما عدل فيه عن الخطاب إلى الغيبة، فقال يرجعون بالياء رفقا من الله ـ سبحانه وتعالى ـ بصالحي عبادده المطيعين لأمره... فصار كأنه قال: "اتقوا أنتم يامطيعون يوما يعذب فيه العاصون " فالسر البلاغي في هذا الالتفات من الخطاب إلى الغيبة، ترفق من الله سبحانه وتعالى بالمؤمنين بدلا من صريح مخاطبتهم في مجال الوعيد والإنذار، ولهذا السر البلاغي وحده يعزو ابن جني سبب الالتفات، ثم يؤكد لنا الالتفات لا يكون إلا لغرض من الأغراض، فليس ينبغي أن يقتصر في ذكر علة الالتفات من الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى الخطاب بما ألف أصحاب البلاغة أن يرددوه في قولهم: إن فيه ضربا من الاتساع في اللغة لانتقاله من لفظ إلى لفظ، وهذا ينبغي أن يقال إذا عري الموضوع عن غرض متعمد، وسر على مثله تنعقد اليد"[3].

---

١ سورة البقرة، الآية: (٢٨١).

٢ سورة يونس، الآية: (٢٢).

٣ المحتسب، ابن جنّي، ج١، ص ١٤٥.

ويمضي ابن جني على هذا النحو يبين لنا سر الالتفات في أكثر من موضع في القرآن الكريم، ويجدر بنا أن نوضح ما قاله في سورة الفاتحة من فائدة عظيمة.

فالقرآن قد عبر أولا عن لفظ الجلالة بأسلوب الغائب فيقول في سورة الفاتحة " الْحَمْدُ لِلَّهِ" ثم يعبر ثانيا بأسلوب الخطاب فيقول: "إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ"[1]. وترك أسلوب الغائب إلى أسلوب الخطاب ليس مجرد اتساع في اللغة، أو التصرف في اللفظ، بل لأمر أعلى وغرض أسمى، وذلك أن(الحمد) أقل درجة من العبادة: فالإنسان يحمد نظيره ولايعبده؛ لأن العبادة قمة الطاعة والتقرب بها غاية النهاية ولذلك استعمل القرآن لفظ (الحمد) وهو الأقل درجة مع الغائب فقال: (الحمد لله)، ولم يقل: (الحمد لك). وفي مجال التقرب إلى الله بالعبادة التي تعتبر قمة الطاعة استعمل لفظ العبادة مع المخاطب قال: (إياك نعبد) ولم يقل: (الله نعبد).

وآخر السورة يجري على هذا النمط أيضا فالله سبحانه وتعالى يقول: "صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ"[2]، ولم يقل: (غير الذين غضبت عليهم)، كما قال: "الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ"[3]؛ لأن ذكر النعمة موضع

---

١ سورة الفاتحة، الآية: (٥).

٢ سورة الفاتحة، الآية: (٧).

٣ سورة الفاتحة، الآية: (٧).

تقرب إلى الله تعالى فصرح بالخطاب، ولما صار الكلام إلى ذكر الغضب أبعد عنه ذكر اللفظ ترفقا وتلفطا[١].

التعبير عن المستقل بلفظ الماضي

ومن صور إخراج الكلام عن مقتضى الظاهر: التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي، ويغلب ذلك فيما إذا كان معنى الفعل من الأمور الهائلة العظيمة التي تشيع الخوف في النفوس، وتزرع المهابة في القلوب مثل الآيات القرآنية العديدة، التي تعبر عن وقوع الأحداث في الآخرة، وتتحدث عن الجنة والنار، وجزاء الإعمال التي أُنجزت، أو اقترفت في الدنيا، وذلك كقوله تعالى: "ويَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ"[٢].

قال: ففزع بلفظ الماضي بدلا من يفزع بلفظ المضارع، وذلك لنكتة بلاغية، وهي أن الفزع عند النفخ في الصور أمر محقق لا شك فيه، وحال الخلق حال خوف ورهبة، وهذا شيء مقطوع به لا يرقى إليه الظن، ولما كان أمرا محققا لايصح أن ينازع فيه أحد عبر عنه بلفظ الفعل الماضي، الذي يدل على أن الأمر قد حدث بالفعل.

---

١ المحتسب، ابن جنّي، ج١، ص ٤٦، والجامع، ابن الأثير، ص٩٩، والبرهان، ج٣، ٢٧٢.

٢ سورة النمل، الآية: (٨٧).

ومن ذلك قوله تعالى:" وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ..."[1]، قال: وحشرناهم بلفظ الماضي بدلا من (ونحشرهم) فقبله فعلان مضارعان، ولكنه عدل عن المضارع إلى التعبير بلفظ الماضي دلالة على تحقق وقوع الحشر، وأنه لتحققه والجزم بوقوعه كان جديرًا أن يعبر عنه بلفظ الماضي، الذي يدل على تحقق الوقوع في الزمن الماضي.

ومثله قوله تعالى:" وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا"[2]، أي ويقولون: لم تشهدون؟ لأن القول والشهادة يقعان في الآخرة، وهما أمران محققان فعبر عنهما بالماضي.

وقوله تعالى:" وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا"[3].

وقوله تعالى:" وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ"[4]، أي: وتكب وجوههم في النار.

وغير ذلك كثير في القرآن الكريم من الآيات التي يدل معناها على أنها لم تقع بعد، وإنما سوف تقع في المسقبل، ووقوعها محقق لا شك فيه؛ لأن الله قد وعد بها المؤمنين أو وعد بها المؤمنين، أو أوعد بها الكافرين، فكان التعبير

---

١ سورة الكهف، الآية: (٤٧).

٢ سورة فصلت، الآية: (٢١).

٣ سورة الأعراف، الآية: (٤٤).

٤ سورة النمل، الآية: (٩٠).

الصادق عنها الذي يدل على القطع بها هو التعبير بلفظ الماضي، ليلائم معناه الذي حدث فعلا، الأمر المقطوع بوقوعه وإن لم يقع بعد، والمعنى الغالب في أفعال الدعاء والرجاء أن يكون في المستقبل، ولكن يعبر عنه بلفظ الماضي، يقول القائل(صحبتك السلامة وحفظك الله ورعاك الله) ولا يحتاج لنقله إلى صيغة المضارع؛ لأن المعنى بالبداهة معلق بالاستقبال، وفي بقائه علي صيغة الماضي، ما يشعر بقوة الأمل في الاستجابة، كأن ما يرجى أن يكون قد كان، وأصبح من المحقق المستجاب، ولا شك أن هذا المعنى مقصود أنه لم يأت عن عجز في اللغة ، ولا يمتنع على قائل أن ينقله إلى صيغة المضارع إذا شاء[1].

التعبير عن الماضي بلفظ المستقبل

ومن صور خروج الكلام عن مقتضى الظاهر، التعبير بلفظ المستقبل عن الفعل الذي حدث في الزمن الماضي، ومن ذلك قوله تعالى: (إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ)[2].

فقال: أرى في المنام بلفظ المضارع الذي يدل على الحال، ولم يقل رأيت في المنام، وهو ما يقتضيه ظاهر الكلام ؛ لأن رؤيا إبراهيم عليه السلام للحلم كانت قبل زمن التكلم، فالظاهر أن يعبر بلفظ الماضي، ولكنه عدل عن ذلك؛ لأنه يستحضر صورة الرؤيا التي لا تفارق خياله، فهو يراها ماثلة أمام بصره،

---

١ اللغة الشاعرة، العقاد، مطبعة الاستقلال، ص٨٢.

٢ سورة الصافات الآية (١٠٢)

وتتجدد المرة تلو المرة، وواضح أن التعبير الدقيق عن هذه الصورة الحاضرة هو لفظ المضارع؛ إذ أن الفعل الماضي لا يفي بنقل هذه الصورة كما وضحناها.

ومن ذلك قوله تعالى: (أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ)[1]، ولم يقل وفريقا قتلتم، عبر بلفظ المضارع لاستحضار تلك الصورة البشعة في قتل الأنبياء، لتثبينها في القلوب، وتنفير النفوس منها لشدة فظاعتها، ودلالتها على فسادهم وطغيانهم.

ومثل قوله تعالى: (قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)[2]. أي فلم قتلتم؟" ولكنه عبر بالمضارع لاستحضار صورة القتل المروعة ، الإنكارها وبشاعتها.

ومن ذلك قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً)[3]. لم يقل فأصبحت الأرض مخضرة، رغم أن قبلها فعلا ماضية، وهو أنزل ولكنه عبر بالمضارع دلالة على الخضرة المستمرة، وبقائها حينا بعد حين لا تزول ولا تختفي، فأثر الماء الساقط من السماء باق في جميع الأوقات.

ومثله قوله تعالى: (وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ)[4]. قال: فتثير بلفظ المضارع، وقبله فعل ماض، وبعده فعل ماض كذلك،

---

١ البقرة (٨٧)

٢ سورة البقرة ٩١

٣ سورة الحج (٦٣)

٤ سورة فاطر الآية (٩)

فحق التعبير أن يكون بلفظ الماضي أيضًا، ولكنه عبر بالمضارع مبالغة في استحضار صورة إثارة الرياح للسحاب، لتتصورها النفوس، وتستقر في القلوب.

ومنه: (وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ)[1]، أي وما أرسلنا المرسلين. ومنه: (وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ)[2]. أي واتبعوا ما تلته الشياطين.

أسلوب الحكيم

من الأمثلة: قال تعالى: «يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَواقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ»٣.

البحث: قد يخاطبك إنسان أو يسألك سائل عن أمر من الأمور فتجد من نفسك ميلا إلى الإعراض عن الخوض فى موضوع الحديث أو الإجابة عن السؤال لأغراض كثيرة منها أن السائل أعجز من أن يفهم الجواب على الوجه الصحيح، وأنه يجمل به أن ينصرف عنه إلى النظر فيما هو أنفع له وأجدى عليه، ومنها أنك تخالف محدثك في الرأي ولا تريد أن تجبهه برأيك فيه. وفي تلك الحال وأمثالها تصرفه في شيء من اللباقة عن الموضوع الذي هو فيه إلى ضرب من الحديث تراه أجدر وأولى.

---

١ سورة الأنعام الآية (٤٨)

٢ سورة البقرة الآية (١٠٢)

٣ سورة البقرة الآية (١٨٩)

انظر إلى المثال تجد أن أصحاب الرسول– صلّى الله عليه وسلّم– سألوه عن الأهلة، لِمَ تبدو صغيرة ثم تزداد حتى يتكامل نورها ثم تتضاءل حتى لا ترى؟ وهذه مسألة من مسائل علم الفلك يحتاج في فهمها إلى دراسة دقيقة طويلة؛ فصرفهم القرآن الكريم عن هذا ببيان أن الأهلة وسائل للتوقيت فى المعاملات والعبادات؛ إشارة منه إلى أن الأولى بهم أن يسألوه عن هذا، وإلى أنّ البحث في العلوم يجب أن يرجأ قليلا حتى تتوطد الدول وتستقرّ صخرة الإسلام.

مراعاة النظير

قد يجمع الأسلوب بين أمور متناسبة بحيث إذا ذكر أحدها كان من المناسب أن يذكر بجواره ما يناسبه من هذه الأمور التي لا تضاد بينها، ومن ذلك ما يلي: قال اللهُ تعالى: (وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ)[١]، وقال الله تعالى: (وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى)[٢]، وقال الله تعالى: (الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ)[٣].

انظر فيما سبق من أمثلة، وتأمل الأمور التي تضمها كل مثال تجد بينهما من التناسب الواضح ما يجعلها مقبولة بجوار بعضها من غير تضاد بينهما، وكل مثال منها يسمى المحسن المعنوي فيه "مراعاة النظير".

---

١ سورة الفجر الآيتان (١ ،٢)

٢ سورة الضحى الآيتان (١ ،٢)

٣ سورة الرحمن الآيتان (٥ ،٦)

الخلاصة: مراعاة النظير هي أن يجمع الكلام بين أمور متناسبة من غير تضاد بينها. ولا شك أن مراعاة النظير تكسب المعنى جمالا والكلام روعة وتأثيرًا.

المشاكلة

من الأمثلة:

١– قال اللهُ تعالى: (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا)[١].

٢ – قال اللهُ تعالى: (نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ)[٢].

٣– قال اللهُ تعالى: (فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ)[٣].

البحثُ: تأمل في المثال الأول سمى الله تعالى جزاء السيئة باسم السيئة؛ لوقوع جزاء السيئة بجوارها.

وفي المثال الثاني سمى الله تركهم لأوامره بنسيانهم له لوقوع ذلك بجوار قوله سبحانه: (أنساهم أنفسهم).

وفي المثال الثالث سمى الله تعالى رد الاعتداء باسم الاعتداء لوقوعه بجواره أيضًا.

---

١ سورة الشوري الآية (٤٠)

٢ سورة الحشر الآية (١٩)

٣ سورة البقرة الآية (١٩٤)

الخلاصة: المشاكلة: هي ذكر الشيء بلفظ غيره؛ لوقوعه في صحبته تحقيقًا أو تقديرًا، والمشاكلة من المحسنات البديعية المعنوية التي تكسب المعنى جمالًا وطرافة متى أتى بها البليغ مطابقة لمقتضى الحال.

الإرصادُ أو التشريعُ أو التوشيحُ

تعريفه: لغة: جاء في اللسان (رصد): «الراصد بالشيء: الراقب له، والترصّد: الترقّب، والإرصاد في المكافأة بالخير ... والرّصد: القوم يرصدون كالحرس».

واصطلاحًا: عرّفه العسكري بقوله: «هو أن يكون مبدأ الكلام ينبئ عن مقطعه؛ وأوّله يخبر بآخره، وصدره يشهد بعجزه، حتى لو سمعت شعرا، وعرفت رويّه، ثم سمعت صدر بيت منه، وقفت على عجزه قبل بلوغ السماع إليه». أو هو بناء البيت على قافيتين يصح المعنى عند الوقوف على كل منهما.

وقد أطلق عليه البلاغيّون أسماء عدّة أشهرها[1]: "التوشيح"[2]؛ وسمِّي هذا النوع التوشيح، وهذه التسمية غير لائقة بهذا المعنى، ولو سمِّي تبيينا لكان أقرب؛ وهو أن يكون مبدأ الكلام ينبئ عن مقطعه؛ وأوله يخبر بآخره، وصدره يشهد بعجزه.

---

١ ومن أسمائه أيضًا: التبيين: اسم اقترحه العسكري لأنه أقرب إلى المعنى. والتسهيم: ذكره الخطيب التبريزي في (التلخيص) (والإيضاح). والإرصاد: وهو الأعمّ الأغلب في كتب البلاغة قديما وحديثا. كما يسمَّى كذلك التوأم.

٢ ذكره أبو هلال العسكري واعترض على التسمية بقوله (١): «وهذه التسمية غير لائقة بهذا المعنى».

ومن أسمائه أيضًا: التشريعُ، والتشريعُ لا يكاد يستعمل في الكلام المنثور المسجوع إلا قليلا وليس من الحسن في شيء! واستعماله في الشعر أحسن منه في الكلام المنثور.

وتفصيل ذلك أن يبني الشاعر أبيات قصيدته على وزنين من أوزان الشعر وقافيتين. فإذا وقف من البيت على القافية الأولى كان شعرا مستقيما من وزن على عروض، وإذا أضاف إلى ذلك ما بني عليه شعره من القافية الأخرى كان أيضا شعرا مستقيما من وزن آخر على عروض، وصار ما يضاف إلى القافية الأولى للبيت كالوشاح.

ومما جاء في كتاب الله عز وجل من هذا النوع قوله تعالى: (وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)[1]، فإذا وقفت على قوله تعالى (فيما فيه) عرف السامع أن بعده (يختلفون) لما تقدم من الدلالة عليه.

وهكذا قوله تعالى: (وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا ۚ قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ)[2]، وإذا وقفت على "يكتبون" عرف أن بعده "ما تمكرون" لما تقدم ذكر المكر.

---

١ سورة يونس الآية (١٩)

٢ سورة يونس الآية (٢١)

وضرب منه آخر: وهو أن يعرف السامع مقطع الكلام، وإن لم يجر ذكره فيما تقدم، وهو كقوله تعالى: (ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ)[١]، فإذا وقف على قوله: "لننظر كيف"مع ما تقدم من قوله تعالى: (جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ) علم أن بعده "تعملون" أو تصنعون أو ما هو في هذا المعنى؛ لأن المعنى يقتضيه.

ومن الضرب الأول قوله تعالى: (فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)[٢].

وهكذا قوله تعالى: (مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)[٣]، فإذا وقف على أوهن البيوت، يعرف أن بعده بيت العنكبوت.

---

١ سورة يونس الآية (١٤)

٢ سورة العنكبوت الآية (٤٠)

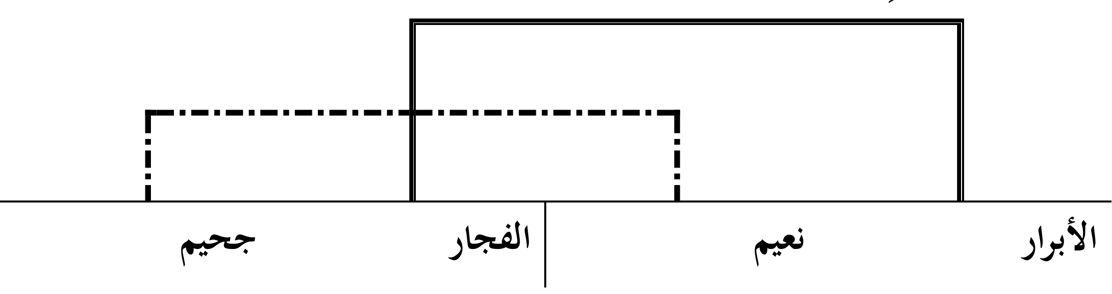
٣ سورة العنكبوت الآية (٤١)

الترصيع

الترصيع في اللغة: وضع الجواهر والأحجار الكريمة في الذهب.

ومعناه في البلاغة: أن يقسم الكاتب أو الشاعر عباراته إلى أقسام منفصلة، ثم يجعل كلّ لفظ منها في مقابل لفظ آخر، يتفق وإياه في الوزن وحروف الروي. وإذ تحدثنا في النثر فقلنا: (حرف الرويّ) فما ذلك إلاّ من باب التوسّع؛ لأنّ حروف الرويّ لا تكون في الحقيقة إلاّ في الشعر.

ومثال الترصيع في القرآن الكريم: ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [١].



وكذلك قوله تعالى: ﴿ إنّ إلينا إيابهم * ثمّ إنّ علينا حسابهم﴾ [٢].

ومثاله من الكلام النبويّ: (اللهم تقبّل توبتي، واغسل حوبتي)، صححه الذهبي.

ومثاله من نثر الفصحاء: العاقل يفتخر بالهمم العالية، لا بالرمم البالية.

ومثاله من الشعر قول أبي فراس الحمدانيّ :

---

١ سورة الانفطار، الآيتان: (١– ١٤).

٢ سورة الغاشية، الآيتان : (٢٥ – ٢٦).

وأفعاله بالراغبين كريمة   وأمواله للطالبين نهاب

والترصيع فيما سبق جاء تلقائيًّا خادمًا للمعنى، ولم يأتِ الكلام لغرض تحقيق الترصيع، لذلك تميّز بالجرس العذب المؤثر.

أمّا إذا قصد لذاته فجاء المعنى ذليلاً للترصيع، بان التكلف وأصبح الجرس نشازًا لا يتلاءم مع المعنى سواء كان ذلك في النثر أم في الشعر.

والحمد لله رب العالمين

ثِبْتُ المصادر والمراجع

١ـ القرآن الكريم.

ـالآمدي : أبوالقاسم الحسن بن بشر: الموازنة بين الطائيين دار المعارف. القاهرة.

ـأبو هلال العسكري: الحسن بن عبد الله:الصناعتين،البابي الحلبي، القاهرة، 1971م.

ـابن الأثير: ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، دار الرفاعي، الرياض، 1983م.

ـابن قتيبة الدينوري، الشعر والشعراء، تحقيق وشرح أحمد مُحَمَّد شاكر، دار المعارف (د، ت).

ـابن سلاَّم الجمحي: طبقات فحول الشعراء، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٢م.

ـابن رشيق: أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، دار الجيل، بيروت 1972م.

ـابن طباطبا: مُحَمَّد بن أحمد العلوي: عيار الشعر، منشاة المعارف. الإسكندرية. (د، ت).

ـالجاحظ: البيان والتبيين ، مؤسسة الخانجي ، القاهرة ١٩٤٨م .

ـشوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، دار المعارف الطبعة الثامنة.

ـ عبد القاهر الجرجاني: - أسرار البلاغة في علم البيان، دار المنار، مصر1947م.

- دلائل الإعجاز، مكتبة القاهرة، 1969م.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات